الدعاء

في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه

تأليف

الدكتور علي بن حسن بن ناصر الألمعي
الأستاذ المشارك في كلية الشريعة وأصول الدين
قسم العقيدة - جامعة الملك خالد - أبها

دار الأعلام
مكتبة أبها الحديثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطَّبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار الأعلام

الأردن ـ عمان ـ العبدلي ـ مركز جوهرة القدس ـ الطابق ٢ مكتب ٢٠٥
هاتف ٤٦٥٧٤٦٨ ـ ٠٦ ـ فاكس ٤٦٥٧٤٦٩ ـ ٠٦ ـ خلوي ٥٦٥٢٨٠٤ ـ ٧٩ ـ ٠٠٩٦٢
ص.ب: ٩٢٧٥٦٣ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-Mail: AL_AALAM@YAHOO.COM

مكتبة أبها الحديثة

المملكة العربية السعودية ـ أبها ـ شارع الملك فيصل
أمام جامعة الملك خالد
هاتف: ٢٢٦٢١٧٩ ـ فاكس: ٢٢٤٢٢٨٤
ص.ب: ٣٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله عدد خلقه، وزنة عرشه، ورضا نفسه، ومداد كلماته، أحمده حمداً يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وصلى الله وسلم على خير خلقه الداعي إلى رضوانه، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن صلاح العبد وسعادته، وعزته وكرامته، واستقراره وطمأنينته، مرهونة جميعها باعتماده على الله وحُسن عبادته، وصدقه مع الله ودوام ضراعته.

وهو بهذا النهج العظيم، والمسلك القويم، يخلص نفسه بفضل الله ورحمته من ذل العبودية لغير الله، ويتحرر من رقِّ الشهوات، ويصفو من كَدَر الشبهات، وتلك وأيمُ الله أعلى المنازل وأعظم الدرجات.

إن العبد حين يمد يديه إلى خالقه المنعم عليه، يعلم أنه لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه، قد أسقط من حسابه الاعتماد على غير الله لا سيما فيما لا يقدر عليه إلا الله، وأصبح همه التعلق بربه ومولاه، ينقطع إليه في جميع الأحوال، فينال بذلك أحسن العطاء وأعظم النوال.

وهو في حياته بين رجاء ورهب، واستغاثة وطلب، يدعو ربه في السراء ويلهج بالحمد والثناء، ويستغيث بالله في الضراء، ليكشف عنه الكرب ويدفع البلاء، يستجير بعفو ربه من عذابه، ويستعيذ برضاه من سخطه وعقابه.

هذا شأن المؤمن الصادق وهو في ذلك على هُدىً من هَدْي نبيه محمد ﷺ الذي كان له مع مقام الدعاء شأن عظيم.

فقد روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدّثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه

العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه، ماداً يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه.

فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله! كذاك - وفي رواية- كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجلّ: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾(١)، فأمده الله بالملائكة(٢).

وهذا نبي الله نوح عليه السلام، يدعو الله تعالى، ويستجيب له ربه بعد أن قضى مئات السنين يدعو قومه، قال تعالى في شأنه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾(٣). وقد ذكر الله جل وعلا استجابته لدعاء نبيه بقوله: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾(٤)... الآيات.

وفي موضع آخر يقول تعالى في شأن نوح عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾(٥).

وهذا نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام، يدعو ربه بدعوات كثيرة، يدعو ربه حينما كان يبني ويرفع قواعد البيت ومعه ابنه إسماعيل: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾(٦).

ويدعو ربه بقوله: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾(٧). ويدعو ربه بدعوات أخرى ليس هذا موضع بسطها.

---

(١) سورة الأنفال: ٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ٣/ ١٣٨٣ ح (١٧٦٣) وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٥١، ولباب النقول ١٠٧.

(٣) سورة القمر: ١٠.

(٤) سورة القمر: ١١.

(٥) سورة الصافات: ٧٥-٧٦.

(٦) سورة البقرة: ١٢٧.

(٧) سورة إبراهيم: ٤٠.

ونبي الله أيوب عليه السلام يدعو ربه: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾(١).

وكذلك نبي الله يونس عليه السلام قال تعالى في شأنه: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾(٢).

وهذا نبي الله زكريا عليه السلام، يقول الله تعالى في شأنه: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾(٣).

وقال الله تعالى في شأن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٤).

وقال في شأن موسى في موضع آخر: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾(٥).

وبهذه الأمثلة ندرك أهمية الدعاء، وأن الأنبياء جميعاً يلجأون إلى الله تعالى في مواقف كثيرة ومختلفة في السراء والضراء، في الشدة والرخاء فيجيب الله دعاءهم، ولا بد لأتباعهم من تحقيق هذا المقام العظيم الذي هو عنوان الصلة بالله عز وجل، والاعتماد عليه، والثقة به.

والمؤمن الجاد، الصادق في إيمانه يقتفي أثر الأنبياء، ويهتدي بهديهم ويسير على خطى الذين أنعم الله عليهم فيتأسى بهم في صدق اللجأ، والتضرع إلى الله،

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٣-٨٤.

(٢) سورة الأنبياء: ٨٧-٨٨.

(٣) سورة الأنبياء: ٨٩-٩٠.

(٤) سورة يونس: ٨٩.

(٥) سورة طه: ٣٦-٣٧.

فإن العبد محتاج إلى ربه الذي خلقه فهو يهديه، والذي يطعمه ويسقيه، وإذا مرض فهو يشفيه، والذي يميته ثم يحييه، ولا يجيب الدعاء إلا الله، ولا يغفر الذنب إلا الله، وما أعظم قول المؤمن من خلال توجيه القرآن له ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾[1].

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[2].

هذا هو حال المؤمن الموصول بربه، يكثر من الدعاء ويلح فيه، لأنه قد علم أنه مقام عظيم، ومسلك سديد، لا غنى للعبد عنه، ولا بدَّ له منه، إذ هو مفتاح كل خير وفضل، وشأن كل ذي بصيرة وعقل.

وهو بهذا في عداد المنعَم عليهم، الذين أمرنا جميعاً بأن نسأل الله أن يهدينا صراطهم، قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾[3].

ومن هُدي إلى صراطهم المستقيم فقد حاز أعظم نعمة، وأعلى مقام حيث اختار طريق الأخيار، وبرَّ ليكون مع الأبرار، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾[4].

وسأسوق قصة طريفة، نأخذ منها العبرة والعظة، ونتبين من خلالها عظيم فضل الدعاء وأهميته، وحاجة العبد إليه في كل حال وخصوصاً في مواطن الكرب، فإن الله تعالى يصدق عبده إذا صدق ويغيثه إذا استغاث به.

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٣-١٩٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٣) سورة الفاتحة: ٦-٧.

(٤) سورة النساء: ٦٩-٧٠.

عن عائشة رضى الله عنها قالت: كانت امرأة أعرابية تغشانا، وكانت كثيراً ما تتمثل:

ويومُ الوشاحِ من تعاجيب ربِّنا ألا إنه من ظُلمة الكُفر نجّاني

فقيل لها: إنك تكثرين من التمثل بهذا البيت وإنا نظنه لأمر؛ فما هو؟!

قالت: أجل، كنت عسيفة - أي أجيرة- على قوم بالبادية، فوضعت جارية منهم وشاحاً[١]، فمرت عقاب[٢]، فاختطفته ونحن لا ندري، ففقدنه وقلن: أين هو؟ أنت صاحبته، فحلفتُ، واعتذرتُ، فأبيْنَ قبول قولي وعذري، واستدعين بالرجال فجاؤوا ففتشوني فلم يجدوا شيئاً.

فقال بعضهم: احتملته في فرجها.

فأرادوا أن يفتشوا فرجي، فما ظنكم بامرأة تخاف ذلك؟!

فلما أيقنت بالشر، رفعت رأسي إلى السماء، فقلت: يا رباه أغثني، فمرت العقاب فطرحته بيننا، وندموا، وقالوا: ظلمنا المسكينة، وجعلوا يعتذرون إلي، فما وقعت في كربة إلا ذكرت ذلك، وهو يوم الوشاح، فرجوت الفرج[٣].

هذه قصة امرأة مسكينة وحيدة فريدة، لكنها عرفت ربها فاستغاثت به وحده، ورددت: يا رباه أغثني، فأين هذا الحال من حال الذين يسألون غير الله، ويستغيثون بالمخلوق الضعيف؟ لقد خابوا وخسروا، وضلوا وأضلوا، فكيف يغيث الضعيفَ الفقيرَ، ضعيفٌ وفقيرٌ مثله؟! ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ

(١) الوشاح بكسر الواو: ينسج من أديم عريضاً ويرصّع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها. قال ابن الأثير: ومنه حديث المرأة السوداء؛ وساق طرفاً من القصة، وأورد بيت الشعر السابق في النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/١٨٨؛ وكذا أورده ابن منظور في لسان العرب ١٥/٣٠٦ مادة وشح.

(٢) بضم العين المهملة والقاف طائر من العتاق مؤنثة، وقيل: يقع على الذكر والأنثى. انظر لسان العرب ٩/٣٠٦. وفي النهاية لابن الأثير ورد في ذكر القصة فمرّت حدأة...؛ انظر النهاية ٥/١٨٨.

(٣) أصل هذه القصة في صحيح الإمام البخاري ١/١٢٩ كتاب الصلاة (٨) باب نوم المرأة في المسجد (٥٧) ح (٤٣٩).

خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[١].

اللهم نسألك توحيداً خالصاً، وإيماناً صادقاً وثباتاً على ذلك، وعياذاً بك اللهم من الشرك والشك والنفاق، والزيغ والضلال.

سبب الكتابة في هذا الموضوع:

لقد جال بخاطري موضوعات عديدة وأنا أفكر في كتابة موضوع أنتفع به، وأرجو أن ينفع الله به، فرأيت من أنفع الموضوعات وأهمها موضوع الدعاء الذي كتب فيه الكثير وألف علماؤنا فيه التآليف، ولكني رأيت جانباً مهماً فيه وهو الجانب العَقَدي، بحاجة إلى المزيد من العناية والاهتمام وإلقاء الضوء عليه.

أما الجانب الذي أخذ عناية كبيرة من علمائنا وأفردت فيه المؤلفات الكثيرة، فهو ما يتعلق بجانب الرقائق، والحديث عن الدعاء من حيث: آدابه، وشروطه، وموانع الإجابه، وشرح الأدعية المأثورة ونحو ذلك، ومن أهم الكتب التي وقفت عليها في هذا الجانب:

١- كتاب «مجابي الدعوة» لأبي بكر ابن أبي الدنيا رحمه الله (ت ٢٨١ه) بتحقيق زياد حمدان.

٢- كتاب «الدعاء» للإمام أبي عبد الله المحاملي (ت ٣٣٠هـ) بتحقيق عمرو عبد المنعم.

٣- كتاب «شأن الدعاء» للإمام أبي سليمان الخطابي (ت ٣٨٨هـ) بتحقيق أحمد يوسف الدقاق.

٤- «الدعاء المأثور وآدابه وما يجب على الداعي اتباعه واجتنابه» للإمام أبي بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ) بتحقيق محمد رضوان الداية.

٥- «الترغيب في الدعاء والحث عليه» للإمام أبي محمد عبد الغني المقدسي (ت ٦٠٠هـ) حققه أبو يوسف محمد بن حسن.

---

(١) سورة النمل: ٦٢.

ثم أُلفت كتب في الأذكار والأدعية، ومن أهمها «الأذكار» للإمام النووي رحمه الله. وألف الإمام ابن تيمية رحمه الله «الكلم الطيب» كما ألف الإمام ابن القيم «الوابل الصيب من الكلم الطيب» وألف الإمام ابن الجزري كتابه «عدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين»، وشرحه الإمام الشوكاني رحمه الله فسمى الشرح «تحفة الذاكرين لعدة الحصن الحصين».

وكتب المعاصرون في الدعاء. ومن الكتب التي وقفت عليها: كتاب «الدعاء» للشيخ حسين العوايشة، وكتاب «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء» للشيخ محمد الغزالي وغيرهما.

وجُلُّ ما ورد في هذه الكتب يركز على الجانب التربوي - وأعني به الرقائق وشرح الأدعية- وما يأتي من الحديث عن مسائل أخرى، فهو بشكل موجز في بعض الكتب التي أشرت إليها، ولا شك أن هذا الجانب مهم جداً، ونحن بحاجة إليه.

لكن الجانب العقدي في الموضوع ،من وجهة نظري، بحاجة إلى المزيد من إلقاء الضوء عليه، وجمع الشوارد فيه، وإبراز بعض القضايا المتعلقة به، وقد استعنت بالله وكتبت هذا البحث معتمداً على نصوص القرآن والسنة، وأقوال سلف الأمة الذين كتبوا وألفوا وأفتوا في جميع مسائل الدين، ودافعوا عن الحق وحموا حمى التوحيد بفضل من الله على هذه الأمة، فجزاهم الله عنا وعن جميع المسلمين خير الجزاء.

ولا يخفى أن لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عناية فائقة بمسائل العقيدة ودلائلها، والرد على المخالفين من أهل الأهواء والبدع، ومن ضمن ذلك مسألة الدعاء، وما تفرع عنها من الاستغاثة، والتوسل، والاستعانة، ونحوها.

فقد ألف وناقش في ذات الموضوع، وما يتصل به، موضحاً المنهج الحق وكاشفاً زيوف الباطل، لأنه كما يقول في الرد على البكري: «العلم شيئان: إما نَقل مصدَّق، وإما بحث محقّق، وما سوى ذلك فهَذَيان مزوّق»[١].

---

(١) انظر طريق الوصول إلى العلم المأمول للشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله ص١٣٨، وقد جمع في هذا الكتاب قواعد وضوابط وأصولاً اختارها من كتب الإمامين ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله.

وناقش الأخنائي، ورد على طوائف البدع الذين ابتدعوا عبادات لم يأذن بها الله، وسلكوا مسالك الجهل والظلم، ولقد لبّسوا على الناس حتى يُظن بهم أنهم يسلكون مسالك العلماء، فتسمع من أحدهم جعجعة ولا ترى طِحناً كما يقول عنهم.

وكذلك كتب الإمام ابن القيم، ومن بعدهما الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، وحفيده سليمان بن عبدالله بن محمد رحمهم الله جميعاً، كما كتب غيرهم كذلك في كتب ورسائل عديدة. ولست أزعم أني أهل للكتابة في هذا الموضوع ولا في غيره، ولا أنني أتممت نقصاً، أو أقمت عوجاً، أو أصلحت خللاً، كلا، ولكني أشعر بالواجب، ومن هذا المنطلق أدليت بدلوي، وساهمت في هذا الميدان، لأجمع شتات ما أراه مفرقاً، وأذكر بما قد يغفل عنه بعض إخواني، وقد اشتمل البحث بعد هذه المقدمة على سبعة عشر مبحثاً وخاتمة وذلك على النحو التالي:

١- معنى الدعاء لغة واصطلاحاً.

٢- أنواع الدعاء.

٣- حقيقة الدعاء ومنزلته.

٤- فوائد الدعاء.

٥- مناقشة المنكرين لفائدة الدعاء.

٦- الدعاء والقدر.

٧- شروط إجابة الدعاء.

٨- حكم صرف الدعاء لغير الله.

٩- مناقشة اعتراض المخالفين على الحكم بتكفير من صرف الدعاء لغير الله.

١٠- صور من الشرك في الدعاء.

١١- التوسل في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

١٢- مناقشة شبهات المستغيثين عند القبور.

١٣- نماذج من شعر المخالفين في باب الدعاء .

١٤- الزيارة الشرعية للقبور .

١٥- الدعاء عند الصوفية .

١٦- الدعاء عند الرافضة .

١٧- مسائل متفرقة في الدعاء .

١٨- الخاتمة .

ثم فهارس البحث : -

١- فهرس للآيات القرآنية الكريمة .

٢- فهرس للأحاديث النبوية الشريفة .

٣- فهرس للآثار .

٤- فهرس للأشعار .

٥- فهرس للأعلام .

٦- فهرس للمصادر والمراجع .

٧- فهرس للموضوعات .

هذا وأسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن يتقبل مني هذا العمل، ويغفر لي الزلل، وأعوذ بالله من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، وعين لا تدمع، وقلب لا يخشع، ودعوة لا يستجاب لها .

ولي رجاء من أخي المطلع أن يتفضل على أخيه بإسداء النصح والتوجيه، وألا يبخل عليَّ بذلك، وله مني الدعاء بعظيم الأجر والثواب، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، وصلى الله على سيدنا محمد

وآله وصحبه الأطهار من المهاجرين والأنصار، صلاة وسلاماً دائمين بدوام الليل والنهار، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه:

علي بن حسن بن ناصر الألمعي

أبها: ١٨/ ٢/ ١٤٢١ هـ

معنى الدعاء لغة واصطلاحاً

١ - معنى الدعاء لغة:

تأتي كلمة الدعاء في اللغة بمعانٍ متعددة، منها:

الطلب، والسؤال، والرغبة، والاستغاثة، والحث على فعل الشيء، والابتهال، والنداء.

قال الراغب الأصفهاني: الدعوة هي المسألة الواحدة، والدعاء: الطلب. والدعاء إلى الشيء: الحث على فعله، ودعوت فلاناً: سألته، ودعوته: استغثته.. والدعاء إلى الشيء: الحث على قصده[١].

وقال ابن فارس: الدال والعين والحرف المعتل: أصل واحد، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، تقول: دعوت أدعو دعاء[٢].

وفي «القاموس المحيط»: الدعاء: الرغبة إلى الله تعالى، دعا دعاءً ودعوى، والدَّعاءة: السبابة[٣].

وقال الخطابي: أصل هذه الكلمة مصدر، من قولك: دعوت الشيء أدعوه دعاءً. أقاموا المصدر مقام الاسم. تقول: سمعت دعاء كما تقول: سمعت صوتاً، وكما تقول: اللهم اسمع دعائي[٤].

ويقال: دعوت الله أدعوه دعاءً: ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير، ودعوت زيداً: ناديته وطلبت إقباله[٥].

(١) مفردات ألفاظ القرآن ٣١٥، ٣١٦.

(٢) معجم المقاييس مادة (دعو) باب الدال والعين وما يثلثهما ٣٥٦، ٣٥٧.

(٣) القاموس المحيط فصل الدال باب الواو ٤/ ٣٢٧.

(٤) شأن الدعاء للإمام الخطابي ٣.

(٥) المصباح المنير ١/ ٢٦٤.

وذكر الراغب أن الدعاء كالنداء، قد يقال بيا أو يا، ونحو ذلك من غير أن يضم إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو: يا فلان، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾[١].

ومدلول الدعاء والنداء في القرآن الكريم واحد، وإن كان بينهما عموم وخصوص مطلق، فيجتمعان في السؤال والطلب إذا كان عن رغبة أو رهبة، وينفرد الدعاء إذا كان عبادة كالتسبيح، والتحميد، والتكبير، وغير ذلك ويقال: دعوت زيداً: إذا ناديته، ودعوته زيداً: سميته[٢].

ودعا المؤذن الناس للصلاة فهو داعي الله، والجمع دعاة وداعون، والنبي داعي الخلق إلى التوحيد، وادعيت الشيء: تمنيته، وادعيته: طلبته لنفسي، والاسم الدعوى[٣].

مما سبق يتبين أن مدار الكلمة في اللغة على الطلب، والسؤال والرغبة والنداء، وقد ذكر علماء اللغة معاني أخرى لمشتقات الكلمة منها التسمية ورفعة القدر، والدعوى والاعتزاء، وداعية اللبن، أي: ما يترك في الضرع ليدعو ما بعده.

٢- معنى الدعاء اصطلاحاً:

قال الإمام الخطابي رحمه الله في تعريف الدعاء:

استدعاء العبد ربه -عز وجل- العنايةَ، واستمداده إياه المعونة[٤].

وقال الإمام ابن جرير رحمه الله: مسألة العبد ربه ما أُوعد أولياؤه على طاعتهم بعملهم بطاعته[٥].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن ٣١٦، والآية: ١٧١ من سورة البقرة.

(٢) النهاية لابن الأثير ٢/ ١٢١.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن ٣١٦.

(٤) شأن الدعاء للإمام الخطابي تحقيق أحمد يوسف الدقاق ٤ .

(٥) تفسير الإمام الطبري ٢/ ١٦٠.

وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله: لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول معنيين: دعاء العبادة، ودعاء المسألة[١].

وقال الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: لفظ الدعاء عام ثم يتنوع[٢]، وساق بعد ذلك أنواعه.

والواضح مما سبق أن دعاء العبادة هو: العمل بما ندب الله إليه وأمر به، ومسألة العبد ربه ما وعد به عباده، ودعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه[٣].

وبالتأمل فيما سبق ندرك أن دعاء العبادة عام يشمل جميع العبادات، فالذي يخاف الله ويرجوه راغب وراهب، وهو بهذا عابد لله، وكذا من يذبح قرباناً لله عز وجل، أو ينذر لله، أو يتوكل عليه، ويخلص له، ويحب ربه جل وعلا، يكون بهذه العبادات وسائر القربات سائلاً، راغباً راهباً، طالباً مبتهلاً إلى الله، وهذا دعاء عبادة.

وأما من يسأل ربه أمراً مخصوصاً، ويطلبه شيئاً معيناً، فإن هذا دعاء مسألة، ويظهر ذلك جلياً في طلب المنافع الدنيوية، وطلب دفع المضار.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: سميت الصلاة دعاء لتضمنها معنى الدعاء، وهو العبادة والمسألة، وقد فسر قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[٤] بالوجهين.

قيل: اعبدوني وامتثلوا أمري أستجب لكم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٥]، أي: يستجيب لهم. وهو معروف في اللغة، يقال: استجابه واستجاب له، كما قال الشاعر:

وداع دعا يا من يُجيب إلى الندى فلـم يستجبْـه عنـد ذاك مجيـبُ[٦]

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٣٧.

(٢) الدعاء المأثور وآدابه لأبي بكر الطرطوشي الأندلسي تحقيق د. محمد رضوان٣١.

(٣) انظر بدائع الفوائد للإمام ابن القيم ٣/ ٢.

(٤) سورة غافر: ٦٠.

(٥) سورة الشورى: ٢٦.

(٦) البيت من شعر كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار. انظر لسان العرب مادة (جوب) ١/ ٢٨٣ ط١ دار صادر، بيروت ١٤١٠هـ، وتفسير ابن جرير ٢/ ١٥٩.

وقيل : سلوني أعطكم.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ينزلُ ربّنا كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدُّنيا حين يبقى ثلث الليلِ الآخِرُ، فيقول : مَنْ يَدْعوني فأستجيبَ له، من يسألُني فأُعطيَه، من يستغفرُني فأغفرَ له»[١].

فذكر أولاً لفظ الدعاء، ثم ذكر السؤال والاستغفار، والمستغفر سائل كما أن السائل داع، لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل الطالب للخير، وذكرهما جميعاً بعد ذكر الداعي الذي يتناولهما وغيرهما، فهو من باب عطف الخاص على العام[٢].

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد رحمهم الله جميعاً : وأما دعاء العبادة فهو عبادة الله تعالى بأنواع العبادات من الصلاة، والذبح، والنذر، والصيام، والحج، وغيرهما خوفاً وطمعاً يرجو رحمته، ويخاف عذابه، وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب، فالعابد الذي يريد الجنة، ويهرب من النار هو سائل، راغب، راهب، يرغب في حصول مراده، ويرهب من فواته، وهو سائل لما يطلبه بامتثال الأمر في فعل العبادة[٣].

وهكذا نجد بين النوعين تلازماً، وسيأتي مزيد بيان لهذا في الحديث عن نوعي الدعاء وأدلة ذلك.

---

(١) الحديث: رواه البخاري في التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ٢/ ٤٧، وفي الدعوات (٦٣٢١) وفي التوحيد (٧٤٩٤). ورواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل ١/ ٥٢١ (٧٥٨)، ورواه مالك في الموطأ ١/ ١٦١، باب ما جاء في الدعاء، وأحمد في المسند ٢/ ٢٥٨، ٢٦٤، ٢٦٥، وغيرها من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٣٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٢٧.

أنواع الدعاء

مما سبق ذكره يتبين أن الدعاء على نوعين:

أحدهما: دعاء عبادة. والثاني: دعاء مسألة.

فالأول: عام يشمل جميع العبادات، والعابد لله هو في الحقيقة داعٍ وسائل، يرجو رحمة الله وثوابه، ويخاف غضبه وعقابه.

والثاني: خاص بطلب محدد يسأله العبد، ويطلب ربه حصوله إن كان خيراً عاجلاً أو آجلاً، أو يطلب دفعه إن كان شراً عاجلاً أو آجلاً.

وإذا تتبعنا الآيات التي ورد فيها ذكر الدعاء وجدنا أن منها ما يراد به أحد هذين النوعين تارة، والآخر تارة أخرى، ومنها ما يراد به مجموعهما وهما متلازمان.

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[١].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان[٢].

وهذا التقسيم يجمع معاني الدعاء، والآيات الواردة في الدعاء لا تخرج عن هذه النوعين، إما آيات دالة على دعاء العبادة بجميع أنواعها، أو آيات دالة على دعاء المسألة أو الطلب، أو آيات تشمل النوعين معاً.

وقد فصَّل الإمام الطرطوشي رحمه الله الحديث في أنواع الدعاء، فجعل منه ما يكون بمعنى التوحيد، ومنه ما يكون بمعنى العبادة، ومنه ما يكون بمعنى الاستعانة،

---

(١) سورة الأعراف: ٥٥-٥٦.

(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٢.

ومنه ما يكون بمعنى السؤال والطلب، ومنه ما يكون بمعنى القول ثم ساق الأدلة على ذلك[١].

وذكر غيره أن الدعاء على ثلاثة أوجه:

الأول: توحيد الله والثناء عليه.

الثاني: سؤال الله تعالى العفوَ والرحمة وما يقرّب منه.

الثالث: سؤال الحظ من الدنيا كقول القائل: اللهم ارزقني مالاً وولداً[٢].

وما ذكر من التفصيل في الأنواع لا يتعارض مع التقسيم الأول؛ لأنه يمكن جمع الأنواع الآنفة الذكر في نوعين هما: العبادة والمسألة.

أمثلة من الآيات التي تشمل النوعين:

١ - قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[٣].

يقول ابن القيم: إن المعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى خوفاً ورجاءً دعاء العبادة، فعُلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ يتناول نوعي الدعاء، وبكلٍّ منهما فُسرت الآية.

قيل: أعطيه إذا سألني.

وقيل: أثيبه إذا عبدني.

والقولان متلازمان.

---

(١) الدعاء المأثور وآدابه ٣١-٣٣.

(٢) لسان العرب مادة (دعا) ١٤/ ٢٥٧.

(٣) سورة البقرة: ١٨٦.

وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً، فتأمله فإنه موضع عظيم النفع، قَلَّ مَن يفطن له، وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعداً من هذا القبيل[١].

وهذه اللطيفة من بدائع فوائد الإمام ابن القيم رحمه الله تصلح أن تكون قاعدة وعليها أمثلة كثيرة من القرآن الكريم، وقد ساق طرفاً من الأمثلة منها كلمة (دُلوك) الواردة في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾[٢].

قال ابن القيم: فسر الدلوك بالزوال، وفسر بالغروب وحكيا قولين في كتب التفسير[٣] وليسا بقولين، بل اللفظ يتناولهما معاً، فإن الدلوك هو الميل، ودلوك الشمس: ميلها، ولهذا الميل مبدأ ومنتهى . .

فمبدأه: الزوال، ومنتهاه: الغروب.

فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار، لا يتناول المشترك لمعنييه، ولا اللفظ لحقيقته ومجازه[٤].

والمتأمل في الآية بعد هذا التوضيح يجد أنها جامعة للصلوات الخمس، وقد أمرت بإقامة الصلوات كلها في أوقاتها المحددة بأوجز عبارة وأعظم بيان.

وكذا آية الدعاء السابقة وجهت العباد إلى اللجوء إلى الله جل وعلا ودعائه دعاء عبادة، ودعاء مسألة، يصاحب هذا اللجوء والتوجه إلى الله شعور ملازم للعبد بأن الله قريب منه، فما عليه إلا أن يخلص ويصدق في عبادته وسؤاله، ويستجيب لربه بطاعته والتذلل له وحده.

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٣.

(٢) سورة الإسراء: ٧٨.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ١٥/ ١٣٦ (مجلد ٩)، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٧٢، وتفسير القرآن الجليل للنسفي ٣/ ٩٨.

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٣.

وفي ظل هذا المقام الرفيع ينال العبد وعد الله -عز وجل- له بالاستجابه، وذلك: «أن الله سبحانه وتعالى أمر بالدعاء وأن يطلب منه ما في خزائنه، ووعد بالإجابة نعمة منه يتفضل بها على من يشاء من عباده»[(١)].

وقد ذكر الله في كتابه استجابته للأنبياء والمرسلين الذين سألوه وهم في أعلى مقامات العبودية لله -عز وجل- كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

٢- قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝٧٧ ﴾[(٢)].

قيل: لولا دعاؤكم إياه، وقيل: دعاؤه إياكم إلى عبادته، فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول.

وعلى الأول مضافاً إلى الفاعل، وهو الأرجح من القولين[(٣)].

وعلى هذا؛ فالمراد به نوعا الدعاء، قال ابن القيم: وهو في دعاء العبادة أظهر، أي: ما يعبؤ بكم ربي لولا أنكم تعبدونه، وعبادته تستلزم مسألته، فالنوعان داخلان فيه[(٤)].

٣- قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾[(٥)].

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي: أي: لا ندعو من دون الله رباً، ولا نعبده. فإذا دعوت الله في قضاء حاجة تأمُلُها في دينك أو دنياك كنت سائلاً طالباً، فإذا دعوته أن يغفر ذنبك كنت مستغفراً، والجميع دعاء[(٦)].

(١) الدعاء المأثور وآدابه ٣٤.

(٢) سورة الفرقان ٧٧.

(٣) انظر مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٣٨، بدائع الفوائد ٣/ ٣.

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٣.

(٥) سورة الأنعام: ٧١.

(٦) الدعاء المأثور وآدابه وما يجب على الداعي اتباعه واجتنابه ٣٣.

أمثلة من الآيات الخاصة بدعاء العبادة:

١ - قال تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾[١].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله: وأما قوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ فإنه يقول: واعملوا لربكم مخلصين له الدين والطاعة، لا تخلطوا ذلك بشرك، ولا تجعلوا في شيء مما تعملون له شريكاً.

ثم ساق بسنده عن الربيع قال: أن تخلصوا له الدين والدعوة والعمل، ثم توجهون إلى البيت الحرام[٢].

٢ - قال تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ﴾[٣].

قال ابن جرير رحمه الله: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وللمؤمنين به: فاعبدوا الله أيها المؤمنون له، مخلصين له الطاعة غير مشركين به شيئاً مما دونه ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

يقول: ولو كره عبادتكم إياه مخلصين له الطاعة، الكافرون المشركون في عبادتهم إياه الأوثان والأنداد[٤].

٣ - قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾[٥].. هذا من دعاء العبادة، وإلى هذا أشار المفسرون[٦].

وقد ساق ابن القيم آيات أخرى في هذا الباب منها قوله تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾[٧].

---

(١) سورة الأعراف: ٢٩.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٨/ ١٥٦ (مجلد رقم ٥).

(٣) سورة غافر: ١٤.

(٤) تفسير ابن جرير الطبري ٢٤/ ٤٩ (مجلد ١٢)، وانظر بدائع الفوائد ٣/ ٤.

(٥) سورة الحج: ٧٣.

(٦) انظر تفسير ابن جرير ١٧/ ٢٠٢ (مجلد ١٠)، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٤٥١.

(٧) سورة النساء: ١١٧.

وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾[١].

ثم أورد قاعدة مهمة في هذا الشأن فقال: وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو في دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة:

أحدها: أنهم قالوا: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، فاعترفوا بأن دعاءَهم إياهم هو عبادتهم لهم.

الثاني: أن الله تعالى فسّرَ هذا الدعاء في مواضع أخرى بأنه العبادة كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾[٢].

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[٤].

الثالث: أنهم إنما كانوا يعبدونها ويتقربون إلى الله تعالى، فإذا جاءتهم الحاجات والكربات والشدائد دعوا الله وحده، وتركوها، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة، ودعاء مسألة[٥].

٤- من الأمثلة على دعاء العبادة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾[٦].

قال ابن القيم رحمه الله: هذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى: إنا كنا من قبل نخلص له العبادة، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن الله سبحانه يسأله من في السماوات

---

(١) سورة فصلت: ٤٨.

(٢) سورة الشعراء: ٩٢-٩٣.

(٣) سورة الأنبياء: ٩٨.

(٤) سورة الكافرون: ١-٢.

(٥) بدائع الفوائد ٣/ ٤، والتفسير القيم ٢٤٢، ٢٤٣.

(٦) سورة الطور: ٢٨.

ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب[(١)].

ومثله قول الفتية أصحاب الكهف: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ ﴾[(٢)]، أي: لن نعبد غيره[(٣)].

أمثلة من الآيات الخاصة بدعاء المسألة:

١- قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾[(٤)].

المراد بالدعاء هنا دعاء المسألة، وقد ذكر المفسّرون أنه سبب النزول، يقول ابن جرير: يقول تعالى ذكره لنبيِّه: قل يا محمد لمشركي قومك المنكرين دعاء الرحمن: ﴿ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ ﴾ أيها القوم ﴿ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾.

بأي أسمائه -جل جلاله- تدعون ربكم، فإنما تدعون واحداً، وله الأسماء الحسنى، وإنما قيل ذلك له ﷺ لأن المشركين فيما ذكر سمعوا النبي ﷺ يدعو ربه: يا ربنا الله، ويا ربنا الرحمن، فظنوا أنه يدعو إلهين، فأنزل الله على نبيه عليه الصلاة والسلام هذه الآية احتجاجاً لنبيه عليهم[(٥)].

ثم ساق ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ ساجداً يدعو: يا رحمن يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾[(٦)].

٢- قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[(٧)].

هذه الآية في دعاء المسألة، والآية تتضمن توجيهات عظيمة، فهي تحت

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٥.

(٢) سورة الكهف: ١٤.

(٣) بدائع الفوائد ٣/ ٥.

(٤) سورة الإسراء: ١١٠.

(٥) تفسير ابن جرير الطبري ١٥/ ١٨٢ (مجلد ٩)، وأسباب النزول للواحدي ٢٢٣، وبدائع الفوائد ٣/ ٥.

(٦) تفسير ابن جرير ١٥/ ١٨٢ (مجلد ٩).

(٧) سورة الأعراف: ٥٥.

العباد على الدعاء وسؤال الله عز وجل، وتأمرهم بإخلاص الدعاء له في تضرع، أي: في تذلل وخضوع واستكانة وخفية.

قال ابن جرير: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين منكم بوحدانيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً مراءاة، وقلوبكم غير موقنة بوحدانيته وربوبيته، فعل أهل النفاق والخداع لله ولرسوله[١].

وساق بسنده عن الحسن البصري[٢] رحمه الله. قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر جاره.. إلى قوله: ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ ﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً، فرضي فعله فقال: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾[٣].

ذكر الطرطوشي رحمه الله؛ أن من المفسرين من قال: إن من الاعتداء في الدعاء ترك الدعاء، قال: وهذا نهاية في الكرم، وغاية في الإفضال أنه جعل إمساكك عن دعائه ومسألته التي فيها خلاصك، وصلاح دينك ودنياك اعتداءً منك.

وأنشدني بعضهم:

الله يَغضبُ إنْ تركتَ سؤالَه وبُنيُّ آدمَ حين يُسأل يغضبُ[٤]

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ٢٠٩ (مجلد ٥).

(٢) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد: تابعي جليل القدر، قال الذهبي: «كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً» ولد بالمدينة سنة ٢١ هـ، كان قوياً في الحق لا يخاف لومة لائم، له مع الحجاج مواقف، وقد سلم من أذاه، له حكم ومواعظ عظيمة، توفي رحمه الله سنة (١١٠) هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٦٣-٥٨٨، ونزهة الفضلاء (مختصر السير) ١/ ٤٤٧، وتهذيب التهذيب ٢/ ٢٦٣-٢٧٠، والأعلام ٢/ ٢٢٦.

(٣) سورة مريم: ٣، وانظر تفسير الطبري ٨/ ٢٠٩ (مجلد ٥).

(٤) الدعاء المأثور وآدابه وما يجب على الداعي اتباعه واجتنابه ٣٨، وانظر تفسير القرطبي ٧/ ٢٢٦، والتفسير القيم لابن القيم ٢٥٣، ٢٥٤.

٣- قال تعالى: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[١].

ذكر المفسِّرون أن المعنى أنه لم يُخيِّب دعاءَه قبل، فكان يسأله حاجته فيجيبه ويقضي له ما سأل، وساق ابن جرير بسنده عن ابن جريج[٢] أنه قال: (يقول: قد كنت تعرفني الإجابة فيما مضى)[٣].

ويوضح ابن القيم هذا الحال بأنه: توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه، كما حكي أن رجلاً سأل رجلاً وقال: أنا الذي أحسنت إليَّ وقت كذا وكذا فقال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا وقضى حاجته.

قال: وهذا ظاهر هاهنا، ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله[٤].

وفي ختام هذا الفصل نؤكد على التلازم بين نوعي الدعاء وما أوردناه من الأمثلة من الآيات القرآنية على كل نوع لا يعني عدم التلازم، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسالة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

وإلى هذا يشير الإمام ابن تيمية بقوله: وكل سائل راغب راهب فهو عابد للمسؤول، وكل عابدٍ له فهو أيضاً راغب راهب، يرجو رحمته ويخاف عذابه.

فكل عابد سائل، وكل سائل عابد[٥]، فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه، ولكن إذا جمع بينهما فإنه يراد بالسائل الذي يطلب جلب المنفعة ودفع المضرة،

---

(١) سورة مريم: ٤.

(٢) عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الإمام العلامة، الحافظ، الأموي، شيخ الحرم، صاحب التصانيف، أول من دون العلم بمكة، عاش سبعين سنة، ولد سنة (٨٠) هـ وتوفي سنة (١٥٠) هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٢٥-٣٣٦، والأعلام ٤/ ١٦٠.

(٣) تفسير ابن جرير ١٦/ ٤٦ (مجلد ٩) وانظر زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٢٠٧.

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٤.

(٥) وهذا خلاف ما ذكره الطرطوشي رحمه الله في كتابه الدعاء المأثور ص٣٩ حين قال: كل داع عابد، وليس كل عابد داعياً، وما أورده الإمام ابن تيمية رحمه الله هو الصحيح وهو في غاية الوضوح.

بصيغ السؤال والطلب، ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر وإن لم يكن في ذلك صيغ السؤال[١].

وهذه قاعدة مهمة أشار إليها رحمه الله في كثير من الأسماء الشرعية كالإيمان والإسلام، والبر والتقوى، وغير ذلك.

وبهذه القاعدة نستطيع فهم مدلول اللفظ، والفرق بين إطلاقه مجرداً وذكره مقترناً بآخر، والله أعلم.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٣٧.

حقيقة الدعاء ومنزلته

ذكر الإمام الخطابي رحمه الله حقيقة الدعاء بقوله: «إظهار الافتقار إلى الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود والكرم إليه»(١).

قلت: إذا تأملنا القرآن الكريم وجدنا عدداً كبيراً من الآيات الكريمات الواردة في الدعاء وهي على أربعة أقسام:

قسم منها: يأمر بالدعاء وبإخلاصه لله الواحد الأحد، ويجعل الدعاء سمة العبودية، وعنوان الذلة لله جل وعلا، ويرغِّب فيه.

وقسم آخر: يصف عباد الله الذين هداهم الله صراطه المستقيم بصدق اللجأ، وإظهار الافتقار إلى الله، والتبرؤ من الحول والقوة إلا بالله جل وعلا، فتقرر الآيات مدحهم بهذا المقام الرفيع وتوضح حالهم، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، ويسارعون في الخيرات رغباً ورهباً.

وقسم ثالث: نجد فيه عدداً من الآيات تسلك مسلك التقريع والتوبيخ لأولئك الذي صرفوا هذه العبادة العظيمة لغير الله -عز وجل- من المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع الدعاء والنداء فتستجيب لهم، وتصفهم بأعظم الضلالة، وأبلغ الغي والجهالة.

وقسم رابع: آياتٌ تصف حالة أولئك المخدوعين من المشركين الذين إذا نزلت بهم اللأواء، وحلت بهم البأساء، فزعوا إلى الله يدعونه، ويتضرعون ويتذللون في إخلاص لم يكونوا عليه في الرخاء، ويتركون آلهتهم لعلمهم أنها لا تسمع الدعاء، فكيف ترفع عنهم الضراء، وتجيب لهم الدعاء؟!

- فأما القسم الأول من الآيات التي فيها الأمر بالدعاء والترغيب فيه فمثل:

---

(١) انظر شأن الدعاء للإمام الخطابي ص٤.

قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٤]

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[٥].

- وأما القسم الثاني الذي يصف عباد الله المؤمنين بالدعاء، فمثل قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[٦].

جاء في تفسيرها: «إن الله وصف هؤلاء القوم بأن جنوبهم تنبو عن مضاجعهم شغلاً منهم بدعاء ربهم وعبادته خوفاً وطمعاً، وذلك نبو جنوبهم عن المضاجع ليلاً»[٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[٨].

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[١٠].

ورد في تفسير هذه الآية: ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي: نتضرع إليه، فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا[١١].

---

(١) سورة غافر: ١٤.
(٢) سورة الأعراف: ٢٩.
(٣) سورة الأعراف: ٥٥.
(٤) سورة الأعراف: ٥٦.
(٥) سورة الأعراف: ١٨٠.
(٦) سورة السجدة: ١٦.
(٧) تفسير ابن جرير الطبري ٢١/ ١٠٢ (مجلد ١١).
(٨) سورة الأنبياء: ٩٠.
(٩) سورة الإسراء: ٥٧.
(١٠) سورة الطور: ٢٨.
(١١) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٢٤٣.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾(١).

جاء في تفسيرها: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأنداد، والآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: أندعو من دون الله حجراً أو خشباً لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت(٢).

ففي هذه الآيات وغيرها وصف لعباده المؤمنين، المتبعين للرسل والأنبياء بصدق اللجأ إلى الله، وهو منهج واضح، ووصف مميز لهم عن غيرهم الذين يلجأون إلى من لا يضر ولا ينفع، وشتان بين الفريقين، ولا مقارنة بين المنهجين: منهج الاستقامة والسير على الصراط المستقيم، ومنهج من يمشي مكباً على وجهه، ويُردُّ على عقبه.

- أما القسم الثالث من الآيات: فهي التي جاءت لتوبخ وتبكت المشركين الذين صرفوا هذه العبادة العظيمة لغير الله، وهذا القسم كثير جداً نعرض لبعضه:

فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(٣).

حاصل كلام المفسرين: أنه تعالى يخبر عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها، بما يدل على عجزهم وضعفهم.

وأنهم قد انتفت عنهم الشروط التي لا بد أن تكون في المدعو، وهي: الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى عدم شرطٌ، بَطَل أن يكون مدعواً، فكيف إذا عدمت كلها!

---

(١) سورة الأنعام: ٧١.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٧/ ٢٣٥ (مجلد ٥).

(٣) سورة فاطر: ١٣-١٤.

فنفى عنهم الملك بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، القطمير[١]: اللفافة التي تكون على نواة التمور، قاله ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم.

أي: لا يملكون من السماوات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٣].

فمن كان هذا حاله، فكيف يُدعى مِن دون الله؟!

ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ يعني: أن الآلهة التي تدعونها لا يسمعون دعاءكم، لأنهم أموات، أو ملائكة مشغولون بأحوالهم، مسخرون لما خلقوا له، أو جماد، فلعل المشرك يقول هذا في الأصنام.

أما الملائكة، والأنبياء، والصالحون، فيسمعون ويستجيبون، فنفى سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾.

أي: لا يقدرون على ما تطلبون منهم، وما خص تعالى الأصنام، بل عم جميع من يدعى من دونه[٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[٥].

جاء في تفسيرها: قال إبراهيم لهم: هل تسمع دعاءكم هؤلاء الآلهة إذ تدعونهم..

وقوله: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾، يقول: أو تنفعكم هذه الأصنام فيرزقونكم شيئاً

---

(١) قال في مختار الصحاح: القطمير: الفوفة التي في النواة وهي القشرة الرقيقة، وقيل: هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة، انظر مادة (قطمر) ص٢٢٧.

(٢) سورة النحل: ٧٣.

(٣) سورة سبأ: ٢٢.

(٤) انظر تيسير العزيز الحميد ٢٥١، وانظر من كتب التفسير: زاد المسير ٦/ ٤٨١، وتفسير ابن كثير ٣/ ٥٥١، وتيسير الكريم الرحمن (تفسير ابن سعدي) ٦/ ٣٠٨.

(٥) سورة الشعراء: ٧٢-٧٣.

على عبادتكموها؟! أو يضرونكم فيعاقبونكم على ترككم عبادتها، بأن يسلبوكم أموالكم، أو يهلكوكم إذا هلكتم وأولادكم[١]؟!

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٢].

حاصل كلام المفسرين أن الله تعالى حكم بأنه لا أضل ممن يدعو من دون الله، لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، واستغاثة مَنْ هذا حاله.

ومعنى الاستفهام: فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالاً ممن عبد غير الله ودعاه، حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام، ويدعون من دونه من لا يستجيب لهم، ولا قدرة به على استجابة أحدٍ منهم ما دام في الدنيا، وإلى أن تقوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾[٣].

- أما القسم الرابع من الآيات:

فهي الآيات التي وصفت المشركين عند نزول الكرب، وحلول البلاء بهم، فلا يجدون من يدعونه من أصنامهم، ولا يستجيب لهم شيء من معبوداتهم، فيلجأون إلى الله جل وعلا مخلصين له الدعاء ليكشف عنهم الضر، ويدفع عنهم البلاء.

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٥].

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ١٩/ ٨٣، ٨٤ (مجلد ١١).
(٢) سورة الأحقاف: ٥.
(٣) سورة الرعد: ١٤، تيسير العزيز الحميد ٢٣٩.
(٤) سورة الإسراء: ٦٧.
(٥) سورة العنكبوت: ٦٥.

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(١).

يقول سيد قطب رحمه الله في ظلال هذه الآيات: إنها تجربة يعرفها كل من وقع في ضيقة، أو رأى المكروبين في لحظة الضيق، وظلمات البر والبحر كثيرة، وليس من الضروري أن يكون الليل لتحقيق الظلمات، فالمتاهة ظلام والخطر ظلام، والغيب الذي ينتظر الخلق في البر والبحر حجاب.

وحيثما وقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر، لم يجدوا في أنفسهم إلا الله يدعونه متضرعين، أو يناجونه صامتين، إن الفطرة تتعرى حينئذ من الركام، فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها، حقيقة الألوهية الواحدة، وتتجه إلى الله الحق بلا شريك؛ لأنها تدرك حينئذ سخافة فكرة الشرك، وتدرك انعدام الشريك! ويبذل المكروبون الوعود: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، والله سبحانه - يقول لرسوله - ﷺ - ليذكرهم بحقيقة الأمر: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ فليس هنالك غيره يستجيب، ويقدر على دفع الكروب، ثم يذكرهم بتصرفهم المنكر العجيب: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾(٣).

وهذا في الحقيقة من أقوى الأدلة على وحدانية الله، وتفرده وعظمته سبحانه، وأنه هو المستحق وحده للعبادة، فهو الذي يكشف الضر، ويجيب دعاء المضطرين.

وقد ذكر العلماء أن هذا هو ما يسمى بالدليل النفسي، إضافة إلى الأدلة النقلية، والحسية، والعقلية، وذلك أنه يُنتزع من داخل الإنسان لا من خارجه ومن أعماق شعوره الداخلي، ووجدانه الباطني، لا من مدركات حواسه المعروفة.

---

(١) سورة الأنعام: ٦٣-٦٤.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٤.

(٣) سورة الأنعام: ٤٠-٤١.

وكم من إنسان امتلأ عقله بالمعارف والأرقام، وفنون الإحصاء، وامتلأت حواسه بعجائب هذا الكون، ولكنه يمضي متبلد الإحساس بسبب تعطل وجدانه الداخلي[١].

يقول شيخنا الدكتور زاهر الألمعي حفظه الله - والحديث السابق له-: «يخبرنا الله تعالى عن المشركين الذين يعطلون التوحيد، ويشركون مع الله آلهة أخرى في كل شؤون حياتهم، ويجادلون غاية الجدل دفاعاً وحمية عن أوثانهم، يخبرنا الله تعالى أن هؤلاء يحملون في أعماق نفوسهم دليل الوحدانية، ويمضون صماً وعمياناً عنه في الرخاء، حتى إذا مستهم شدة جائحة انتفض الدليل في صدورهم حياً نابضاً، حين لا تغني الأصنام أو الأوهام عن أصحابها شيئاً هم في أشد الحاجة إليه».

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٢].

ويسألهم القرآن سؤال تقرير عن حقيقة يعلمونها، وإن كابروا فيها ثم يكررها لهم زيادة في التقرير والتأكيد فيقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[٣].

هذا فيض من غيض، وقليل من كثير من الآيات التي عرضت لهذا المقام الرفيع من مقامات العبودية لله، بل هو من أعظمها، وذلك لأنه تعبير صادق عن إحساس الإنسان العاجز بحاجته إلى الرب القادر، ليس فقط في الضراء، وإنما على كل حال من الأحوال، ولهذا عظمت منزلة الدعاء، وتجلّت حقيقته من خلال نصوص القرآن الكريم التي عرضنا طرفاً منها.

أما نصوص السنة فكثيرة كذلك، ومن أهم ما ورد في بيان حقيقة الدعاء ومنزلته ما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الدعاءُ هو العبادة»[٤]، وقرأ:

---

(١) انظر دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ١٩٤.

(٢) سورة الإسراء: ٦٧.

(٣) سورة الأنعام: ٤٠-٤١، انظر دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ١٩٤-١٩٦.

(٤) رواه أبو داود في الصلاة باب الدعاء (١٤٧٩) جـ٢ ص١٦١. والترمذي في الدعاء، باب ما جاء في فضل الدعاء ٥/ ٤٥٦ (٣٣٧٢) وقال: حسن صحيح.

وأحمد في المسند ٤/ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦، وابن ماجه في الدعاء، باب فضل الدعاء رقم (٣٨٢٨)=

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١].

قال الخطابي رحمه الله: معناه أنه معظم العبادة، أو أفضل العبادة كقولهم: الناس بنو تميم، والمال الإبل، يريدون: أنهم أفضل الناس، أو أكثرهم عدداً أو ما أشبه ذلك، وأن الإبل أفضل أنواع الأموال، وأنبلها[٢].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «ليس شيءٌ أكرمَ على الله تعالى من الدُّعاء»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسألِ اللهَ يغضبْ عليهِ»[٤].

وفي «مسند» أحمد وغيره: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم حَيِيٌّ كريمٌ يستحي من عبدِه إذا رفعَ يديهِ أن يردَّهُما صِفْراً خائبتينِ»[٥].

هذه الأحاديث الشريفة وغيرها تبين لنا حقيقة الدعاء ومنزلته، ولهذا قال الإمام ابن

= ٢/ ١٢٥٨، والحاكم في كتاب الدعاء، وقال: صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

(١) سورة غافر: ٦٠.

(٢) شأن الدعاء ص٥.

(٣) رواه الترمذي في الدعاء، باب ما جاء في فضل الدعاء (٣٣٧٠) جـ٥ ص٤٥٥، وابن ماجه في الدعاء، باب فضل الدعاء (٣٨٢٩) جـ٢ ص ١٢٥٨.
وأحمد في المسند ٢/ ٣٦٢، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٧١٢) وصححه ابن حبان في موارد الظمآن رقم (٢٣٩٧)، والحاكم ١/ ٤٩٠ وصححه وأقره الذهبي.

(٤) رواه الترمذي في كتاب الدعاء، باب ما جاء في فضل الدعاء ٥/ ٤٥٦ (٣٣٧٣)، وابن ماجه في الدعاء، باب فضل الدعاء (٣٨٢٧) ٢/ ١٢٥٨ بلفظ: من لم يدع الله سبحانه غضب عليه، ورواه الحاكم في الدعاء ١/ ٤٩١.

(٥) رواه أحمد في المسند من رواية سلمان الفارسي رضي الله عنه ٥/ ٤٣٨ بلفظ: «إن الله عز وجل ليستحي أن يبسط العبد يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبتين». وأبو داود في الصلاة، باب الدعاء ٢/ ١٦٥ (١٤٨٨). والترمذي في الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ ٥/ ٥٥٦ (٣٥٥٦) وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء ٢/ ١٢٧١ (٣٨٦٥) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه، ورواه الحاكم في المستدرك في الدعاء ١/ ٤٩٧ وقال: إسناد صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

عباس رضي الله عنه: أفضل العبادة الدعاء، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١] [سورة غافر: ٦٠].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لا أحمل هَمَّ الإجابة، ولكن أحمل هَم الدعاء[٢].

وقال مطرِّف بن عبدالله[٣] رحمه الله: تذكرت ما جماع الخير، فإذا الخير كثير: الصلاة، والصيام، وإذا هو في يد الله تعالى، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله إلا أن تسأله فيعطيك[٤].

وقال الإمام أحمد[٥] رحمه الله: «اللهم كما صنتَ وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك»[٦].

وقال الإمام الشافعي[٧] رحمه الله:

---

(١) رواه الحاكم في الدعاء ١/ ٤٩١ وقال الذهبي: صحيح.

(٢) ذكر هذا الأثر الإمام ابن تيمية في المجموع ٨/ ١٧٦. والإمام ابن القيم في الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ١٥، ١٦.

(٣) مطرف بن عبدالله بن الشِّخِّير البصري، الإمام، القدوة، الحجة، كان ثقة له فضل وورع، وعقل، وأدب، زاهد من كبار التابعين، له كلمات في الحكمة مأثورة، توفي رحمه الله سنة (٨٧) هـ، انظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ١٨٧، ونزهة الفضلاء ١/ ٣٦٢ وحلية الأولياء ٢/ ١٩٨، والأعلام ٧/ ٢٥٠.

(٤) انظر الدعاء المأثور لأبي بكر الطرطوشي ٤١، وانظر حلية الأولياء ٢/ ٢٠١.

(٥) أحمد بن حنبل، أبو عبدالله الذهلي الشيباني المروزي ثم البغدادي، قال الذهبي: «هو الإمام حقاً، وشيخ الإسلام صدقاً». أحد الأئمة الأعلام الأربعة، ولد سنة (١٦٤)هـ ببغداد وأصله من مرو، صنف المسند ستة مجلدات، فيه ثلاثون ألف حديث، وله مؤلفات أخرى كثيرة، توفي سنة (٢٤١) هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٧-٣٥٨، وحلية الأولياء ٩ / ١٦١، والبداية والنهاية ١٠/ ٣٢٥، والأعلام ١/ ٢٠٣.

(٦) انظر مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ٣٦٥، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ١٦٨.

(٧) محمد بن إدريس بن العباس أبو عبدالله الشافعي القرشي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قال الذهبي: «الإمام عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، حبب إليه الفقه فساد أهل زمانه»، ولد سنة (١٥٠)هـ وتوفي سنة (٢٠٤)هـ، له تصانيف كثيرة منها «الأم» في الفقه، والمسند، والرسالة، =

أتهـزأُ بـالـدعـاءِ وتـزدَريـه ... ومـا تـدري بمـا صنـع الـدعـاءُ
سهـامُ الليـل لا تُخطـي ولكـن ... لهـا أَمَـدٌ ولـلأمـد انقضـاءُ[١]

فبالدعاء، وصدق اللجأ ينال العبد عزة ورفعة؛ لأنه يسلم من الذلة لغير الله، كما سلم من السجود لغيره، وفي هذا دليل على منزلة الدعاء، إذ به ينال المطالب، ويبلغ أعظم المراتب.

وقال وهب بن منبِّه[٢] لرجل كان يأتي الملوك: ويحك تأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه نصف الليل ونصف النهار، ويظهر لك غناه، ويقول: ادعني أستجب لك[٣].

وقال طاووس[٤] ـ رحمه الله ـ لعطاء[٥] ـ رحمه الله ـ: إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، ويجعل دونها حجَّابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله، ووعدك أن يجيبك[٦].

= وغيرها كثير. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥-٩٩ والبداية والنهاية ١٠/ ٢٥١، والانتقاء ٦٦، والأعلام ٦/ ٢٦.

(١) انظر ديوانه ص١٧ جمع محمد عفيف الزعبي.

(٢) وهب بن منبه بن كامل الصنعاني، ولد سنة (٣٤) مؤرخ كثير الأخبار عن الكتب القديمة، يعد في التابعين، توفي سنة (١١٤) هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٤، والأعلام ٨/ ١٢٥.

(٣) انظر جامع العلوم والحكم ١٦٨.

(٤) طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني بالولاء، أبو عبدالرحمن من كبار التابعين. ولد سنة (٣٣) هـ. قال الذهبي: «الفقيه القدوة عالم اليمن» وقد اشتهر رحمه الله بالوعظ، والزهد والجرأة في الحق، توفي سنة (١٠٦)هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٨، وحلية الأولياء ٤/ ٣، وتهذيب التهذيب ٥/ ٨، والأعلام ٣/ ٢٢٤.

(٥) عطاء بن أبي رباح (أسلم) بن صفوان، تابعي جليل، ولد سنة (٢٧)هـ، قال الذهبي: الإمام شيخ الإسلام، مفتي الحرم، القرشي، مولاهم المكي، نشأ بمكة، وكان مفتي أهلها ومحدثهم، توفي سنة (١١٤) هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٧٨ ومختصره (نزهة الفضلاء) ١/ ٤٧٠، وتهذيب التهذيب ٧/ ١٩٩، والأعلام ٤/ ٢٣٥.

(٦) انظر جامع العلوم والحكم ١٦٨.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله(١): والله لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً لأعطاك مولاك كل ما تريد(٢).

هذه الأقوال من أئمة السلف رحمهم الله تدل على عنايتهم واهتمامهم بالدعاء، ومعرفتهم بمنزلته وحقيقته، إذ عليه مدار السعادة وبه يشرف العبد ويعلو مقامه.

ولهذا ذكروا أن لأبي الدرداء(٣) ستين وثلاثمائة خليل في الله، يدعو لهم في صلاته، ولما سألته أم الدرداء عن ذلك قال لها: إنه ليس رجل يدعو لأخيه في الغيب إلا وكّل الله به ملكين يقولان: ولك بمثل، أفلا أرغب أن تدعو لي الملائكة(٤).

ولذلك يؤثر عن أئمة السلف أنهم كانوا يلحّون في الدعاء، فهذا الإمام مورّق العجلي(٥) رحمه الله يقول: «سألت ربي حاجة عشرين سنة فما انقضت لي ولا يئست من الدعاء»(٦).

وهذا الإمام ابن تيمية(٧) رحمه الله يشير إشارة لطيفة، وإلماحة جميلة إلى أهمية

---

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، أبو علي، ولد سنة (١٠٥) هـ، إمام قدوة، من أكابر العباد الصلحاء، كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق كثير منهم الإمام الشافعي، توفي رحمه الله سنة (١٨٧)هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٢١، وتهذيب التهذيب ٨/ ٢٩٤، والأعلام ٥/ ١٥٣.

(٢) انظر جامع العلوم والحكم ١٧٣.

(٣) هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي، حكيم هذه الأمة وسيد القراء بدمشق، صحابي جليل، إمام قدوة، كان قبل البعثة تاجراً، ثم انقطع للعبادة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك، مات بالشام رضي الله عنه سنة (٣٢) هـ، وروى عن أهل الحديث (١٧٩) حديثاً، انظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٣٥، ومختصره نزهة الفضلاء ١/ ١٥٧، والأعلام ٥/ ٩٨.

(٤) ذكره الإمام الذهبي في ترجمة أبي الدرداء، انظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٣٥.

(٥) مورق العجلي أبو المعتمر البصري، ثقة، عابد، من كبار الثالثة، مات بعد المائة في ولاية عمر بن هبيرة. انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥٣، ومختصره نزهة الفضلاء ١/ ٣٩٧، وتقريب التهذيب ٢/ ٢٨٠ (١٤٢٨).

(٦) انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥٥.

(٧) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام النميري، الحراني، الدمشقي، أبو العباس تقي الدين بن تيمية، الإمام، شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، كثير البحث في فنون الحكمة، متبحر في علوم كثيرة، درّس وأفتى، وناظر، وهو دون العشرين، امتحن وسجن، رحمه الله، ومات في السجن. تصانيفه كثيرة جداً في مختلف العلوم، وكانت ولادته سنة (٦٦١)هـ، وتوفي سنة (٧٢٨)هـ. انظر ترجمته في فوات الوفيات ١/ ٧٤-٨٠، والبداية والنهاية ١٤/ ١٣٥، والأعلام ١/ ١٤٤.

التوجه إلى الله عز وجل، وعدم الفائدة من الاعتماد على غيره بقوله:

تمـوتُ النفـوسُ بـأوصـابهـا ... ولـم يَـدْرِ عُـوّادُهـا مـا بهـا
ومـا أنصفـتْ مهجـةٌ تشتكـي ... أذاهـا إلـى غيـرِ أحبـابِهـا[(١)]

وصدق القائل:

لا تسـألـن بُنـيَّ آدم حـاجـة ... وسـل الـذي أبـوابُـه لا تحجـبُ
الـرب يغضـب إن تـركـت سؤالَـه ... وبُنـيَّ آدم حيـن يُسـأل يغضـبُ

قال الإمام الطرطوشي رحمه الله معقباً على هذا: «فشتان بين من يغضب إن سألته، وبين من يغضب إن لم تسأله»[(٢)].

وقال آخر:

لو لم تُرِد نيل ما أرجوه وأطلبُه ... من جود كفّيك ما عودتني الطلبا

وقال آخر:

وأخفيتُ حاجاتي من الناس كلِّهم ... ولكنهـا لله تُبـدى وتظهـرُ
لمـن لا يـردّ السـائليـن بخيبـةٍ ... ويدنو من الداعي ويُعطي ويُكثرُ

وعن هذا قال سلفنا رضوان الله عليهم: ما من أحد إلا ويريدك لنفسه، فصديقك يريدك للاستمتاع بحديثك والانتفاع بك، والأب يريدك لراحةٍ يجدها بقربك، وكشف غمةٍ تلحقه عندك، وأستاذك ومعلمك يريدك لينتفع بك في الآخرة لثواب ما علّمك، ولذةٍ يجدها في الدنيا بتخريجك من ظلمات الجهل إلى أنوار المعرفة.

وعلى هذا النمط يجري مراد الخلائق بينهم إلا الله سبحانه، فإنه يريدك ليغفر لك، قال سبحانه: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾[(٣)].

---

(١) انظر ديوان شيخ الإسلام ابن تيمية ص٧٣. جمع محمد عبدالرحيم.

(٢) الدعاء المأثور وآدابه ٣٨. والطرطوشي: هو محمد بن الوليد بن خلف القرشي الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي نسبة إلى طرطوشة بالأندلس، بضم الطاء الأولى والثانية المهملتين، ولد سنة (٤٥١) هـ، من فقهاء المالكية الحفاظ، توفي بالإسكندرية سنة (٥٢٠) هـ، كان زاهداً، له تصانيف كثيرة من أشهرها الحوادث والبدع. انظر سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٩٠، والأعلام ٧/ ١٣٣.

(٣) سورة إبراهيم: ١٠.

وقال سبحانه: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[١]، وهذا استعطاف للخلق في الدعاء[٢].

وبعد فما ذكرته من الآيات والأحاديث وأقوال الأئمة قليل من كثير في بيان حقيقة الدعاء ومنزلته، ولو استعرضنا جميع ما ورد في ذلك لاحتاج منا إلى كتاب مستقل، وما ذكرته لعله يكفي في إلقاء الضوء على هذه المسألة.. والله أعلم.

---

(١) سورة الأنعام: ٤٣.

(٢) انظر الدعاء المأثور وآدابه ٣٨، ٣٩.

فوائد الدعاء

بعد تقرير حقيقة الدعاء وبيان منزلته تتضح ثمرة هذه العبادة الجليلة، وفوائده العظيمة من الوجوه الآتية:

أولاً: الدعاء عنوان الذل والخضوع، وحسن الصلة بالله، جل وعلا، في جميع الأوقات والأحوال، وإظهار الفقر والانكسار للواحد القهار، والعبد كلما كان أذل لله، وأعظم افتقاراً إليه، وخضوعاً له كان أقرب إليه، وأعز له، وأعظم لقدره.

فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله، وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره[١].

فالتوجه إلى الله تعالى يثمر إيماناً صادقاً، ويقيناً جازماً بأن الله وحده هو المعطي، فلا حاجة إلى غيره، وما دام الأمر كذلك فهو المسؤول وحده؛ لأن من عداه محتاج وعاجز، ولهذا يقول ابن رجب رحمه الله: «واعلم أن سؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعيّن؛ لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة، والحاجة، والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على رفع هذا الضر، ونيل المطلوب، وجلب المنافع، ودفع المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده لأنه حقيقة العبادة»[٢].

فالدعاء يُظهر فقر العبد وحاجته لله الغني الصمد، الذي يقصد لقضاء الحاجات، وكشف الكربات.

يقول ابن عقيل[٣] رحمه الله: قد ندب الله إلى الدعاء، وفيه معاني الجود، والغنى، والسمع، والكرم، والرحمة، والقدرة، فإن من ليس كذلك لا يدعى[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٣٩.

(٢) جامع العلوم والحكم ١٦٨.

(٣) أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغدادي، الإمام العلامة، البحر، شيخ الحنابلة في وقته، كان قوي الحجة، وله تصانيف كثيرة، ولد سنة (٤٣١)هـ، وتوفي سنة (٥١٣)هـ. ذكر المترجمون له أنه اشتغل في حداثته بمذهب المعتزلة، ثم رجع عن ذلك، ومن أشهر تصانيفه الفنون. قال عنه الذهبي: لم يصنف في الدنيا مثله، بقي منه أجزاء. وله تصانيف أخرى كثيرة.

انظر سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٤٣-٤٥١. والأعلام ٤/ ٣١٣.

(٤) انظر الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/ ٢٩٢.

ثانياً: الدعاء محرِّك للقلوب الغافلة، وقد علم أنه إذا اعتاد الإنسان هذه العبادة أثمرت له الخوف والرجاء والحب، فالخوف سوط يسوق صاحبه، والرجاء قائد يقوده، والحب حادٍ يحدوه.

وحينما يفزع العبد إلى ربه ومولاه، ويتضرع إليه بأن يؤمّن روعاته، ويستر عوراته، ويحقق مطلوبه، يستيقظ بذلك قلبه من سبات الغفلة، ولله ما أجمل تلك اليقظة، وما أحسن تلك الحياة بعد السكون والجمود، ويا لها من لحظات هي أحلى ساعات العمر، تتنزل فيها السكينة الإيمانية، ويحل الرضا محل السخط، والثبات والطمأنينة محل القلق والوساوس.

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

يشير الإمام ابن القيم رحمه الله إلى نكتة بديعة في هاتين الآيتين، قلَّ من يتفطن إليها فيقول ما نصه: إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف والطمع، فأمر أولاً بدعائه تضرعاً وخفية، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضاً خوفاً وطمعاً. وفصل بين الجملتين بجملتين:

إحداهما: خبرية متضمنة للنهي وهي قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

والثانية: طلبية وهي قوله: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾.

والجملتان مقررتان مقويتان للجملة الأولى، مؤكدتان لمضمونها، ثم لما تم تقريرها، وبيان ما يضادها ويناقضها أمر بدعائه: خوفاً وطمعاً، ثم قرر ذلك، وأكد مضمونه بجملة خبرية وهي قوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، فتعلق هذه الجملة بقوله: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ كتعلق قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ بقوله: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾.

قال رحمه الله: ولما كان قوله تعالى: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ مشتملاً على جميع مقامات الإيمان والإحسان، وهي الحب والخوف والرجاء، عقبها بقوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي: إنما ينال الرحمة من دعاه خوفاً وطمعاً فهو المحسن، والرحمة قريب منه؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

---

(١) سورة الأعراف: ٥٥-٥٦.

ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقَّب ذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1].

وبهذا يتبين التناسق والتوافق بين هذه المنازل، ويتضح لكل ذي بصيرة أن بعضها يثمر بعضاً، وأساس الجميع هو الدعاء القائم على تضرع وتذلل وإخلاص، ولهذا فإنه يجتمع بسبب الدعاء عبادات كثيرة؛ لأنه قد علم أن مَن يلجأ إلى الله ويستغيث به، ويناجيه، قد أسلم وجهه لله، واعتمد عليه وتوكل عليه، وأناب إليه فراراً من الله إلى الله، كما قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[2]. وقد أحسن من قال: –

أيـا مـن ليـس لـي منـه مُجيـر ... بعفـوكَ مـن عـذابـكَ أستجيـرُ
أنـا العبـد المقـرُّ بكـل ذنـب ... وأنـت السيـدُ المولـى الغفـورُ
فـإنْ عـذّبتنـي فبسـوء فِعْلـي ... وإنْ تـرحـم فـأنـتَ بـه جـديـرُ
أفـرُّ إليـك منـكَ وأيـن ألاّ ... يفـرُّ إليـك منـكَ المستجيـرُ

وأحسن من قال أيضاً:

يـا سـائـلَ اللهِ فـزتَ بـالظفـرْ ... وبـالنـوال الهَنـي لا الكـدَرْ
فـارغـبْ إلـى الله لا إلـى بشـرْ ... منتقـلٌ فـي البِلـى وفـي الغِيـرْ
وارغـبْ إلـى الله لا إلـى جسـد ... منتقـل مـن صِبَـا إلـى كِبَـرْ
مـالـك بـالتُّـرهـات مشتغـلاً ... أفـي يـديـكَ الأمـانُ مـن سَقَـرْ[3]

ثالثاً: يحدث الدعاء شعوراً بالمحاسبة، واعترافاً واقراراً بالذنب، لا سيما إذا دعا ثم لم يستجب له، فإنه يثمر حالاً أعظم عند من ينظر بعين البصيرة في أحواله كلِّها.

---

(١) التفسير القيم ٢٥٦.

(٢) سورة الذاريات: ٥٠.

(٣) هذه الأبيات والتي قبلها للحسن بن هانئ أبي نواس الحكمي بالولاء، شاعر مشهور، ولد في الأهواز سنة (١٤٦) هـ، ونشأ في البصرة ثم استقر في بغداد وتوفي بها سنة (١٩٨) هـ، وقد ذكر المترجمون له أنه تاب بعد حياة مليئة بالمجون، ترجمته طويلة في البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٧-٢٣٥، والعبر في خبر من غبر ١/ ١٣٢، وكتاب الشعر الإسلامي في العصر العباسي الأول/ عبدالله الجعثين ص٧ وص٣٤، وقد اكتفيت بإحالته إلى ديوان أبي نواس حيث ذكر الأبيات الأولى في ص٦١٠ والثانية في ص٦٢٢.

يقول ابن رجب رحمه الله: إن المؤمن إذا استبطأ الفرج، وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه، ولم يظهر عليه أثر الإجابة، فرجع إلى نفسه باللائمة، وقال لها: إنما أُتيت من قِبَلك، ولو كان فيك خير لأُجبت.

وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه، واعترافه له بأنه أهل لما نزل به من البلاء، وأنه ليس أهلاً لإجابة الدعاء، فلذلك تسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء، وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم(١).

قلت: ولهذا كان سيد الاستغفار، الدعاء الذي ثبت عن المصطفى المختار، لما فيه من الاعتراف والإقرار، ونصه: عن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «سيدُ الاستغفار: اللهمَّ أنتَ ربي لا إلهَ إلا أنتَ، خلقتَني وأنا عبدُك وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بكَ من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لكَ بنعمتِك عليّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفرْ لي فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ».. الحديث(٢).

ولذلك؛ فإن السائل الصادق مقر معترفٌ بذنوبه «والإنسان يذنب دائماً فهو فقير مذنب، وربه تعالى يرحمه ويغفر له وهو الغفور الرحيم»(٣).

وقد ساق الإمام ابن تيمية رحمه الله بعد الكلام السابق دعاءً عظيماً للنبي ﷺ عشية عرفة هذا نصه: «اللهم إنك تسمعُ كلامي، وترى مكاني، وتعلم سرّي وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيءٌ من أمري، أنا البائسُ الفقيرُ، المستغيثُ المستجيرُ، الوَجِلُ المُشفِق، المقر بذنبه، أسألُكَ مسألةَ المسكين، وأبتهل إليك ابتهالَ المذنبِ الذليل، وأدعوك دعاءَ الخائفِ الضرير. من خضعتْ لك رقبتُه، وذلَّ لك جسدُه، ورَغِم لك أنفُه، اللهم

(١) جامع العلوم والحكم ١٧٣.

(٢) رواه البخاري في الدعوات، باب أفضل الاستغفار (٦٣٠٦)، انظر الفتح ١١/ ٩٧، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى باب، رقم (١٥) ٥/ ٤٦٧ (٣٣٩٣)، والنسائي في الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر ما صنع ٨/ ٢٧٩. وأحمد ٤/ ١٢٢، ١٢٥، قال ابن حجر: «وقع الحديث بلفظ السيادة، وكأنه أشار إلى أن المراد بالسيادة الأفضلية، ومعناها الأكثر نفعاً لمستعمله» انظر فتح الباري ١١/ ٩٨.

(٣) مجموع الفتاوى ١/ ٤٢.

لا تجعلني بدعائك ربِّ شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خيرَ المسؤولين، ويا خيرَ المعطين»[١].

وما أحوجنا إلى مثل هذا الدعاء العظيم الذي يرقى بنا إلى مقامات العابدين، ومنازل السائلين إلى الله، ويثمر كسرةً، يقول الإمام ابن القيم في شأنها: «فليس شيء أحب إلى الله من هذه الكسرة، والخضوع، والتذلل والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له، فللّه ما أحلى قوله في هذه الحال:

أسألك بعزك وذلي إلاّ رحمتني.

أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك.

هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك.

لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك.

أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلّت لك رقبته»[٢].

إنها كلمات من نور، وقبسات من هدي المصطفى ﷺ، يشير إليها الإمام ابن القيم الخبير بهدي سيد المرسلين في معالجة النفوس من أمراضها، والخروج بها من مسالك الشر والضلالة إلى منازل الخير والهدى والحق، فتكون نفوساً زكية مطمئنة، كما أشار إليها شيخه من قبل.

ولهذا يقول ابن القيم في موضع آخر: «فإذا أراد الله بعبده خيراً، فتح له من أبواب التوبة، والندم، والانكسار، والذل، والافتقار، والاستعانة، وصدق اللجأ إليه، ودوام التضرع والدعاء، والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة سبب رحمته.

(١) انظر مجموع الفتاوى ١/ ٤٣. والحديث أخرجه الطبراني في الصغير كما في الروض الذاتي ٢/ ١٥ح ٦٩٦ عن ابن عباس، وفي الكبير ١١/ ١٤٢ح (١١٤٠٥) وقال الهيثمي في المجمع ٣/ ٢٥٢: وفيه يحيى بن صالح الأيلي قال العقيلي: روى عنه يحيى بن بكير مناكير وبقية رجاله رجال الصحيح. وذكره الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ١٦٣.

(٢) تهذيب مدارج السالكين ١٢٥.

حتى يقول عدو الله- ابليس -: ياليتني تركته ولم أوقعه؛ وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار.

قالوا: كيف؟

قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفاً منه .. فيكون ذلك الذنب سبب سعادة العبد.. ويعمل الحسنة، فلا يزال يَمُنُّ بها على ربه ويتكبر به»[١].

قلت: وقريب من هذا ما قاله مطرف[٢]، رحمه الله، محذراً من الوقوع فيه حيث قال: «لأنْ أَبيتَ نائماً وأصبح نادماً أحب إليَّ من أن أبيت قائماً - يعني مصلياً- وأصبح معجباً»[٣].

رابعاً: بالدعاء يزداد العبد معرفة بربه -جل وعلا- وبأسمائه وصفاته، وهذه تسمى معرفة خاصة، أو هي المعرفة الحقيقية، التي تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية والانقطاع إليه، والأنس به والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والتعظيم والإجلال.

يقول الإمام مالك بن دينار[٤] رحمه الله في هذه المعرفة: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: معرفة الله[٥].

ولهذا؛ فإن من ثمرة هذه المعرفة دعاء الله -جل وعلا- بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وهنا أمر مهم لابد من التنبيه عليه، وهو أن من أسماء الله ما يطلق على الله مفرداً، ومقترناً بغيره وهو غالب الأسماء، كالقدير، والسميع، والبصير، والعزيز، والحكيم، والحليم، والرحيم..

قال ابن القيم: «وهذا يسوغ أن يُدعى به مفرداً، ومقترناً بغيره فتقول: يا عزيز، يا

(١) انظر الوابل الصيب ٢٠، ٢١.

(٢) سبقت ترجمته ص٤٨.

(٣) انظر حلية الأولياء ٢/ ٢٠٠ في ترجمة مطرف برقم (١٧٨).

(٤) مالك بن دينار البصري، أبو يحيى، من ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، كان ورعاً يأكل من كسبه، توفي بالبصرة سنة (١٣١) هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٦٢ وتهذيبه (نزهة الفضلاء) ١/ ٤٩٧، وتهذيب التهذيب ١٠/ ١٤، والأعلام ٥/ ٢٦٠.

(٥) انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٦٣.

حليم، يا غفور، يا رحيم، وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه، والخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع»(١).

ومن أسماء الله ما لا يصح إطلاقه بمفرده، بل لا بد من ذكر مقابله، وذلك كالمانع، والضار، والمنتقم.

قال ابن القيم رحمه الله: «فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي، والنافع، والعفو، فهو المعطي المانع، الضار النافع، المنتقم العفو، المعز المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق، والتصرف فيهم عطاءً ومنعاً، ونفعاً وضراً، وعفواً وانتقاماً، وأما أن يثني عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ»(٢).

وقد أشار العلماء إلى لطيفة مهمة في دعاء الله بأسمائه وصفاته، وهي أن يطلب الداعي بكل اسم ما يليق به، فيقول: يا رحيم ارحمني، ومثله: يا رحمن، يا غفور اغفر لي، يا هادي اهدني، يا عليم علمني، ونحو ذلك(٣).

وقد وجهَنا النبيُّ ﷺ إلى دعاء الله بأسمائه الحسنى، ومنها اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى وهو «الله الحي القيوم»(٤).

وثبت عن النبي ﷺ قوله: «إن لله تسعةً وتسعين اسماً مَنْ أحصاها دخل الجنة» وفي رواية «من حفظها»(٥).

---

(١) انظر بدائع الفوائد ١/ ١٦٧.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٦٧، وانظر شأن الدعاء للخطابي ٩٤.

(٣) انظر الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة للدكتور/ عمر الأشقر، وقد نقل ذلك عن ابن العربي وابن القيم ص٣٣.

(٤) الذي رجحه شيخ الإسلام رحمه الله أن اسم الله الأعظم هو: الحي؛ فالحي مستلزم لجميع الصفات، وهو أصلها؛ ولهذا كان أعظم آية في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وما من حي إلا وهو شاعر مريد، فاستلزم جميع الصفات. انظر مجموع الفتاوى ١٨/ ٣١١ وجامع الأصول ٤/ ١٦٩.

(٥) رواه البخاري من حديث أبي هريرة في الدعوات، باب لله عز وجل مائة اسم غير واحد. انظر الفتح ١١/ ١٨٠، ورواه مسلم في الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها ٤/ ٢٠٦٢ (٢٦٧٧). وانظر جامع الأصول ٤/ ١٧٣ (٢١٤٥).

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أن مراتب الإحصاء[١] ثلاث:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[٢].

ثم قال عن المرتبة الثانية، أي: دعاءه بها:

وهو مرتبتان:

إحداهما: دعاء ثناء وعبادة.

والثانية: دعاء طلب ومسألة، فلا يثني عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسأل إلا بها.. فلا يقال: يا موجود.. أو: يا شيء، أو: يا ذات، اغفر لي وارحمني، بل يسأل كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم.

ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم -ﷺ- وجدها مطابقةً لهذا[٣].

والثناء على الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، مقدّمة مهمة يفتتح بها المسلم دعاءَه كما كان النبي ﷺ يفعل.

---

(١) ذكر الإمام الخطابي في معنى الإحصاء أربعة أوجه:

أحدها ـ وهو أظهرها ـ: الإحصاء الذي هو بمعنى العد، يريد أنه يَعدها ليستوفيها حفظاً، فيدعو ربه بها.. ثم ذكر أدلة ذلك.

الثاني: الإحصاء بمعنى الطاقة كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠] أي: لن تطيقوه.

الثالث: بمعنى العقل والمعرفة، أي: من عرفها وعقل معانيها، وآمن بها دخل الجنة، مأخوذة من الحصاة وهي العقل.

الرابع: أي يقرأ القرآن حتى يختمه فيستوفي هذه الأسماء كلها في أضعاف التلاوة، فكأنه قال: من حفظ القرآن وقرأه استحق دخول الجنة.. ورجح ابن القيم رحمه الله أن المراد بالإحصاء العبادة المطابقة للقرآن وهي الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال. انظر شأن الدعاء للخطابي ٢٦-٣٠، وبدائع الفوائد ١/ ١٦٤، ومعارج القبول ١/ ٨٤ وما بعدها.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٣) انظر بدائع الفوائد ١/ ١٦٤.

ففي الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: «أكثرُ دعائي ودعاءُ الأنبياءِ قبلي بعرفات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»(١).

قال الخطابي رحمه الله: «أكثر دعائي» يريد: أكثر ما أفتتح به دعائي، وذلك أن الداعي يفتتح دعاءه بالثناء على الله، ويقدمه أمام مسألته، فسمي الثناء دعاء: إذا كان مقدمة له، وذريعة إليه على مذهبهم في تسمية الشيء باسم سببه»(٢).

خامساً: الدعاء يجلب محبة الله تعالى لعبده، فهو وسيلة موصلة إلى غاية عظيمة، ولهذا فإن الله تعالى يحب من عبده أن يسأله، ويلحّ في مسألته، ويغضب -جل وعلا- إذا لم يسأله عبده، وقد تقدم ذكر حديث المصطفى ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه» عند الحديث عن منزلة الدعاء، وهذا من فضل الله وجوده على عباده، وسعة رحمته وغناه.

فالله «يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله، لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب ما إلى الجواد أن يُرجى ويؤمّل ويُسأل»(٣).

قال ابن رجب رحمه الله: «والله سبحانه يحب أن يسأل، ويرغب إليه في الحوائج، ويلح في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كلّهم سؤالهم من غير أن ينقص من ملكه شيء. والمخلوق بخلاف ذلك كلّه يكره أن يُسأل، ويحب أن لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته»(٤).

وإن العاقل ليعجب كثيراً عندما يرى من الناس من يتهافت على الخلق في مسألته، ويَدَع ربَّ الناس، فيذل، ويظلم نفسه، وتسقط هيبته وحرمته، وربما لا ينال مطلوبه وهذا هو الغالب.

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، في سنده حماد بن أبي حميد، وليس بالقوي عند أهل الحديث، ورواه مالك في الموطأ، جامع الحج ١/ ٢٩٢ مرسلاً، وقد أورده الإمام الخطابي في شأن الدعاء ٢٠٦.

وانظر جامع الأصول ٤/ ٣٢٤ (٢٣٣٤) وقد حسنه الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط.

(٢) انظر، غريب الحديث للخطابي ١/ ٧٠٩، وشأن الدعاء ٢٠٦.

(٣) تهذيب مدارج السالكين ٣٠٢.

(٤) جامع العلوم والحكم ١٦٨.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم ولو في شربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته؛ ليكون الدين كله لله ولا يشرك به»(١).

ثم نقل قول حاتم الأصم(٢) رحمه الله لما سئل: فيم السلامة من الناس؟

قال: أن يكون شيئك لهم مبذولاً، وتكون من شيئهم آيساً.

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله معادلة مهمة لا يستغني عنها الناس فقال: «لكن إن كنت معوضاً لهم عند ذلك، وكانوا محتاجين، فإن تعادلت الحاجتان تساويتم كالمتبايعين ليس لأحدهما فضل على الآخر، وإن كانوا إليك أحوج خضعوا لك»(٣).

وهذا لا يعني أنه يغفل حاجة الناس بعضهم إلى بغض، فهذا لا محالة منه، ولكنه يريد أن يرقى بالمسلم إلى درجة عالية يكون فيها معتمداً على ربه ومولاه، يسأله حاجته، ويطلبه مراده، في ثقة تامة، ويقين جازم أن الله هو قاضي الحاجات، الذي يعطي ويبسط، ويحب مع ذلك من يسأله، فيكون الدعاء بهذا وسيلة لخيري الدنيا والآخرة.

أما البشر فالاستغناء عنهم أتم وأفضل إلا للضرورة فهذا بحسبه، ولهذا يقول: «وسؤال الخلق في الأصل محرم، لكنه أبيح للضرورة، وتركه توكلاً على الله أفضل»(٤).

وقد ذكر تعليلاً مهماً لهذا فقال: «فإن سؤال الخلق فيه ثلاثة مفاسد: مفسدة الافتقار إلى غير الله، وهي نوع من الشرك، ومفسدة إيذاء المسؤول، وهي نوع من ظلم الخلق. فيه ذلٌّ لغير الله، وهو ظلم للنفس، فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة»(٥).

---

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٣٩.

(٢) حاتم بن عنوان الأصم البلخي، الزاهد، القدوة الرباني، واعظ اشتهر بالورع والتقشف، له كلام في الزهد والحكم، حتى كان يقال له لقمان هذه الأمة، توفي رحمه الله سنة (٢٣٧) هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٨٤، ونزهة الفضلاء ٢/ ٨٤٨، والأعلام ٢/ ١٥٢.

(٣) مجموع الفتاوى ١/ ٣٩.

(٤) مجموع الفتاوى ١/ ١٨١.

(٥) المرجع السابق ١/ ١٩٠.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن يَكفل أن لا يسألَ الناسَ شيئاً، وأنا أكفلُ له الجنةَ» فقال ثوبان رضي الله عنه -راوي الحديث- أنا ، فكان لا يسألُ أحداً شيئاً[(١)] .

سادساً: من ثمرات الدعاء أنه سبب من الأسباب المهمة في جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا نجد هدي المصطفى ﷺ مشتملاً على أدعية كثيرة يتحصن بها المسلم في يومه وليلته، منذ أن يستيقظ من نومه إلى أن يأخذ مضجعه مرة أخرى، وفي جميع أحواله، إذا خرج من منزله، وإذا ولج، وإذا أكل وإذا شبع، وإذا مرض، وإذا عافاه الله من مرضه، وغير ذلك.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : «الذي عليه الجمهور أن المتوكل والداعي يحصل له من جلب المنفعة، ودفع المضرة ما لا يحصل لغيره، والقرآن يدل على ذلك، ثم هو سبب عند الأكثرين، وعلامة وأمارة عند من ينفي الأسباب ويقول: إن الله يفعل عندها لا بها -أي كالأشاعرة- ويقولون ذلك في جميع العبادات»[(٢)] .

والله يخبرنا في القرآن الكريم عن الأنبياء أنهم كانوا يلجأون إلى الله تعالى ليدفع عنهم أذى الكافرين، فهذا نوح عليه السلام يقص الله تعالى خبره مع قومه ولجوءه إلى ربه، قال تعالى: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾[(٣)] .

وكذلك مواقف أخرى للأنبياء مشابهة لهذا.

والأسباب على قسمين:

الأول: أسباب دنيوية، يعلمها الناس من خلال التجارب، مثل ما يحصل في علم الطب والزراعة ونحوهما، وهي أسباب مادية محسوسة.

الثاني: أسباب شرعية، لا تعرف إلا بالنص.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥/ ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ورواه ابن ماجه في الزكاة، باب كراهية المسألة ١/ ٥٨٨ (١٨٣٧) بلفظ مقارب.

(٢) نقله عنه صاحب الآداب الشرعية ٢/ ٢٨٨.

(٣) سورة القمر: ٩-١٢.

والدعاء واحد من الأسباب الشرعية التي عرفناها من الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقد أوصانا به كثيراً في أدعية وتعوذات جامعة شاملة، فهو إذاً سبب مهم في جلب النفع، ودفع الضر.

ففي حديث خولة بنت حكيم(١) رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نزل منزلاً فقال: أعوذُ بكلماتِ اللهِ التاماتِ من شرّ ما خلقَ، لم يضرّه شيءٌ حتى يرحلَ من منزلِه»(٢).

فقد شرع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأمته أن يستعيذوا بكلمات الله التامات التي لا يلحقها نقص ولا عيب، وهي القرآن الكريم كما ذكر أهل العلم، بدلاً من استعاذة أهل الجاهلية الذين كانوا إذا نزلوا وادياً استعاذوا بعظيم ذلك الوادي من الجن كما قال تعالى في شأنهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(٣).

ولهذا، فإن من أنفع الأدعية أن يسأل العبدُ ربَّه العون على طاعته ورضاه، كما ورد في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، حين قال له الرسول ﷺ: «يا معاذُ والله إني لأحبّك، فلا تنس أن تقول دُبُرَ كلِّ صلاة: اللهم أعِنِّي على ذِكْرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عبادتك»(٤).

---

(١) خولة بنت حكيم بن أمية بن حارثة الأوقص السلمية، ويقال لها خويلة، وتكنى أم شريك وهي امرأة عثمان بن مظعون، قال ابن عبدالبر: كانت امرأة صالحة فاضلة، روى عنها سعد ابن أبي وقاص، عن النبي ﷺ في التعوذ بكلمات الله عند النزول في السفر، وروى عنها سعيد ابن المسيب، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعمر بن عبدالعزيز، انظر ترجمتها في الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر، على هامش الإصابة لابن حجر ٤/ ٢٨٢،٢٨٣. والإصابة لابن حجر ٤/ ٢٨٣ رقم (٣٦٢).

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء ٤/ ٢٠٨٠ (٢٧٠٨)، ورواه الترمذي في الدعوات باب ما يقول إذا نزل منزلاً ٥/ ٤٩٦ (٣٤٣٧).
ورواه الإمام مالك في الموطأ، باب ما يؤمر به من الكلام في السفر ٢/ ٢٤٧ وهو في جامع الأصول ٤/ ٢٩٣ برقم (٢٢٩٢).

(٣) سورة الجن: ٦.

(٤) رواه أبو داود في الصلاة، باب الاستغفار ٢/ ١٨٠ (١٥٢٢) والنسائي في السهو، باب نوع أخر من الدعاء ٣/ ٥٣، وأحمد في المسند ٥/ ٢٤٥،٢٤٧، والحاكم في المستدرك ١/ ٢٧٣ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الإمام الذهبي.

يقول الإمام ابن القيم: «فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها».

ثم نقل عن شيخه الإمام ابن تيمية قوله: «تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]».

وأوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر رضي الله عنه وصية جامعة، إذا أصبح أو أمسى أو أخذ مضجعه فقال له: «قل: اللهم فاطرَ السماواتِ والأرضِ، عالمَ الغيبِ والشهادةِ، ربَّ كل شيءٍ ومليكَه، أشهد أن لا إله إلا أنتَ، أعوذ بك من شرّ نفسي، وشر الشيطان وشِرِكِه، وأن أقترفَ على نفسي سُوءاً أو أجرَّه إلى مسلم[2]».

قال ابن القيم- رحمه الله - في شرح هذا الدعاء الجامع: «ولما كان الشر له سبب هو مصدره، وله مورد ومنتهى، وكان السبب إما من: ذات العبد، وإما: من خارج، ومورده ومنتهاه إما من نفسه، وإما من غيره. كان هنا أربعة أمور:

شر: مصدره من نفسه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره أخرى.

وشر: مصدره من غيره، وهو السبب فيه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره أخرى.

جمع النبي ﷺ هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصديق رضي الله عنه أن يقوله إذا أصبح، وإذا أمسى، وإذا أخذ مضجعه، وذكر الدعاء، ثم قال رحمه الله: فذكر مصدرَي الشر، وهما النفس، والشيطان، وذكر مورديه، ونهايتيه، وهما عَوْده على النفس، أو على أخيه المسلم، فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظ، وأخصره وأجمعه، وأبينه»[3] اهـ كلامه رحمه الله.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ٦٥.

(٢) رواه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح ٥/ ٣١٠ (٥٠٦٧) ورواه الترمذي في الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى رقم (١٤) ٥/ ٤٦٧ (٣٣٩٢). ورواه أحمد في المسند ٢/ ٢٩٧، والحاكم في المستدرك ١/ ٥١٣ وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وهو في الدارمي رقم (٢٢٩٢)، وفي الأدب المفرد للبخاري (١٢٠٢)، وفي عمل اليوم والليلة للنسائي رقم (١١).

(٣) كتاب تفسير المعوذتين لابن القيم ص٢٦ بتحقيق سيد إبراهيم.

ومن الأدلة الصحيحة على أثر الدعاء في دفع الضر ما ورد في «السنن» عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة، باسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات، لم يضرّه شيء»[(١)].

والدعاء في هدي النبي ﷺ القولي باب واسع وعظيم، وليس المراد هنا عرض الأدعية في السنة النبوية، ولكن المقصود ضرب الأمثلة التي توضّح فوائد الدعاء وثمراته الطيبة وأثره في دفع المضرة، وجلب المنفعة، وشواهد ذلك من القرآن الكريم كثيرة جداً، والله أعلم.

---

(١) رواه أبو داود في الأدب، باب من يقول إذا أصبح رقم (٥٠٨٨) و(٥٠٨٩) ٥/ ٣٢٤،٣٢٥، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى رقم (٣٣٨٨) ٥/ ٤٦٥، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى رقم (٣٨٦٩) ٢/ ١٢٧٣.
وأحمد في المسند ١/ ٦٢،٦٣، والحاكم في الدعاء ١/ ٥١٤ وصححه وأقره الذهبي، ورواه النسائي في عمل اليوم والليلة رقم (١٥).

مناقشة المنكرين لفائدة الدعاء

في الفصل السابق بيّنّا فوائد الدعاء، وعرضنا لهذه المسألة من خلال النصوص الواضحة الجلية التي تثبت منفعته للعبد في الدنيا والآخرة، وتوضح مكانته وأهميته بين سائر العبادات، وهذا هو الذي عليه أهل الحق من السلف رحمهم الله ومن تبعهم بإحسان.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: والصواب ما عليه الجمهور من أن الدعاء سبب لحصول الخير المطلوب أو غيره، كسائر الأسباب المقدرة والمشروعة، وسواءٌ سمي سبباً، أو جزءاً من السبب، أو شرطاً، فالمقصود هنا واحد، فإذا أراد الله بعبده خيراً ألهمه دعاءَه والاستعانة به.

وجعل استعانته ودعاءه سبباً للخير الذي قضاه كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لا أحمل هَمّ الإجابة، وإنما أحمل همَّ الدعاء، فإذا أُلهمت الدعاء فإن الإجابة معه[(١)].

ويقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين، وسائر أهل الملل وغيرهم أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع، ودفع المضار»[(٢)].

أما الذين أنكروا فائدة الدعاء فهم على أربعة أقوال:

الأول: قول الفلاسفة يقولون: إن الله - تعالى عما يقولون- لا يعلم الجزئيات، ولا يسمع أصوات عباده، ولا يجيب دعاءهم، وهذا فرع عن اعتقادهم بأن المؤثر في حوادث العالم هو قوى النفس، أو الحركات الفلكية، أو القوى الطبيعية.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ٢/ ٧٠٥، ومجموع الفتاوى ٨/ ١٧٦.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ٤٥٥، وانظر تهذيب مدارج السالكين ٦٥، ٣٠٠، والعواصم والقواصم لابن الوزير ٦/ ٣٨٢، والآداب الشرعية لابن مفلح ٢/ ٢٨٦، والجواب الكافي لابن القيم ١٥.

وإذن، فالدعاء لا فائدة منه لأنه بزعمهم طلب من الذي لا يعلم، ولا يسمع، فكيف يجيب الدعاء؟!

الثاني: قول طائفة من الأشاعرة، زعموا أن الدعاء علامة مجردة نصبها الله - سبحانه وتعالى- أمارة على قضاء الحاجة، وليس سبباً من الأسباب في قضاء الحاجة.

وجعلوا ارتباطه بالمطلوب ارتباط الدليل بالمدلول، لا ارتباط السبب بالمسبِّب، وهو بمنزلة الخبر الصادق، والعلم السابق. قالوا: وهو كما إذا رأيت غيماً أسود بارداً في زمن الشتاء، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر، وهؤلاء ينكرون جميع الأسباب، وليس الدعاء فحسب.

الثالث: قول القدرية يقولون: قد فعل الله بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، ولم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعد هذا إعانةٌ مقدورة يسأله إياها.

الرابع: قول طائفة من المتصوفة: زعموا أن الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض، يثيب الله عليه الداعي من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما.

ولا فرق عندهم بين الدعاء، وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب، وربما استدلوا بمقولةٍ نسبوها إلى الخليل إبراهيم عليه السلام، وهي: «عِلْمُه بحالي يغني عن سؤالي».

مناقشة هذه الأقوال:

١- الرد على الفلاسفة:

إن ما ذهب إليه الفلاسفة في هذه المسألة مبني على أصل فاسد، يكفَّر به قائله كفراً يخرج من الملة.

وهذا الأصل هو زعمهم: بأن المؤثِّر في الحوادث قوى النفس أو الحركات الفلكية، أو القوى الطبيعية، وهذا كله كفر بربوبية الله عز وجل، وجحد للخالق جل وعلا.

ثم هم يتكايسون على الناس بقولهم: إن الله لا يعلم الجزئيات ولا يسمع الأصوات، ولا يجيب دعاء عباده، ونحن نقول: ما هذا الرب الذي تؤمنون به، وتوهمون الناس أنكم مقرون به، وهو لا يعلم ولا يسمع ولا يجيب؟!

الحق أن هذا إلحاد وليس إقراراً وإيماناً، والحوار مع هؤلاء ليس في فائدة الدعاء والإقرار بها أو إنكارها، ولكن الحوار معهم في أصل الاعتقاد، والجدال معهم جدال مع ملحد لا يؤمن بالله جل وعلا، وإنما يقول في أصل الدين وأساسه قولاً باطلاً، ويظهر للناس - تدليساً وتلبيساً - أنه مؤمن مصدق.

والعجب أن هؤلاء كما يقول شيخ الإسلام رحمه الله: يزعمون: أن الإنسان إذا أحب رجلاً صالحاً قد مات، لا سيما إن زار قبره، فإنه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت، فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعال عندهم، أو النفس الفلكية، يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير أن يعلم الله بشيء من ذلك.

بل وقد لا تعلم الروح المستشفع بها بذلك، ومثلوا ذلك بالشمس إذا قابلتها مرآة، فإنه يفيض على المرآة من شعاع الشمس، ثم إذا قابل المرآةَ مرآةٌ أخرى فاض عليها من تلك المرآة، وإن قابل تلك المرآةَ حائطٌ أو ماء فاض عليه من شعاع تلك المرآة، فهكذا الشفاعة عندهم، وعلى هذه الوجه ينتفع الزائر عندهم.

قال الإمام ابن تيمية: «وفي هذا القول من أنواع الكفر ما لا يخفى على من تدبره، ولا ريب أن الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بني آدم، وجَعْل القبور أوثاناً هو أول الشرك»(١).

ثم ساق في ذلك قصصاً ومشاهد غريبة، والمقصود هنا بيان بطلان ما ذهب إليه الفلاسفة، وأنّ قولهم في الدعاء مبني على أصل باطل، وما بني على باطل فهو كذلك.

٢- الرد على الأشاعرة:

إن مذهب الأشاعرة في هذا الباب مبني على جعل الأسباب أمارات وليست أسباباً، وقد أحدثوا ما يسمى بالكسب، ثم عجزوا عن تفسيره، حتى ضرب به المثل في الخفاء، فقيل: أخفى من كسب الأشعري، وطفرة النظّام، وأحوال أبي هاشم، وقال الناظم:

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ٢٥، ٢٦.

مما يقال ولا حقيقةَ دونَه معقولة تدنو إلى الأفهامِ
الكسبُ عند الأشعري والحالُ عند البهشميّ وطفرةُ النظامِ

يقول ابن القيم- رحمه الله بعد أن ذكر قولهم بنفي الأسباب-: قالوا: وهذا حكم الطاعات مع الثواب، والكفر والمعاصي مع العقاب، هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب، لا أنها أسباب له.

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار، والحرق مع الإحراق، والإزهاق مع القتل، ليس شيء من ذلك سبب ألبتة، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه إلا مجرد الاقتران العادي، لا التأثير السببي.

وخالفوا بذلك الحِسَّ، والعقل، والشرع، والفطرة، وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء(١).

وقد اضطرب الأشاعرة في القول بالكسب اضطراباً شديداً، وأنكر بعضهم على بعض؛ لأنه لا يمكن للإنسان أن يتصور إثبات قدرة للعبد لا تأثير لها في مقدورها، ولا في صفة من صفاتها.

وقد نُقل عن الأشعري(٢) والجويني(٣) رجوعهما عن هذا القول(٤).

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ١٥.

(٢) علي بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن الأشعري، من نسل الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري، ولد سنة (٢٦٠) هـ، كان إماماً قوي الحجة، وكان على مذهب المتكلمين ثم رجع عن ذلك، وجاهر بخلافهم، وأعلن أنه على مذهب السلف، وله مصنفات كثيرة، منها: مقالات الإسلاميين، والإبانة عن أصول الديانة، وغيرها، توفي سنة (٣٢٤) هـ.
انظر سير أعلام النبلاء ١٥/ ٨٥، ووفيات الأعيان ١/ ٣٢٦، والبداية والنهاية ١/ ١٨٧، والأعلام ٤/ ٢٦٣.

(٣) أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني يلقب بإمام الحرمين، شيخ الشافعية في زمانه، ولد سنة (٤١٩) في جوين، من نواحي نيسابور، ورحل إلى مكة والمدينة، وجاور أربع سنين، وكان إلى سعة علمه واعظاً مؤثراً له تصانيف كثيرة منها: غياث الأمم، والعقيدة النظامية وغيرها، توفي سنة (٤٧٨) هـ.
انظر سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٦٨، ووفيات الأعيان ١/ ٢٨٧، والأعلام ٤/ ١٦٠.

(٤) القضاء والقدر للدكتور/ عبدالرحمن المحمود ٢٤٢.

وحاصل مذهب هؤلاء المنكرين للأسباب أنه لا فائدة من الدعاء، وهذا هو في النهاية مذهب القدرية، ومن تبعهم من المتصوفة، وسيأتي الرد على الجميع بالتفصيل.

٣- الرد على القدرية والمتصوفة:

إن ما ذهب إليه هؤلاء مخالف للنقل الصحيح، والعقل الصريح، وتجارب الناس أيضاً في هذا الباب، «فدعاء الله وحده لا شريك له، دل الوحي المنزل والعقول الصحيحة على فائدته ومنفعته.

ثم التجارب التي لا يحصي عددها إلا الله، فتجد أكثر المؤمنين قد دعوا الله، وسألوه أشياء، أسبابها منتفية في حقهم، فأحدث الله لهم تلك المطالب على الوجه الذي طلبوه، على وجه يوجب العلم تارة، والظن الغالب أخرى أن الدعاء كان هو السبب في هذا.

وتجد هذا ثابتاً عند ذوي العقول والبصائر الذين يعرفون جنس الأدلة وشروطها واطرادها»[١].

أما شبهتهم في إنكار فائدة الدعاء: فقد زعموا أن المدعو به إن كان قُدِّر لم يكن بد من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدع، وإن لم يكن قد قُدّر لم يقع، سواء سأله العبد أو لم يسأله[٢]، والجواب عليهم من وجوه:

الأول: يلزم من قولهم التناقض لأنه إذا عطل سبب من الأسباب، لزم من ذلك تعطيل جميع الأسباب، إذْ لا دليل على التفريق بينها، وإلا كانوا متناقضين وحينئذ فيقال لأحدهم:

«إن كان الشبع والري قد قدّرا لك فلا بد من وقوعهما أكلت أو لم تأكل، وإن لم يُقدّرا لم يقعا أكلت أو لم تأكل، وإن كان الولد قد قدّر لك فلا بد منه وطئت الزوجة أو لم تطأ، وإن لم يقدّر ذلك لم يكن، فلا حاجة إلى التزوج والتسرّي، وهلمّ جرا.

فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟!

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٧١٣.

(٢) الجواب الكافي ١٤، وشرح الطحاوية ٤٥٤.

بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً»[١].

الثاني: يقال لهم: قد بنيتم مذهبكم على مقدمتين:

الأولى: إن كان قُدّر المطلوب لم يكن بدٌّ من وقوعه.

الثانية: وإن لم يكن قدِّر لم يقع، وهذا حصرٌ غير مسلّم.

قال أهل العلم: «والصحيح أن هناك قسماً ثالثاً وهو: هذا المقدور قدّر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدَّر مجرداً عن سببه، ولكن قدّر سببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم تأت بالسبب انتفى المقدور.

وهذا كما قدّر الشبع والرّي بالأكل والشرب، وقدِّر الولد بالوطء، وقدِّر حصول الزرع بالبذر، وقدِّر خروج نفس الحيوان بذبحه، وكذلك قدِّر دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال، وهذا القسم هو الحق»[٢].

الثالث: يلزم من إبطال فائدة الدعاء إنكار صريح القرآن ورده؛ ولهذا يقول الخطابي رحمه الله: «فأما من ذهب إلى إبطال الدعاء فمذهبه فاسد، وذلك أن الله سبحانه أمر بالدعاء، وحض عليه فقال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[٣]

وقال عز وجل: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾[٥].

في آي ذوات عدد في القرآن.

ومن أبطل الدعاء فقد أنكر القرآن ورده، ولا خفاء بفساد قوله وسقوط مذهبه»[٦].

الرابع: لقد كان الصحابة رضي الله عنهم، وهم أفقه الخلق بالدين وأعلمهم بهدي

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: ١٤.
(٢) الجواب الكافي ١٤، وشرح العقيدة الطحاوية ٤٥٤، ٤٥٥.
(٣) سورة غافر: ٦٠.
(٤) سورة الأعراف: ٥٥.
(٥) سورة الفرقان: ٧٧.
(٦) شأن الدعاء ٨، ٩.

سيد المرسلين، يلهجون بالدعاء كثيراً، ويحرصون على تحقيق آدابه وشروطه، ومفارقة موانع الإجابة.

حتى قال عمر رضي الله عنه لأصحابه: «لستم تنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء» وفي هذا تنبيه على ضرورة الدعاء وصدق اللجأ إلى الله، جل وعلا، والاعتماد عليه والثقة به حتى ينصروا.

ولهذا، كان يحمل عمر رضي الله عنه هَمَّ الدعاء، ولا يحمل هم الإجابة كما أثر عنه؛ لأن من ألهم الدعاء فتح له من الخير أبواب كثيرة.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه فقال:

لو لم تُرد نيلَ ما أرجو وأطلبُه ... من جودِ كَفَّيك ما عوَّدتني الطلبا

فمن ألهم الدعاء فقد أُريد به الإجابة»[١].

وكان من الصحابة مجاب الدعوة، بل قد حصل هذا لمن بعدهم[٢]، فكيف يقال: إن الدعاء لا فائدة منه؟!

أما ما أورده الصوفية ونسبوه إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقالوا: إنه لما ألقي في المنجنيق، قال له جبريل: سل، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فقد أجاب عن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: «ليس له إسناد معروف، وهو باطل[٣]، بل الذي ثبت في «الصحيح» عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل»، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال له الناس: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾[٤].

---

(١) الجواب الكافي ١٦.

(٢) انظر كتاب مجابي الدعوة للإمام أبي بكر بن أبي الدنيا، توفي سنة (٢٨١)هـ، حيث ذكر فيه قصصاً في إجابة الدعاء كثيرة، ويقع الكتاب في ثمان وثمانين صفحة بتحقيق الشيخ زياد حمدان.

(٣) انظر مجموع الفتاوى ١/١٨٣، وتنزيه الشريعة المرفوعة لابن عراق ١/٢٥٠، وكشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني ١/٤٢٧، والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة برقم (٢١) المجلد الأول.

(٤) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ الآية ١٧٣ من سورة آل عمران، حديث رقم (٤٥٦٣)، فتح الباري ٨/٢٢٩، والحاكم في التفسير ٢/٢٩٨.

قال الإمام ابن تيمية: وأما سؤال الخليل لربه عز وجل، فهذا مذكور في القرآن في غير موضع، فكيف يقول: حسبي من سؤالي علمه بحالي، والله بكل شيء عليم، وقد أمر بأن يعبدوه، ويتوكلوا عليه ويسألوه، لأنه سبحانه جعل هذه الأمور أسباباً لما يرتبه عليها من إثابة العابدين، وإجابة السائلين[١].

قلت: وفي القرآن الكريم من دعوات إبراهيم الخليل عليه السلام شيء كثير، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣].. وغيرها من الآيات الكثيرة.

فكيف يقال بعد هذه الدعوات الكثيرة أنه كان يقول: حسبي من سؤالي علمه بحالي؟! هذا مخالف للنص، ولما عُهد من الأنبياء من إظهار فقرهم وحاجتهم لله الواحد الأحد، وهذا من أعلى مقامات العبودية والاستسلام لله عز وجل، وهم أحق بذلك من غيرهم، وأولى به.

---

(١) مجموع الفتاوى ١/ ١٨٣.
(٢) سورة إبراهيم: ٣٥، وكذلك الآيات من ٣٦-٤١ من سورة إبراهيم.
(٣) سورة البقرة: ١٢٦، ١٢٧، وكذلك آية ١٢٨، ١٢٩ من نفس السورة.

الدعاء والقدر

لا تعارض بين الدعاء والقدر، فالدعاء من قدر الله، وهو سبب من الأسباب في حصول المطلوب، قد أمر الله به في كتابه في مواضع كثيرة وعلى لسان نبيه ﷺ.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «أُمر الناس بالدعاء، والاستغاثة بالله وغير ذلك من الأسباب، ومن قال: أنا لا أدعو ولا أسأل اتكالاً على القدر كان مخطئاً؛ لأن الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته ورحمته، وهداه، ونصره، ورزقه، وإذا قدر للعبد خيراً يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء، وما قدره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم، فإنما قدره الله بأسباب، يسوق المقادير إلى المواقيت، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات.

لهذا قال بعضهم: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب»[(١)].

ثم ساق أمثلة على ذلك، منها:

أن المطر إذا نزل، وبذر الحب لم يكن ذلك كافياً في حصول النبات، بل لابد من ريح مُرْبية بإذن الله، ولابد من صرف الانتفاء عنه، فلا بد من تمام الشروط، وزوال الموانع، وكل ذلك بقضاء الله وقدره.

وإذا تقرر أن الدعاء سبب من الأسباب الشرعية، فإن الإنسان مأمور به ولا خيار له في ذلك، ولكن هذا لا يعني الاعتماد عليه وحده، كما أنه لا يصح إغفاله، والمنهج الحق أن الأسباب على قسمين:

الأول: أسباب دنيوية تقوم على تجارب الناس، والأصل فيها الإباحة ما لم يرد نص يحرم شيئاً منها، والناس قد تعارفوا على بذلها.

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٦٩-٧٠.

الثاني: أسباب دينية، والأصل فيها ما ورد به الشرع، فلا تثبت إلا بخبر صحيح، والدعاء واحد من هذه الأسباب الشرعية.

والمخالفون للمنهج الحق في الأسباب ثلاث فرق:

١- فرقة طعنت في الأسباب المشروعة وغير المشروعة، وأنكرتها.

٢- وفرقة اعتمدت على الأسباب اعتماداً كلياً، وجعلوا من كل ما يتخيله الإنسان سبباً، سواء كان مشروعاً أو غير مشروع.

٣- وآخرون أنكروا الأسباب المشروعة، وأحالوا الأمر إلى أسباب غير مشروعة، كالذي فعله الفلاسفة حيث قالوا: بالقوى الفلكية، أو النفسانية، أو الطبيعية[١].

والحق أن العبد مأمور بفعل الأسباب دون الاعتماد عليها؛ لكنه ينبغي أن يعرف في الأخذ بالأسباب ثلاثة أمور:

الأول: أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب، بل لا بد معه من أسباب أُخر، ومع هذا فلها موانع، فإن لم يكمل الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود.

الثاني: أنه لا يجوز أن يكون الشيء سبباً إلا بعلم، كمن يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء.

الثالث: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ شيء منها سبباً إلا أن تكون مشروعة، فإن العبادات مبناها على التوقيف[٢].

وهذه قاعدة مهمة في معرفة المنهج الصحيح في الأخذ بالأسباب، مع معرفة أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحوها نقص في العقل، والإعراض عنها قدح في الشرع.

ولهذا انقسم الناس إلى أربعة أقسام:

الأول: أجلُّ الأقسام وأفضلها، وهم أهل العبادة والاستعانة بالله عليها،

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٧١٠ بتصرف.

(٢) انظر الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/ ٢٨٧.

وهؤلاء يعبدون الله على بصيرة من أمرهم، ويسألون الله أن يعينهم عليها، واستعانتهم بالله تقوم على أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه.

يقول ابن القيم رحمه الله بعد ذكر هذا القسم: ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الربُّ تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته، وهو الذي علّمه النبي ﷺ لحبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: «يا معاذ، والله إني لأحبكَ فلا تنسَ أن تقول دُبُرَ كل صلاة: اللهم أعِنِّي على ذكرك وشكرك وحُسْن عبادتك»(١).

فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته.

وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب.

وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه(٢).

القسم الثاني: المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، وقد بين الإمام ابن القيم أن هؤلاء إن سألوا، فإنهم يسألون حاجاتهم لحظوظهم وشهواتهم، ويعطون ما سألوه، ولكن إجابة الله لهم ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله حاجته فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، وقد سأل إبليسُ ربه حاجته فأعطاه إياها ومتَّعه بها.

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة وهم على قسمين: القدرية، والصوفية، وسبق بيان منهجهم في ذلك، وما فيه من الفساد، وهو مخالف للنقل والعقل، والحس والفطرة.

القسم الرابع: من شهد تفرّد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولم يَدُر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكّل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته، وأغراضه، وطلبها منه فقضيت له(٣).

---

(١) سبق تخريجه ص٥٤.

(٢) انظر تهذيب مدارج السالكين ٦٥.

(٣) انظر تهذيب مدارج السالكين ٦٦-٦٨ بتصرف.

وبعد هذه المقدمات الضرورية لفهم منهج أهل الحق في الأخذ بالأسباب، نستطيع أن نفهم المراد من النصوص الواردة في الدعاء والقدر، ومن أهمها:

١- ما رواه الحاكم في المستدرك من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يُغني حَذَرٌ من قَدَر، والدعاءُ ينفع ممّا نزلَ، وما لم ينزل، وإن البلاء لينزلُ فيلقاه الدعاءُ فيعتلجان إلى يومِ القيامة»[١].

٢- حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يردّ القدرَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد في العمرِ إلا البِرُّ، وإن الرجلَ ليُحرَمُ الرزقَ بالذنب يُصيبُه»[٢].

٣- ما رواه ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «الدعاءُ ينفعُ مما نزلَ، وما لم ينزلْ، فعليكم عبادَ الله بالدعاءِ»[٣].

ظاهر هذه النصوص أن الدعاء والقدر يتعارضان، والحق أنه لا تعارض بين الأمرين.

يقول الغزالي رحمه الله: «اعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء، والدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض.

---

(١) رواه الحاكم في كتاب الدعاء ١/ ٤٩٢، من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي بقوله: «زكريا بن منظور» مجمع على ضعفه، (وهو أحد رجال السند)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٤٦: رواه الطبراني في الأوسط والبزار بنحوه، وفيه زكريا بن منظور، وثقه أحمد بن صالح المصري، وضعفه الجمهور، وانظر غريب الحديث للخطابي ٢/ ١٤٥، وقال ابن الأثير في النهاية: اعتلج الرجلان: إذا تصارعا ٢/ ١٤٤.

(٢) رواه الترمذي من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه في كتاب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء ٤/ ٤٤٨ (٢١٣٩)، ورواه ابن ماجه في المقدمة، باب في القدر ١/ ٣٥ (٩٠) من حديث ثوبان، ورواه أحمد في المسند ٥/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٣ في الدعاء وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه الحاكم في كتاب الدعاء ١/ ٤٩٣، وفي سنده عبدالرحمن بن أبي بكر المليكي، قال عنه الذهبي: واه.

فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، وكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله عز وجل أن لا يُحمل السلاح، وقد قال الله عز وجل: ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾[١]، وأن لا تسقى الأرض بعد بَثِّ البذر، فيقال: إنْ سَبَقَ القضاءُ بالنبات نبتَ:

بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول .. وترتيب تفضيل المسببات على تفضيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر.

والذي قدر الخير قدره بسبب، وكذلك الشر قدّر لدفعه سبباً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته»[٢].

إذا عرفنا هذا فلنعلم أن للدعاء مع البلاء كما ذكر ابن القيم ثلاثة مقامات:

الأول: أن يكون الدعاء أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون الدعاء أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه[٣].

وبهذا نفهم النصوص الواردة في هذا الباب، ويزول الإشكال الذي يرد عند البعض، فيتصور أن في الدعاء معارضة لقدر الله.

يقول ابن القيم: وليس في الرجاء، ولا في الدعاء، معارضة لتصرف الله في ملكه، كما يظن بعض الجهلة، فإنه إنما يرجو تصرفه في ملكه أيضاً بما هو أولى وأحب الأمرين إليه.

فإن الفضل أحب إليه من العدل، والعفو أحب إليه من الانتقام، والمسامحة أحب إليه من الاستقصاء، والترك أحب إليه من الاستيفاء، ورحمته غلبت غضبه.. فيا لله العجب، أي غلط في رجاء العبد ربّه وطمعه في بره وإحسانه، وفضله وسؤاله ذلك بقلبه ولسانه[٤].

---

(١) سورة النساء: ٧١.
(٢) انظر إحياء علوم الدين ١/ ٣٢٨، ٣٢٩، العواصم والقواصم ٦/ ٣٨٣.
(٣) الجواب الكافي ٧.
(٤) تهذيب مدارج السالكين ٣٠٠، ٣٠١.

وفهم هذه المسألة في ضوء النصوص الشرعية، وأقوال الأئمة يدفع الإيرادات التي يوردها المخالفون، ويزيل الإشكال الذي يقع نتيجة خلل في المنهج، أو فسادٍ في التصور والاعتقاد، والله أعلم.

شروط إجابة الدعاء

قد تبين فيما مضى أن الدعاء سبب من الأسباب المشروعة، التي ينال بها العبد خيراً، ويدفع بها شراً بإذن الله جل وعلا، وقد يتحقق المطلوب ويحصل المراد ببذل الأسباب، وقد لا يتحقق.

وفي جميع الأحوال لن يخرج الأمر عن تقدير الله عز وجل الشامل وإرادته العامة، ولهذا يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: «العبد له في المقدور حالان: حال قبل القدر، وحال بعده.

فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله، ويتوكل عليه ويدعوه، فإذا قدِّر المقدور بغير فعله، فعليه أن يصبر عليه ويرضى به، وإن كان بفعله ـ وهو نعمة من الله ـ حمد الله على ذلك، وإن كان ذنباً استغفر الله من ذلك.

وكذلك للعبد في المأمور حالان:

حال قبل الفعل، وهو العزم على الامتثال، والاستعانة بالله على ذلك.

وحال بعد الفعل، وهو الاستغفار من التقصير، وشكر الله على ما أنعم به من الخير، قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[١]، أمره أن يصبر على المصائب المقدرة، ويستغفر من الذنب»[٢].

ومن المعلوم أن أثر الدعاء في تحقق المطلوب، سواء كان جلب خير أو دفع شر، قد يتخلف وذلك لواحد من ثلاثة أمور:

الأول: إما لضعف السبب ذاته وهو الدعاء، كأن يكون دعاء لا يحبه الله ولا يرضاه لما فيه من الاعتداء.

الثاني: وإما لضعف الداعي نفسه بضعف قلبه وإيمانه ويقينه، فيكون

(١) سورة غافر: ٥٥.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٨/ ٧٤.

دعاؤه كما قال ابن القيم رحمه الله بمنزلة القوس المرخوِّ جداً، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً.

الثالث: وإما حصول مانع من موانع الإجابة، من أكل الحرام، ورَيْن الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «الأدعية والتعويذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير.

فإذا كان الدعاء في نفسه غيرَ صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثَمَّ مانع من الإجابة لم يحصل الأثر»(١).

وبناءً على ما تقدم: فإن الإجابة قد تتخلف بتخلف شروطها، أو لوجود مانع من الإجابة، فما شروط الإجابة؟ وما المانع من ذلك؟

وقد تأملت حال الإنسان مع الدعاء، فوجدته ضمن واحدةٍ من الحالات الأربع الآتية:

الأولى: يستجيب الله له، ويعجل له دعوته.

الثانية: يؤجل له دعوته، بأن يدخر له من الخير مثلها، أو يصرف عنه من الشر مثلها.

وفي هاتين الحالتين يقول النبي ﷺ فيما يرويه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «ما من رجلٍ يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعةِ رحم، إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال:

إما أن يعجّلَ له دعوته.

أو يدّخر له من الخير مِثلِها.

أو يصرفَ عنه من الشر مثلها.

---

(١) الداء والدواء لابن القيم ١٥.

قالوا يا رسول الله: إذا نكثر. قال: «الله أكثر»[١].

الحالة الثالثة: لا يستجاب له دعاؤه لوجود مانع من إثم أو قطيعة رحم ونحو ذلك، أو لخلل في الشروط كما سيأتي بيانها.

الحالة الرابعة: قد يعطى سؤله وإن لم يحقق الشروط، وذلك لحكمة يريدها الله، ويعلمها، وقد يكون استدراجاً، وزيادة في البلاء، ولهذا نقل الطرطوشي عن سفيان بن عينية[٢] قوله: لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن الله سبحانه أجاب دعاء شر الخلق إبليس إذ قال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾[٣]»[٤].

وإنما قصدت من إيراد هذا بيان أن الإجابة قد تقع لشر الناس، وذلك لحكمة الله جل وعلا في خلقه كما تقدم، والله أعلم.

أما شروط إجابة الدعاء فيمكن إجمالها في الأمور الآتية:

أولاً: الإخلاص لله عز وجل، والصدق مع الله حال التوجه إليه، والذلة والخضوع، وإظهار الفقر والحاجة والمسكنة.

ولازم هذا أن يكون العبد على صلة وثيقة بربه في السراء قبل الضراء؛ لأن المصطفى ﷺ يقول: «تعرّف على اللهِ في الرخاءِ يعرفكَ في الشّدة»[٥].

---

(١) رواه أحمد في المسند من حديث أبي سعيد الخدري ٣/ ١٨، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء ١٠/ ٤٩٣ وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٤٨، ١٤٩ إلى أحمد، وأبي يعلى، والبزار، والطبراني في الأوسط، وقال: ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح، غير علي بن علي الرفاعي وهو ثقة.

(٢) سفيان بن عيينه، أبو محمد الهلالي، الكوفي، ثم المكي: إمام حافظ محدث، متقن. ولد بالكوفة سنة ٩٧هـ وتوفي سنة ١٩٦هـ، له الجامع في الحديث، وكتاب في التفسير. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٠٠، وحلية الأولياء ٧/ ٢٧٠، وصفة الصفوة ٢/ ٢٣١ رقم الترجمة (٢١٧).

(٣) الآيات ٣٦-٣٨ من سورة الحجر.

(٤) انظر الدعاء المأثور وآدابه ٤٣.

(٥) هذا جزء من حديث فيه وصية جامعة لعبدالله بن عباس، رواه الترمذي في صفة القيامة، باب رقم (٥٩) حديث رقم (٢٥١٦) ٤/ ٦٦٧ وقال: حديث حسن صحيح، رواه أحمد في المسند =

يقول ابن رجب رحمه الله: «إن العبد إذا اتقى الله، وحفظ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرف بذلك إلى الله، وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة، فعرفه ربُّه في الشدة ورعى له تعرفه إليه في الرخاء، فنجّاه من الشدائد بهذه المعرفة، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه، ومحبته له، وإجابته لدعائه»[١].

وقد أورد ابن رجب قصة الإمام الحسن البصري رحمه الله لما طلبه الحجاج، فدخل الحسن بيت حبيب بن محمد، فقال له حبيب: يا أبا سعيد، أليس بينك وبين ربك ما تدعوه به فيسترك من هؤلاء؟

ادخل البيت، فدخل، ودخل الشُّرَط على أثره فلم يروه.

فُذكر ذلك للحجاج فقال: بل كان في البيت إلا أن الله طمس أعينهم فلم يروه[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من سرّه أن يستجيبَ اللهُ له عند الشدائد، فليكثرِ الدعاءَ في الرخاء»[٣].

وقال قتادة[٤]: لما نادى يونس في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،[٥] قالت الملائكة: صوت معروف في السماء، أَعرَفَ منه في الأرض، وهو بمعنى قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ

= ١/ ٢٩٣، ٣٠٧.

(١) جامع العلوم والحكم ١٦٥.

(٢) المرجع السابق ١٦٦.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعاء، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ٥/ ٤٦٢ ح (٣٣٨٢) وقال: هذا حديث غريب. ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء، باب إكثار الدعاء في الرخاء ١/ ٥٤٤ وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٤) هو قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي البصري. ولد سنة (٦١) مفسِّر حافظ ضرير أكمه، كان من أوعية العلم، يضرب به المثل في الحفظ، قال الذهبي: هو حجة بالإجماع إذا بيَّن السماع. مات رحمه الله بواسط في الطاعون سنة (١١٨) هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩، ووفيات الأعيان ١/ ٤٢٧، والأعلام ٥/ ١٨٩.

(٥) سورة الأنبياء: ٨٧.

يُبْعَثُونَ﴾[١]، ولما نادى فرعون من الغرق: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٢] قالت الملائكة: صوت منكر في أهل السماء[٣].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٤].

قال القرطبي رحمه الله: «هذا أمر بالدعاء وتعبُّد به، ثم قُرن بالأمر صفات تحسن معه، وهي الخشوع، والاستكانة، والتضرع.

ومعنى خُفْيَة: أي سراً ليبعد عن الرياء، وبذلك أثنى على نبيه زكريا عليه السلام إذ قال مخبراً عنه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[٥].

قال الحسن بن أبي الحسن[٦]: لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سراً فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، فلا يسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾»[٧].

وقد مدح الله عبده زكريا وأهله بتضرعهم، وصدقهم، وإخلاصهم فقال: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٨].

ثانياً: اقتفاء طريقة المصطفى ﷺ في الدعاء، واتباع هديه العظيم الذي هو أعظم هدي، وطريقته أفضل طريقة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن

---

(١) سورة الصافات: ١٤٣-١٤٤.
(٢) سورة يونس: ٩٠.
(٣) الدعاء المأثور وآدابه ٤٢، ٤٣.
(٤) سورة الأعراف: ٥٥.
(٥) سورة مريم: ٣.
(٦) هو الحسن البصري رحمه الله وقد سبقت ترجمته.
(٧) تفسير القرطبي المسمى «الجامع لأحكام القرآن» ٧/ ٢٢٣ مجلد ٤.
(٨) سورة الأنبياء: ٨٩-٩٠.

﴿كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[١].

يقول ابن تيمية رحمه الله: «إن الأذكار والدعوات من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء.

وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبّر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان، وما سواها من الأذكار قد يكون محرماً، وقد يكون مكروهاً، وقد يكون فيه شرك مما لا يهتدي إليه أكثر الناس»[٢].

وصور المخالفة لهدي النبي ﷺ في الدعاء كثيرة، ذلك لأن الناس إذا تُركوا لأهوائهم، واتبعوا من لا علم له بهدي النبي عليه الصلاة والسلام، أتوا بما لا يمكن حصره.

ولهذا يقول أبو بكر الطرطوشي: «ومن العجب العجاب أن تُعرِض عن الدعوات التي حكاها الله في كتابه عن الأنبياء والأولياء والأصفياء، مقرونة بالإجابة، ثم تنتقي ألفاظ الكتّاب والشعراء، كأنك قد دعوت في زعمك بجميع دعواتهم، ثم استعنت بدعوات من سواهم، وقد تتبعت دعوات الأنبياء والمرسلين، والمصطفين من عباده المنتخبين، واستخرجت ما وجدت في القرآن من ذلك فوجدت جميعها (ربنا ربنا) أو (رب)»[٣].

والدعاء عبادة، وهو أمر شرعي، فليس لأحد أن يأتي من عنده بما يخالف السنة في الأذكار والأدعية. يقول ابن تيمية: وأما اتخاذ ورد غير شرعي، واستنان ذكر غير شرعي، فهذا مما ينهى عنه، مع هذا ففي الأدعية الشرعية والأذكار الشرعية، غاية المطالب الصحيحة، ونهاية المقاصد العلية، ولا يعدل عنها إلى غيرها من الأذكار المحدثة المبتدعة إلا جاهل، أو مفرط أو متعد»[٤].

(١) سورة الأحزاب: ٢١.
(٢) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥١٠.
(٣) الدعاء المأثور وآدابه ١٤٧.
(٤) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥١١.

وفي ترجمة الإمام مالك[١] رحمه الله أنه سئل عن الداعي يقول: يا سيدي فقال: يعجبني دعاء الأنبياء: ربنا، ربنا[٢].

ونبينا محمد ﷺ معدن الفصاحة، علمه ربه الدعاء فقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٣]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾[٤]، و ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٥]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾[٦].

وهذا آدم عليه السلام وزوجته قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٧]»[٨].

ثم ذكر الله في القرآن دعاء نوح، وإبراهيم، وموسى، وسليمان، وزكريا عليهم السلام، وهي دعوات مقرونة بالإجابة، فَحَرِيٌّ بالمؤمن المقتدي أن يتبع، ولا يبتدع، وأن يقتفي آثار الصفوة من البشر الذين هم أهل الاهتداء والاقتداء ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[٩].

ثالثا: أن يتخلص الداعي من موانع الإجابة وهي:

أ - **أكل الحرام**: وطرق كسب الحرام كثيرة، منها السرقة والربا، والغش والرشوة، والاختلاس، والغصب، وجميع صور الظلم، التي تشكل أمراضاً خطيرة في واقع المسلمين اليوم.

---

(١) مالك بن أنس الأصبحي الحميدي، إمام دار الهجرة، أحد الأئمة الأربعة، مولده سنة (٩٣) هـ، ووفاته سنة (١٧٩) هـ بالمدينة، له تصانيف كثيرة منها الموطأ، انظر سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٨، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٥، والأعلام ٥/ ٢٥٧.

(٢) انظر نزهة الفضلاء، تهذيب سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٢١.

(٣) سورة طه: ١١٤.

(٤) سورة الإسراء: ٨٠.

(٥) سورة المؤمنون: ٩٣-٩٤.

(٦) سورة المؤمنون: ٩٧-٩٨.

(٧) سورة الأعراف: ٢٣

(٨) انظر الدعاء المأثور للطرطوشي ١٤٧، ١٤٨.

(٩) سورة الأنعام: ٩٠.

فإن هذه الطرق لكسب المال حائل قوي بين الداعي وبين الإجابة، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في «الرجل يمدُّ يديه إلى السماء، يقول: يارب، يا رب، ومطعمُه حرام، وملبسُه حرام، وغُذي بالحرام فأنَّى يُستجابُ له»[١].

ونقل ابن رجب عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قيل له: تستجاب دعوتك من بين أصحاب رسول الله ﷺ! قال: ما رفعت إلى فمي لقمة إلا وأنا عالم من أين مجيئها ومن أين خرجت[٢].

وقال وهب بن منبه[٣] رحمه الله: من سرّه أن يستجيب الله دعوته فليطيب طعمته.

وقال يوسف بن أسباط[٤] رحمه الله: بلغنا أن دعاء العبد يحبس عن السماوات بسوء المطعم.

ب - **الاعتداء في الدعاء**: قال القرطبي: المعتدي: هو المجاوز للحد، ومرتكب الخطر، وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه..

والاعتداء في الدعاء على وجوه:

منها: الجهر الكثير والصياح، ومنها: أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي، أو يدعو في محال، ونحو هذا من الشطط، ومنها: أن يدعو طالباً معصية، وغير ذلك.

ومنها: أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة، فيتخير ألفاظاً مفقَّرة، وكلمات مسجَّعة، قد وجدها في كراريس لا أصل لها، ولا معول عليها[٥].

قلت: وما أكثر هذا في زماننا، فإن الجهل بالسنة، وضعف الحرص على الاقتداء، أو عدمه، سبَّب مثل هذا وأكثر منه.

---

(١) رواه مسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ٢/ ٧٠٣ (١٠١٥)، والترمذي في التفسير باب رقم (٣) ٥/ ٢٢٠ (٢٩٨٩)، والدارمي في الرقائق ٢/ ٢١٠ (٢٧٢٠) باب في أكل الطيب، ورواه أحمد في المسند ٢/ ٣٢٨، والجميع رواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جامع العلوم والحكم ٩٢، وانظر تفسير القرطبي ٢/ ٣١٢ (مجلد ١).

(٣) سبقت ترجمته ص٣٨.

(٤) يوسف بن أسباط الزاهد، له مواعظ وحكم، ذكر الذهبي له في السير طرفاً منها، وقال: وثقه ابن معين، انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٩/ ١٦٩، وميزان الاعتدال ٤/ ٤٦٢ (٩٨٥٦).

(٥) تفسير القرطبي ٧/ ٢٢٦.

ذكر ابن القيم رحمه الله : «أن الاعتداء في الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات، وتارة بأن يسأل مالا يفعله الله مثل أن يسأل تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب، أو أن يسأله أن يطلعه علي غيبه، أو يسأله أن يجعله من المعصومين، أو يسأله أن يهب له ولداً من غير زوجة ولا أَمَة ونحو ذلك، مما سؤاله اعتداء.

فكل سؤال يناقض حكمة الله، أو يتضمن مناقضة شرعِه وأمرِه، أو يتضمن خلاف ما أخبر به، فهو اعتداء ولا يحبه الله ولا يحب سائله.

ومن العدوان: أن يدعو غير متضرع، بل دعاء مُدل كالمستغني بما عنده المدل على ربه به»[1].

وقد أخذ رحمه الله الفقرة الأخيرة من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عقب قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

واعتبر هذا دليلاً على أن من لم يدعه تضرعاً وخُفية، فهو من المعتدين في الدعاء الذين لا يحبهم الله، فقسمت الآيةُ الناسَ إلى قسمين:

داع لله تضرعاً وخفية، ومعتدٍ بترك ذلك[2].

جـ- أن يدعو بإثم أو قطيعة رحم: هذا من موانع الإجابة، بل هو من أعظمها بنص حديث المصطفى ﷺ.

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض مسلمٌ يدعو اللهَ تعالى بدعوة إلا آتاه اللهُ إياها، أو صرف عنه من السُّوء مثلِها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم».

فقال رجل من القوم: إذاً نكثر؟

فقال: «الله أكثر»[3].

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ١٢، ١٣.

(٢) بدائع الفوائد ٣/ ١٣.

(٣) رواه أحمد في «المسند» ٥/ ٣٢٩، والترمذي في «السنن» (٣٥٧٣) وقال: حسن صحيح.

د- **الاستعجال في الدعاء**: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُستجابُ لأحدِكم ما لم يعجلْ، يقول: قد دعوتُ ربي فلم يستجبْ لي».

وفي رواية لمسلم: قيل: يا رسول الله: ما الاستعجال؟

قال: «يقولُ قد دعوتُ، وقد دعوتُ فلم يستجب لي فيستحسِر[(١)] عند ذلك، ويَدَع الدعاء»[(٢)].

هـ - **عدم الجزم في الدعاء**: قال ﷺ: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئتَ، ارحمني إن شئتَ، ارزقني إن شئتَ، وليعزم مسألتَه، إنه يفعل ما يشاءُ لا مُكرِه له»[(٣)].

قال ابن حجر: «معنى الأمر بالعزم: الجَدُّ فيه، وأن يجزم، بوقوع مطلوبه ولا يعلق ذلك بمشيئة الله تعالى، وإن كان مأموراً في جميع ما يريد فعله أن يعلق بمشيئة الله تعالى، وقيل معنى العزم: أن يحسن الظن بالله في الإجابة»[(٤)].

وذكر في شرح الحديث أن المراد أن الذي يحتاج إلى التعليق بالمشيئة، ما إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشيء فيخفف الأمر عليه، ويعلم بأنه لا يطلب منه ذلك الشيء إلا برضاه، وأما الله -سبحانه وتعالى- فهو منزه عن ذلك، فليس للتعليق فائدة[(٥)].

---

(١) معنى يستحسر: ينقطع، والمراد أن يلازم الطلب، ولا ييأس من الإجابة، لما في ذلك من الانقياد، والاستسلام وإظهار الافتقار. انظر فتح الباري ١١/ ١٤١.

(٢) رواه البخاري في الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، الفتح ١١/ ١٤٠ حديث رقم (٦٣٤٠)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب يستجاب للداعي ما لم يعجل ٤/ ٢٠٩٥ (٢٧٣٥)، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء فيمن يستعجل في دعائه ٥/ ٤٦٤ (٣٣٨٧) وقال: حسن صحيح، ورواه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء ٢/ ١٦٣ (١٤٨٤)، وابن ماجه في الدعاء، باب يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ٢ / ١٢٦٦ (٣٨٥٣)، ورواه أحمد في المسند ٢/ ٣٩٦، ومالك في «الموطأ» في الدعاء ١/ ١٦٧.

(٣) رواه البخاري في الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له ح (٦٣٣٩)، فتح الباري ١١/ ١٣٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم في الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء ولا يقل: إن شئت ٤/ ٢٠٦٣ح (٢٦٧٩)، ورواه مالك في الموطأ، باب ما جاء في الدعاء ١/ ١٦٦.

(٤) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ١١/ ١٤٠ (كتاب الدعوات).

(٥) المرجع السابق ١١/ ١٤٠.

و- عموم المعاصي والغفلة واستيلاء الشهوات على القلب.

كل هذه تسد طريق الإجابة، كما نقل ابن رجب -رحمه الله - عن بعض السلف، قال: وأخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

نحن ندعو الإلهَ في كل كربٍ ثم ننساه عند كشف الكُروب
كيف نرجو إجابةً لدعاءٍ قد سدَدْنا طريقها بالذنوبِ[(١)]

وسئل إبراهيم بن أدهم[(٢)] رحمه الله: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟

قال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول ﷺ فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به.

وأكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها.

وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه، ووافقتموه.

وعرفتم الموت فلم تستعدوا له.

ودفنتم الأموات فلم تعتبروا.

وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس.

وجاء عن بعضهم أنه لا بد من حفظ أربع:

أولها القلب عند الوحدة، وثانيها اللسان مع الخُلُق، وثالثها العين عن النظر عما حرم الله، ورابعها حفظ البطن عن الحرام[(٣)].

والمعاصي خطيرة جداً، وبعضها يجر بعضاً كما قيل:

إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما اشتهتْ ولم ينْهَها تاقتْ إلى كل باطلِ
وساقت إليه الإثمَ والعارَ للذي دعتْه إليه من حلاوة عاجلِ

(١) جامع العلوم والحكم ٩٣.

(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي، البلخي، نزيل الشام، مولده في حدود المئة، تفقه ورحل إلى بغداد، وأخذ عن كثير من العلماء، كان عابداً، واعظاً، مؤثراً، توفي رحمه الله سنة (١٦١)هـ. انظر سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٧، ونزهة الفضلاء ١/ ٥٩٥، وحلية الأولياء ٧/ ٣٦٧، والأعلام ١/ ٣١.

(٣) تفسير القرطبي ٢/ ٣١١.

وهي متفاوتة فيما بينها، فليست المعاصي كلها بدرجة واحدة كما هو معلوم، ولكن مجموعها أو أكثرها يشكل على الإنسان خطراً عظيماً، فعلى اللبيب أن يكون حذراً من الغفلة والوقوع في المعصية، حتى يحظى بالإجابة والقبول، والله يتولانا برحمته وفضله.

رابعاً: أن يقوم بالأسباب الجالبة لإجابة الدعاء، ومن أهمها:

أ- رفع اليدين:

من هدي النبي ﷺ رفع اليدين في الدعاء العام والأدلة على ذلك كثيرة، فقد عقد البخاري باباً بعنوان: باب رفع الأيدي في الدعاء ثم قال: قال أبو موسى الأشعري: دعا النبي ﷺ، ثم رفع يديه، ورأيت بياض إبطيه.

وقال ابن عمر: رفع النبي ﷺ يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنعَ خالد»[١] مرتين.

وقال ابن حجر: وفي الحديث الأول رد على من قال: لا يرفع كذا إلا في الاستسقاء، بل فيه وفي الذي بعده رد على من قال: لا يرفع اليدين في الدعاء غير الاستسقاء أصلاً، وتمسك بحديث أنس «لم يكن النبي ﷺ يرفع يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء». هو صحيح.

لكن جمع بينه وبين أحاديث الباب وما في معناها، بأن المنفي صفة خاصة لا أصل الرفع.

ثم ذكر أن «الرفع في الاستسقاء يخالف غيره، إما بالمبالغة إلى أن تصير البداية حذو الوجه مثلاً، وفي الدعاء إلى حذو المنكبين، ولا يعكر على ذلك أنه ثبت في كل منهما «حتى يُرى بياض إبطيه»، بل يجمع بأن تكون رؤية البياض في الاستسقاء أبلغ منها في غيره، وأما أن الكفين في الاستسقاء يليان الأرض، وفي الدعاء يليان السماء، قال المنذري: وبتقدير الجمع فإن الإثبات أرجح.

---

(١) انظر فتح الباري ١١/١٤١ كتاب الدعوات، باب رفع الأيدي في الدعاء. ورواه أحمد في المسند ٢/١٥١، وانظر تفسير القرطبي وتعليقه على ذلك ٧/ ٢٢٤، ٢٢٥.

قال ابن حجر: ولا سيما مع كثرة الأحاديث الواردة في ذلك[١].

وقد ذكر من الأحاديث حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدم الطفيل ابن عمرو على النبي ﷺ فقال: «إنّ دَوْساً عصت، فادعُ اللهَ عليها، فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: «اللهم اهدِ دَوْساً» قال ابن حجر: وهو في «الصحيحين» دون قوله: «ورفع يديه».

وذكر حديث عائشة رضي الله عنها أنها رأت النبي ﷺ رافعاً يديه يقول: «اللهم إنما أنا بشرٌ» الحديث وهو صحيح الإسناد[٢]. ثم ساق أحاديث أخرى.

وتحدث الإمام القرطبي في «تفسيره» عن مسألة رفع اليدين والنزاع في هذه المسألة، وبسط الأقوال فيها منسوبة إلى أصحابها ثم قال: «والدعاء حسن كيفما تيسر، فإن شاء استقبل القبلة، ورفع يديه فحسنٌ، وإن شاء فلا، فقد فعل ذلك النبي ﷺ حسبما ورد في الأحاديث»[٣].

وينبغي ملاحظة أن الرفع يكون في الدعاء العام، أما في غير هذا، مثل دعاء الخروج من البيت، والدخول فيه، وعند دخول الخلاء والخروج منه، فلا نفعله[٤].
وقال في «منظومة الآداب»:

ومُـدَّ إليـه كَـفَّ فقـرِكَ ضـارعـاً   بقلـبٍ مُنيـب وادعُ تُعـطَ وتَسعَـدِ[٥]

أما مسح الوجه بعد الدعاء، فلم يثبت فيه حديث صحيح.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما رفع النبي ﷺ يديه في الدعاء، فقد جاء فيه أحاديث كثيرة صحيحة، وأما مسحه وجهه بيديه، فليس فيه إلا حديث أو حديثان، لا يقوم بهما حجة، والله أعلم»[٦].

---

(١) فتح الباري ١١/ ١٤٢.
(٢) المرجع السابق ١١/ ١٤٢.
(٣) تفسير القرطبي ٧/ ٢٢٤ (مجلد ٤).
(٤) الدعاء للشيخ حسين العوايشة ١٠٨.
(٥) غذاء الألباب ٢/ ٥٠٠.
(٦) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥١٩.

وقال الشيخ الألباني: «وأما مسحهما بالوجه في القنوت، فلم يرد مطلقاً، لا عنه ﷺ ولا عن أحد من أصحابه، فهو بدعة بلا شك.

وأما مسحهما به خارج الصلاة، فليس فيه إلا هذا الحديث والذي قبله -يشير إلى حديث رواه الترمذي، وآخر رواه أبو داود وابن ماجه - وفيهما مسح الوجه بعد الدعاء.

ولا يصح القول بأن أحدهما يقوي الأخر بمجموع طرقهما، كما فعل المناوي لشدة الضعف الذي في الطرق، ولذلك قال الترمذي في «المجموع»: لا يندب تبعاً لابن عبد السلام، وقال: لا يفعله إلا جاهل.

وذكر: أن مما يؤكد عدم مشروعيته أن رفع اليدين في الدعاء قد جاء فيه أحاديث كثيرة وصحيحة، وليس في شيء منها مسحهما بالوجه، فذلك يدل - إن شاء الله- على نكارته وعدم مشروعيته»(١).

ب- الإلحاح في الدعاء:

ذكر ابن القيم أن هذا من أنفع الأدوية، ودليله حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحبُّ الملحّين في الدعاء»(٢).

وفي ترجمة عامر بن عبدالله بن الزبير(٣) فيما ذكره عنه الإمام مالك: قال: ربما انصرف عامر من العتمة، فيعرض له الدعاء فلا يزال يدعو إلى الفجر(٤).

---

(١) انظر إرواء الغليل ٢/ ١٨١، ١٨٢. وانظر إحكام القنوت/ عدنان العرعور ٥٢، وانظر كتاباً مستقلاً للشيخ بكر أبو زيد بعنوان: «جزء من مسح الوجه باليدين بعد رفعهما للدعاء» في ثمان وسبعين صفحة.

(٢) الحديث في شأن الدعاء للخطابي ١٤، والجواب الكافي ص٨، قال: ذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها، وقال في مدارج السالكين ٢/ ٢٣٨: وفي الأثر؛ ثم ذكره. وانظر شرح عين العلم ١/ ١٠٥، وعزاه فيه للبيهقي وغيره، والله أعلم.

(٣) عامر بن عبدالله بن الزبير بن العوام الإمام الرباني، أبو الحارث الأسدي المدني، أحد العباد، قال الذهبي في السير: مجمع على ثقته، توفي سنة نيف وعشرين ومئة.
انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٢٠، ونزهة الفضلاء ١/ ٤٨٣.

(٤) انظر الأثر في نزهة الفضلاء ١/ ٤٨٤.

وذكروا عن مورّق العجلي: قال: ما امتلأت غضباً قط، ولقد سألت الله حاجة منذ عشرين سنة فما شفعني فيها، وما سئمت من الدعاء[١].

وفي ترجمة موسى الكاظم[٢] أنه دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجد سجدة في أول الليل، فسُمع وهو يقول في سجوده: عظُم الذنب عندي، فليحسن العفو من عندك، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة، فجعل يرددها حتى أصبح[٣].

وذكرت فاطمة بنت عبد الملك عن زوجها عمر بن عبد العزيز رحم الله الجميع أنه كان إذا صلى العشاء، قعد في مسجده، ثم رفع يديه، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه ثم ينتبه، فلا يزال يدعو رافعاً يديه يبكي حتى تغلبه عينه، يفعل ذلك كله ليله أجمع[٤].

قلت: هذه هي الإنابة إلى الله، وهذا هو صدق اللجأ، وعظيم الصلة بالله جل وعلا، فنسأل الله أن يحشرنا في عداد الأتقياء الذين سلكوا طريق محمد ﷺ، واتبعوا سبيله.

وما عرضت له قليل من كثير مما يروى عن أئمتنا رحمهم الله.

ذكروا في ترجمة الإمام ابن تيمية رحمه الله أنه كان إذا استغلق عليه أمر من العلم سجد لله عز وجل، وأخذ يبتهل ويسأل الله جل وعلا ويقول: يا معلم إبراهيم علمني،

(١) سبقت ترجمة مورق، وذكر موضع الأثر الذي نقل عنه.

(٢) موسى الكاظم، أبو الحسن العلوي المدني، نزل بغداد. أبوه جعفر الصادق بن محمد الباقر، كان من سادات بني هاشم، فيه فضل وزهد وعبادة، ولد في الأبواء، قرب المدينة سنة (١٢٨) هـ وتوفي سنة (١٨٣) هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٧٠، ووفيات الأعيان ٢/ ١٣١، والبداية والنهاية ١٠/ ١٨٣، والأعلام ٧/ ٣٢١.

(٣) نقل ذلك عنه في السير، انظر نزهة الفضلاء ١/ ٥٣٨.

(٤) جاء ذلك في نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء ١/ ٤٧٩.
عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم، الإمام الحافظ، العلامة المجتهد الزاهد، العابد السيد أمير المؤمنين حقاً، أبو حفص القرشي، الأموي المدني، الخليفة الزاهد الراشد، أشج بني أمية ولد سنة (٦١) ونشأ بالمدينة وتوفي سنة (١٠١) هـ رحمه الله. انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٤، وتهذيب التهذيب ٧/ ٤٧٥، والأعلام ٥/ ٥٠.

ويا مفهم سليمان فهمني، ويا مؤتي لقمان الحكمة آتني الحكمة وفصل الخطاب، فيقوم وقد فتح الله عليه.

ومع ذلك يقول عنه ابن القيم: لقد شاهدت من شيخ الإسلام قدس الله روحه من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره - يقصد في العبادة، والتذلل والتواضع- قال: وكان يقول كثيراً: مالي شيء ولا مني شيء ولا في شيء، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكدي وابن المُكدي ... وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

قال: وبعث إلي في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

أنا الفقيرُ إلى رب البريّات ... أنا المسكينُ في مجموع حالاتِ
أنا الظّلوم لنفس وهي ظالمتي ... والخيرُ إن يأتنا من عنده يأتي
لا أستطيعُ لنفسي جلبَ منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضراتِ
والفقرُ لي وَصْفُ ذات لازمٌ أبداً ... كما الغنى أبداً وَصْفٌ له ذاتي
وهذه الحالُ حال الخلقِ أجمعِهم ... وكلُّهم عندَه عبدٌ له آتي[1]

وجاء في «الآداب الشرعية» نقلاً عن الإمام ابن تيمية قوله: وما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين، فأعظم من أن يعبِّر عنه مقال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه ولهذا قيل: يا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك.

وقال بعض الشيوخ: إنه ليكون إلى الله حاجة، فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته، وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتي، وينصرف عني ذلك[2].

هذا هو فقه الدعاء عند السلف، ولهذا كان الدعاء عنوان صدق ودليل قرب من الله جلّ وعلا، وهو من أعظم مقامات السالكين وفقنا الله لذلك آمين.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢٧٧) وجاءت هذه الأبيات ومعها سبعة أبيات للإمام ابن تيمية في الديوان الذي جمعه محمد عبدالرحيم ص٧٤.
(٢) الآداب الشرعية ٢/ ١٨٧.

جـ- التوسل إلى الله عز وجل باسم الرب:

يقول الإمام ابن رجب رحمه الله: «ومن تأمل الأدعية المذكورة في القرآن وجدها غالباً تفتتح باسم الرب كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾(١).

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾(٢) الآية، وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾(٣).. الآية»(٤).

وقال الشيخ محمد بن عثيمين حفظه الله في هذا: «وهذا من أعظم أنواع التوسل، وهو في القرآن كثير، ثم ساق أمثلة كثيرة وقال: فالتوسل بهذا الاسم من أسباب الإجابة»(٥).

د- إطالة السفر:

قد جاء في الحديث أن دعوة المسافر والمظلوم والوالد مستجابة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثُ دعوات مستجابات، لا شك فيهن: دعوةُ المظلومِ، ودعوةُ المسافرِ، ودعوةُ الوالدِ لولدِه»(٦).

وقد ذكر في تعليل قبول دعوة المسافر أنه يشعر بالحاجة إلى الله والضرورة(٧) فهذا حال يدعو إلى قبول الدعاء.

وقال ابن رجب: ومتى طال السفر كان أقرب إلى إجابة الدعاء، لأنه مظنة حصول

(١) سورة البقرة: ٢٠١.
(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.
(٣) سورة آل عمران: ٨.
(٤) جامع العلوم والحكم (٩٢)، والدعاء المأثور وآدابه (١٤٧).
(٥) مجموع فتاوى ابن عثيمين ١/ ٩٤.
(٦) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم (٣٢)، (٤٨١)، وأبوداود في الصلاة، باب الدعاء بظهر الغيب ٢/ ١٨٧ (١٥٣٦)، والترمذي في البر، باب في دعوة الوالدين ٤/ ٣١٤ (١٩٠٥)، وابن ماجه في الدعاء، باب دعوة الوالد والمظلوم ٢/ ١٢٧٠ (٣٨٦٢)، ورواه أحمد في المسند ٢/ ٢٥٨، ٣٦٧، وغيرها.
(٧) مجموع فتاوى ابن عثمين ١/ ٩٥.

انكسار النفس بطول الغربة عن الأوطان، وتحمل المشاق، والانكسار من أعظم أسباب إجابة الدعاء[١] .

هـ- تحري أوقات الإجابة، والأماكن المباركة، والأحوال الشريفة للإنسان :

أما الأوقات المباركة، فقد عدها الإمام ابن القيم من خلال تتبع النصوص ستة :

١- الثلث الأخير من الليل .

٢- عند الأذان .

٣- عند الأذان والإقامة .

٤- أدبار الصلوات المكتوبات .

٥- عند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر .

٦- آخر ساعة بعد العصر[٢] .

وأما الأماكن المباركة : فهي المواضع المباركة، قال السفاريني رحمه الله : وأما أماكن الإجابة فهي المواضع المباركة، ولا أعلم بورود شيء من ذلك عن المعصوم ﷺ إلا ما رواه الطبراني بسند حسن أن الدعاء مستجاب عند رؤية الكعبة، وأما أشرف أحوال العبد فهو حال الوقوف بين يدي الله عز وجل، وأقرب ما يكون فيه من الله جل وعلا حين السجود، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»[٣] .

وقد ذكر العلماء أزمنة شريفة غير ما سبق مثل يوم عرفة، وشهر رمضان، وليلة القدر، وعشر ذي الحجة، ويوم الجمعة، وأحوالاً شريفة : مثل التقاء الجيوش، وعند نزول الغيث، وإقامة الصلاة، وعند رقة القلب .

---

(١) جامع العلوم والحكم ٩٠ .

(٢) انظر الجواب الكافي (٩)، وشرح عين العلم ١/ ٩٩ وما بعدها .

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصلاة، باب ما يقول في الركوع والسجود ١/ ٣٥٠ (٤٨٢)، وأبو داود في الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود ١/ ٥٤٥ (٨٧٥)، والنسائي في الصلاة، باب أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل ٢/ ٢٢٦، وأحمد في المسند ٢/ ٤٢١ .

وعندما تحدث الطرطوشي عن أوقات الإجابة، ركز على بعض ما ذكرنا ثم ختم الباب بقوله : فأقرب القرابين إلى القبول الذكر في السجود لأنه محل القربة، وقد وعد الله بقبوله فقال: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾[١] .

والذي يختم به الباب أنه ليس بفقيه من كانت له إلى الله حاجة، ثم نام عنها في الأسحار[٢] .

هذا وقد ذكر أهل العلم من الأمور المستحبة في الدعاء استقبال القبلة والوضوء، والصلاة على النبي ﷺ، والبدء بحمد الله .

فهذه الأمور فعلها من الأدب مع الله تعالى، فإن السائل ينبغي أن يتفقه في هذا الباب ليحظى بالقبول، والله أعلم .

---

(١) سورة العلق: ١٩ .

(٢) انظر الدعاء المأثور وآدابه ٦٧، ٦٨ وغذاء الألباب ٢/ ٥٠٤ .

حكم صرف الدعاء لغير الله

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾(٦).

هذه الآيات وغيرها كثير، يستفاد منها الحكم بكفر وضلال من صرف هذه العبادة العظيمة (الدعاء) لغير الله جل وعلا، أياً كان هذا المخلوق الذي صرفت له من الملائكة، أو الأنبياء، أو الصالحين، أو غيرهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الدعاء من جمله العبادات، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين، واستغاث بهم، مع أن هذا أمر لم يأمر به الله ولا

(١) سورة الجن: ١٨.
(٢) سورة يونس: ١٠٦.
(٣) سورة الأحقاف: ٥.
(٤) سورة النمل: ٦٢.
(٥) سورة الرعد: ١٤.
(٦) سورة الأعراف: ١٩٧.

رسوله أمر أيجاب ولا استحباب، كان مبتدعاً في الدين مشركاً برب العالمين، مبتدعاً بدعة ما أنزل الله بها من سلطان[١].

وقد يقول قائل بأن بعض المنتسبين إلى الإسلام يصنع ذلك، وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فكيف يقال عنه بأنه مشرك؟!

والجواب: أن من أتى الشهادتين، وعبد غير الله، فما أتى بهما حقيقة وإن تلفظ بهما كاليهود الذين يقولون: لا إله إلا الله وهم مشركون.

ومجرد التلفظ بهما لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناهما، واعتقاده إجماعاً[٢].

ويقول الإمام الصنعاني رحمه الله: فإن قلت: أفيصير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور، والأولياء، والفسقة، والخلعاء مشركين، كالذين يعتقدون في الأصنام؟

قلت: نعم قد حصل منهم ما حصل من أولئك، وساوروهم في ذلك، بل زادوا في الاعتقاد، والانقياد، والاستعباد، فلا فرق بينهم.

فإن قلت: هؤلاء القبوريون يقولون: نحن لا نشرك بالله تعالى، ولا نجعل له نداً، والالتجاء إلى الأولياء ليس شركاً.

قلت: نعم، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ولكن هذا جهل منهم بمعنى الشرك[٣]، ثم ساق الأدلة على ذلك.

والمقصود أن من صرف شيئاً من نوعي الدعاء لغير الله -عز وجل- فقد أشرك مع الله غيره، ولو قال: لا إله إلا الله، وصلى وصام وحج البيت الحرام، مع ملاحظة الفرق بين هذا الحكم المطلق، والحكم على معين، فنحن هنا لا نحكم على شخص بعينه.

والدعاء عبادة جليلة، وعمل عظيم لا يصلح إلا لله عز وجل، ولهذا تجد أئمتنا يصدرون الدعاء في مقدمة أنواع العبادة، فهو أجلّها وأعظمها.

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ١٥٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٢٧.

(٣) تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد ٦٠.

يقول الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: فإن قيل: فما الجامع لعبادة الله وحده؟ قلت: طاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإن قيل: فما نوع العبادة التي لا تصلح إلا لله تعالى؟ قلت: من أنواعها الدعاء، والاستعانة، والاستغاثة، وذبح القربان، والنذر، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والمحبة، والخشية، والرغبة، والرهبة، والتألُّه، والركوع، والسجود، والخشوع، والتذلل، والتعظيم الذي هو من خصائص الإلهية[١].

فجعل رحمه الله الدعاء أول أنواع العبادة، وهذا يغيب عن أذهان بعض المنتسبين إلى الإسلام - هداهم الله - فيتصورون أن الدعاء أمر ثانوي، وأنه طالما صلى المرء وصام وحج فهو موحد، وإن صرف الدعاء لغير الله، وهذا جهل بالدين عظيم وخطر جسيم.

ولهذا؛ فإن صرف الدعاء لغير الله شرك في الربوبية وشرك في الألوهية، ووجه ذلك: أن من يتوجه إلى غير الله لجلب نفع، أو دفع ضر، يعتقد -والحالة هذه- أن مع الله مدبِّراً ومعيناً وقائماً بمصالح الناس، يجلب لهم النفع أو يدفع عنهم الضر.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾[٢].

يقول الإمام ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: فقل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم من قومك، الجاحدين نعمنا عندهم: ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم لله شريك من دونه، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا، بالذين وصفنا أمرهم من إنعام أو إيباس، فإن لم يقدروا على ذلك فاعلموا أنكم مبطلون، لأن الشركة في الربوبية لا تصلح ولا تجوز.

ثم وصف الذين يدعون من دون الله، فقال: إنهم لا يملكون مثقال ذرة في

(١) الجامع الفريد، والرسالة التاسعة للإمام محمد بن عبدالوهاب، ضمن ثلاثة عشر رسالة في هذا المجموع المفيد ص٢٧١.

(٢) سورة سبأ: ٢٢.

السماوات ولا في الأرض من خير ولا شر، ولا ضر ولا نفع، فكيف يكون إلهاً من كان كذلك؟!(١)

وأما الشرك في الألوهية، فإن الله جل ثناؤه يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والذي يتوجه إلى غير الله فيدعوه، ويستعين به، يناقض بفعله هذه الآية العظيمة من وجهين:

الأول: أنه قد فعل ذلك بدعائه، واستكان وخشع، وخضع لغير الله، وهذا العمل مناقض لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

الثاني: أنه قد استعان بغير الله عز وجل، والله يقول جل شأنه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ولهذا يقول المفسرون: «وإياك ربنا نستعين على عبادتنا إياك، وطاعتنا لك، وفي أمورنا كلها لا أحد سواك، إذ كان من يكفر بك يستعين في أموره معبوده الذي يعبده من الأوثان دونك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة»(٢).

ولذلك يقول الشيخ حمد بن ناصر آل معمر رحمه الله موضحاً ذلك: «فمن صرف الدعاء لغير الله، فقد أشرك في الدين الذي أمر الله بإخلاصه له، وفي العبادة التي أمر الله بها.

ثم يبين الله أن الداعي راغب راهب فيقول: فالعبد الذي يدعو ربه رغباً ورهباً، ويتوكل عليه في حصول مطلوبه، ودفع مرهوبه، فإذا طلب فوائده، وكشف شدائده من غير الله، فقد أشرك مع الله في الرغبة، والرهبة، والرجاء، والتوكل.

فإن هذا من لوازم الدعاء، وهو من العبادة التي أمر الله بها كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَارْهَبُونِ﴾(٤).

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٢/ ٨٨، ٨٩ (مجلد ١٢).

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ١/ ٦٩ (مجلد ١).

(٣) سورة الشرح: ٨.

(٤) سورة النحل: ٥١.

فمن استغاث بغير الله فهو راغب إليه في حصول مطلوبه، راجٍ له، متوكل عليه، وذلك هو حقيقة العبادة. التي لا تصلح إلا لله، وهو معنى لا إله إلا الله»[١].

ودعاء المخلوق له صورتان:

الأولى: أن يدعوه فيما لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا، أو يسأل مخلوقاً لا يجيب، لأنه إما غائب أو ميت، وهذا شرك أكبر ينافي التوحيد.

الثانية: أن يدعو مخلوقاً بأمر من الأمور التي يقدر عليها بأشياء محسوسة معلومة، وهذا من الإعانة الجائزة.

يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله: ومعلوم أن الدعاء بأنواعه من العبادة، فلا يجوز لأحد من الناس أن يدعو إلا ربه، ولا يستعين ولا يستغيث إلا به. . . وهذا فيما عدا الأمور العادية، والأسباب الحسية التي يقدر عليها المخلوق الحي الحاضر، فإن تلك ليست من العبادة، بل يجوز بالنص والإجماع أن يستعين الإنسان بالإنسان الحي القادر في الأمور العادية التي يقدر عليها ، كأن يستعين به أو يستغيث به في دفع شر ولده، أو خادمه، أو كلبه، وما أشبه ذلك[٢].

---

(١) النبذة الشريفة النفيسة في الرد على القبوريين ٥٩، ٦٠.

(٢) مجموع فتاوى الشيخ ابن باز ١/ ١٧٣، وانظر مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين ٢/ ١٥٩.

مناقشة اعتراض المخالفين على الحكم بكفر من صرف الدعاء لغير الله

يعترض المخالفون على الحكم بكفر من صرف الدعاء لغير الله، ويزعمون أنه لا دليل ينص صراحة على ذلك، وأنه يمكن أن يلحق هذا بالشرك الأصغر، ويقاس على الحلف بغير الله والطيرة.

ولا يخفى ما في هذا الاعتراض من المغالطات الواضحة، والتلبيسات الظاهرة، التي لا تؤثر في الحق، فالحق أبلج يقوم على علم، ولا يزيده الاعتراض إلا قوة ووضوحاً.

أما الباطل، فباعثه الهوى، وأساسه الجهل، وكلما نافح عنه المجادل وحرص على إقامة عوده المائل، قيض الله من يقذف بالحق على الباطل، فيدمغه فإذا هو زاهق.

والجواب من وجوه:

الأول: أن هذا الاعتراض باطل؛ لأن النصوص صريحة وواضحة في كفر من دعا غير الله، وقد أشرنا إلى طرف منها، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[2].

قال الشيخ حمد بن ناصر آل معمر رحمه الله: فيقال لمن أنكر أن يكون دعاء الموتى، والاستغاثة بهم في الشدائد: شركاً أكبر، أخبرنا عن هذا الشرك الذي عظمه الله، وأخبر أنه لا يغفره، أتظن أن الله يحرمه هذا التحريم ولا يبينه لنا؟!

(١) سورة غافر: ٦٠.

(٢) سورة فاطر: ١٣-١٤.

ومعلوم أن الله - سبحانه وتعالى- أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وهدى، ورحمة وبشرى للمسلمين، وقد أخبر في كتابه أنه أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام ديناً، فكيف يجوز أن يترك بيان الشرك الذي هو أعظم ذنب عُصي الله به[(١)]؟!

الوجه الثاني: أنه لو ساغ لأحد أن يصرف الدعاء لغير الله الذي هو من أعظم أنواع العبادة، لقلنا بذلك في سائر العبادات، كالخوف، والرجاء والمحبة، والنذر، والذبح، والتوكل، والسجود، ونحوها.

وهذا واضح البطلان، فإن من سجد لغير الله كافر مشرك بالإجماع، وكذا من ذبح لغير الله، أو تقرب بشيء من أنواع العبادة لغير الله، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[(٢)].

ولا يمكن لأحد من المسلمين أن يجهل ذلك، اللهم إلا أن يكون معانداً مكابراً، أو مبتدعاً في الدين، محدثاً فيه ما ليس منه.

الوجه الثالث: قد وردت النصوص القرآنية الكثيرة في النهي عن دعاء غير الله أكثر مما ورد في النهي عن الذبح لغير الله، والسجود لغير الله.

فإذا كان من سجد لقبر نبي، أو ملك، أو عبد صالح، لا يُشك في كفره، وكذلك لو ذبح له القربان لم يشك أحد في كفره؛ لأنه أشرك في عبادة الله غيره، فيقال: السجود عبادة، وذبح القربان عبادة، والدعاء عبادة، فما الفارق بين السجود، والذبح، والدعاء، إذ الكل عبادة[(٣)]؟

والمخالف ليس معه دليل على التفريق بين عبادتين متماثلتين، وإنما هو تحكم لا دليل معه، فثبت أن الحكم بشرك من صرف الدعاء لغير الله هو الحق الذي قام عليه الدليل، والقول بخلافه باطل.

الوجه الرابع: قد ذكر العلماء أحكام المرتد عن دين الله، وبينوا أنواع الردة، وأنها كثيرة، وكل نوع منها يكفّر به الرجل، ويحل به دمه وماله.

---

(١) النبذة الشريفة النفيسة في الرد على القبوريين ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣.

(٣) النبذة الشريفة ٣٦.

قال الشيخ حمد بن ناصر رحمه الله: ولم يرد في واحد منها ما ورد في الدعاء، بل لا نعلم نوعاً من أنواع الكفر، والردة ورد فيه من النصوص مثل ما ورد في دعاء غير الله بالنهي عنه، والتحذير من فعله، والوعيد عليه.

ولا يشتبه هذا إلا على من لا يعرف حقيقة ما بعث الله به محمداً ﷺ من التوحيد، ولم يعرف حقيقة شرك المشركين الذين كفّرهم النبي ﷺ، وأحل دماءهم وأموالهم(١).

فلهذا كان الحكم بردة من صرف الدعاء لغير الله أولى من غيره؛ لأن ذلك أعظم أنواع الردة، فقد ورد في ذلك من النصوص أكثر مما ورد في غيره، فكيف يسوغ بعد هذا أن يجعل من الشرك الأصغر؟!

أما تشبيه الدعاء لغير الله بالحلف، أو بالطيرة، فهذه مغالطة أخرى ومحاولة لجعل الشيء نظيراً لما ليس مثله، فإن الفرق بين الأمرين واضح، والأمر يحتاج إلى تفصيل.

فالحلف بغير الله فيه نوع من التعظيم لا يصلح إلا لله - عز وجل- لكن لما كان الحالف بغير الله لا يعتقد أن عظمة المحلوف به كعظمة الله لم يكن الشرك شركاً أكبر، بل كان شركاً أصغر، كما ذكر العلماء(٢).

أما إذا اعتقد أن غير الله أعظم من الله، أو كان ظاهر حاله التعظيم والإجلال والخوف كما يعتقد غلاة الصوفية في أوليائهم، فهم يرون أن الولي أسرع انتقاماً من الله تعالى، بل لا يقبل بعضهم الحلف بالله، وإنما يطلب الحلف بالولي، فإن هذا من الشرك الأكبر، والعياذ بالله(٣).

فهذه حالتان للحالف بغير الله:

الأولى: ألا يعتقد بأن المحلوف به أعظم من الله، أو له من العظمة مثل ما لله جل وعلا.

---

(١) المرجع السابق ٣٧، ٣٨، وانظر تطهير الاعتقاد للصنعاني ٦٢، ٦٣.

(٢) انظر مجموع فتاوى الشيخ محمد بن عثيمين ٢/ ٢١٥.

(٣) انظر تطهير الاعتقاد للصنعاني ٦٨، ٦٩.

الثانية: أن يعتقد أن المحلوف به أعظم، وأن له من العظمة ما يوجب الخوف منه، والرضا به.

ففي الحالة الأولى للحلف لا مشابهة بينه وبين صرف الدعاء لغير الله؛ لأن السائل لغير الله يعتقد أن المسؤول يغيثه، ويكشف ضره ويفرج كربه، والحالف بغير الله عابد لله، معظم لله؛ لكنه أخطأ في تعظيمه غير الله، فإن هذا لا يصلح إلا لله.

وأي مشابهة بين من وحد الله، وعبده، ولم يشرك معه أحداً من خلقه، وأنزل حاجاته كلها بالله، واستغاث به في تفريج كرباته، وإغاثة لهفاته، لكنه حلف بغير الله يميناً مجردة لم يقصد بها تعظيمه على ربه، ولم يسأله ولم يستغث به.

وبين من استغاث بغير الله، وسأله جلب الفوائد، وكشف الشدائد، فإن هذا صرف مُخَّ العبادة الذي هو لبها، وخالصها لغير الله، وأشرك مع الله غيره في أجلِّ العبادات، وأفضل القربات التي أمر الله بها في غير موضع من كتابه، وأخبر النبي ﷺ أنه هو العبادة[(١)].

أما إذا وصل الأمر بالحلف بغير الله إلى الحالة الثانية، وهي اعتقاده أن المحلوف به أعظم، أو أن له من العظمة مثل ما لله، فإن هذا يلحق بمن دعا غير الله وسأله كشف كرباته، وإجابة دعواته، فالكل قد أشرك بالله عز وجل.

وعلى هذا؛ فإن تشبيه صرف الدعاء لغير الله بالحلف بغير الله مغالطة ومحاولة لقلب الحقائق، حتى يتساهل الناس في أعظم العبادات، كما هو الواقع اليوم في بلاد عديدة، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

وكذلك تشبيه الدعاء لغير الله بالطيرة، فيه مغالطة وتلبيس؛ لأن من الطيرة ما يقع حتى للموحدين، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطيرَةُ شِرك، الطيرةُ شرك، وما منّا إلا، ولكن الله يُذهبه بالتوكل»[(٢)].

---

(١) النبذة الشريفة ٣٧، ٣٨، وتطهير الاعتقاد ٦٣.

(٢) رواه أبو داود في الطب، باب في الطيرة ٤/ ٢٣٠ (٣٩١٠)، وأخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في الطيرة ٤/ ١٦٠ (١٦١٤)، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه في الطب، باب من=

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردَّته الطيرةُ عن حاجته فقد أشرك» قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: تقول: «اللهم لا خيرَ إلا خيرُك ولا طير إلا طيرُك، ولا إله غيرُك»(١).

والطيرة هي التشاؤم بالطيور، والأسماء، والألفاظ، والبقاع والأشخاص، وغيرها.

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: وأما الطيرة فإنه إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا، فيسمع، أو يرى ما يكره أثر في قلبه أحد أمرين، أحدهما أعظم من الآخر.

أحدهما: أن يستجيب لذلك الداعي، فيترك ما كان عازماً على فعله، أو بالعكس فيتطير بذلك.. فلا شك أنه على هذا الوجه أثّر في إيمانه، وأخلَّ بتوحيده وتوكله.. وهذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله، ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الثاني: أن لا يستجيب لذلك الداعي، ولكنه يؤثر في قلبه حزناً وهماً وغماً، فهذا، وإن كان دون الأول، لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه، وموهن لتوكله، وربما أصابه مكروه، فظن أنه من ذلك الأمر فقوي تطيُّره، وربما تدرج به إلى الأمر الأول(٢).

= كان يعجبه الفأل ٢/ ١١٧٠ (٣٥٣٨)، ورواه أحمد في المسند ١/ ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠.

قال الخطابي في معالم السنن قوله: «وما منا إلا، معناه إلا من يعتريه التطير، ويسبق إلى قلبه الكراهة فيه، فحذف اختصاراً للكلام، واعتماداً على فهم السامع، وقال محمد بن إسماعيل: كان سليمان بن حرب ينكر هذا ويقول: هذا الحرف ليس من قول رسول الله ﷺ، وكأنه قول ابن مسعود رضي الله عنه. انظر هامش السنن ٤/ ٢٣٠.

ونقل الشيخ الألباني قول الشارح المناوي «لكن تعقبه ابن القطان بأن كل كلام مسوق في سياق، لا يقبل دعوى درجه إلا بحجة» ثم قال: «ولا حجة هنا في الادراج» فالحديث صحيح بكامله». انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد الأول، حديث رقم (٤٣٠).

(١) رواه أحمد في المسند ٢/ ٢٢٠ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) القول السديد «ضمن المجموعة الكاملة» ٣/ ٣١.

والواضح من الحالة السابقة أنه لم يبلغ الشرك الذي يخرجه من الملة، ولكنه على خطر، ولهذا يقول ابن القيم: التطير هو التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره، وامتنع بها عما عزم عليه، فقد قرع باب الشرك، بل وَلَجَه، وبرئ من التوكل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله، والتطير بما يراه أو يسمعه، وذلك قاطع له عن مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

وعلى كل حال: فإذا كان هذا حال الطيرة، فأين الجامع بينها وبين الشرك الأكبر في الاعتقاد؟ وهل هذه الحال تشبه حال من صرف الدعاء لغير الله مستغيثاً به ومستعيناً به في كشف كربة، أو جلب نفع، أو دفع مضرة؟

لكن من الطيرة ما يبلغ بصاحبها الشرك الأكبر المخرج من الملة وذلك: «إن المتطير إذا زجر الطير، أو تطير بما يراه من علم النجوم وغيره، أو بما يسمعه من الكلام يعتقد أن ذلك من علم الغيب، وأن الطير تخبره عما هو صائر إليه في المستقبل، أو أن الأفلاك تدبر أمر الخلائق، فليس هذا من الشرك الأصغر، بل هذا من الشرك الأكبر، نظير شرك عُباد الكواكب»[2].

إذن فالأمر فيه تفصيل، والمقصود أن تشبيه دعاء غير الله بالطيرة فيه إجمال لا يصح، ومحاولة لإخفاء الحقائق، والله أعلم.

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٤٦.

(٢) النبذة الشريفة ٦٩، ٧٠.

صور من الشرك في الدعاء

تمهيد:

من المعلوم أن العبادات ترجع في غالبيتها إلى حفظ الدين، ولذلك فإن الأصل فيها بالنسبة للمكلف، التعبد دون الالتفات إلى المعاني كما ذكر ذلك العلماء رحمهم الله(١). ومقتضى ذلك الوقوف مع النص، والتسليم التام لما جاء به.

والدعاء أحد العبادات الجليلة كما أسلفنا، ولهذا فإنه لا يجوز لأحد أن يتجاوز في هذه العبادة وما يتعلق بها، لا في القول، ولا في العمل، كما هو حال من يعتمد على أقوال باطلة، وحكايات مدسوسة، ونصوص غير صحيحة، أو يحاول تسمية الأشياء بغير اسمها، ونحو ذلك.

فمن يعبد الله بالدعاء، استغاثة، أو استعانة، أو استعاذة، أو توسلاً، لا بد أن يلحظ في جميع الأحوال مطابقة أمر الشرع حتى تصح له عبادته وإلا ردت عليه، وخسر الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾(٢).

وقال ﷺ: «من أحدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»(٣).

---

(١) انظر كتاب الأخ الشيخ/ سعيد بن ناصر الغامدي حفظه الله، حقيقة البدعة وأحكامها ٢/ ١٠٤ وقد أحال على مواضع من كتاب الموافقات، والاعتصام للشاطبي رحمه الله.

(٢) سورة الحج: ١١-١٣.

(٣) رواه البخاري معلقاً مجزوماً به في البيوع، باب النجش، فتح الباري ٤/ ٣٥٥، ووصله في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، فتح الباري ٥/ ٣٠١ (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ٣/ ١٣٤٣ (١٧١٨)، وأبو داود في السنة، باب في لزوم السنة ٥/ ١٢ (٤٦٠٦) وابن ماجه في المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ ١/ ٧ (١٤)، وأحمد في المسند ٦/ ٢٧٠.

ولقد تعلق أناس من الجهال بالقبور، واستغاثوا بمن فيها من الأموات، فكانت الفتنة عظيمة، صدَّق عليهم إبليس فيها ظنه فاتبعوه، ولبَّس عليهم فأطاعوه، فعاد الشرك بالله الذي كان من عمل أهل الجاهلية في صورة جديدة وبأساليب متطورة، تحت شعار التوسل بالصالحين، وطلب المغفرة عن طريقهم.

فهم- كما يقولون- لا يرون في أنفسهم الأهلية لمناشدة ربهم، وسؤاله مباشرة، ولو فعلوا ذلك ما استقام لهم أمر، ولا صلح لهم حال، ولا استجيب لهم دعاء، هكذا خيل إليهم، ولبّس الشيطان عليهم!!

وهكذا زين لهم قبيح الأعمال فرأوها حسنة جميلة، وهي مخالفة لهديٍ محمد ﷺ، ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله في شأن ما يفعله أولئك في زمانه، وقد فُعل مثله في زماننا وزيادة؛ يقول رحمه الله: «ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور، وما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم، رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً»(١).

ومن عظيم الفتنة بالقبور أن الحوائج تقضى بالدعاء عندها أحياناً، فيزداد الأمر سوءاً وبلاءاً، وتحجب القلوب ظلمات الأوهام فيطبع عليها، وتلف الأبصار والأسماع غشاوة الجهل، والتعصب، والتقليد، فلا ترى الحق ولا تسمع نداءات المخلصين الناصحين.

إن هي إلا فتنة يضل بها الشيطان أصحابها، وإلا فإن الأمر كما يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: «إن المشركين وأهل الكتاب يقضى كثير من حوائجهم بالدعاء عند الأصنام، وعند تماثيل القديسين والأماكن التي يعظمونها، وتعظيمها حرام في زمن الإسلام.

فهل يقول مسلم أن مثل ذلك سوَّغ لهم هذا الفعل المحرم بإجماع المسلمين؟! وما تجد عند أهل الأهواء والبدع من الأسباب التي بها ابتدعوا ما ابتدعوه إلا تجد عند المشركين وأهل الكتاب من جنس تلك الأسباب ما أوقعهم في كفرهم وأشد، ومن تدبر هذا وجده في عامة الأمور، فإن البدع مشتقة من الكفر»(٢).

وقد تنوعت صور الشرك في الدعاء إلا أنه يمكن إجمالها فيما يلي:

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/ ١٩٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٧٢.

١- الاستغاثة بغير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله.

٢- الاستعانة بغير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله.

٣- الاستعاذة بغير الله.

٤- التوسل الممنوع.

وكل واحد من هذه الأمور يحتاج إلى تفصيل وبيان.

أولاً: الاستغاثة بغير الله:

الاستغاثة لغة:

قال ابن فارس: «الغين والواو والثاء كلمة واحدة، وهي الغوث من الإغاثة، وهي الإعانة، والنصرة عند الشدة»(١).

وجاء في «القاموس المحيط»: غوّث تغويثاً: قال: واغوثاه والاسم الغوث، والغواث بالضم، وفتحه شاذ، واستغاثني فأغثته إغاثة، أو مغوثة، والاسم الغِياث بالكسر . . وما أغثتَ به المضطرَّ من طعام أو نجدة(٢).

وقال ابن الأثير في «النهاية»: الغَواث بالفتح كالغِياث بالكسر من الإغاثة: الإعانة، وقد أغاثه يغيثه، وقد رُوي بالضم والكسر، وهما أكثر ما يجيء في الأصوات كالنباح والنداء(٣).

واصطلاحاً:

الاستغاثة بالله: «طلب الغوث وهو إزالة الشدة، كالاستنصار طلب النصر»(٤). أو «هي الدعاء لله في حالة الشدائد»(٥).

---

(١) معجم المقاييس، باب الغين والواو وما يثلثهما ٨١٧ط دار الفكر.

(٢) القاموس المحيط، فصل الغين، باب الثاء ١٥٩ط دار الفكر.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٣٩٢.

(٤) مجموع الفتاوى ١/ ١٠٣.

(٥) القول السديد للشيخ ابن سعدي٤٨، وتيسير العزيز الحميد ٢١٤، ومجموع فتاوى ابن عثيمين =

والاستغاثة إنما تكون في الشدائد، فلا تكون إلا من المكروب، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾(٢).

وأما الدعاء فإنه أعم من الاستغاثة، فهو في جميع الأحوال، وكلا الأمرين يتعين إخلاصه لله عز وجل، فهو المجيب لدعاء السائلين، المفرج لكربات المستغيثين.

حكم الاستغاثة بغير الله:

الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك يخرج صاحبه من الملة، وهو أيضاً سفهٌ في العقل إذ كيف يغيب عن المستغيث فقر المخلوقات جميعها إلى الخالق، وعجزها، ثم هو يستغيث بشيء منها؟!

يقول الإمام ابن سعدي رحمه الله: ومن دعا غيره من نبي، أو ملك، أو ولي أو غيرهم، أو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر.

وكما أنه خرج من الدين فقد تجرد أيضاً من العقل، فإن أحداً من الخلق ليس عنده من النفع والدفع مثقال ذرة، لا عن نفسه، ولا عن غيره، بل الكل فقراء إلى الله في كل شؤونهم(٣).

وسئل الإمام ابن تيمية رحمه الله عن حكم الاستغاثة بغير الله فقال: لم يقل أحد من علماء المسلمين أنه يستغاث بشيء من المخلوقات، في كل ما يستغاث فيه بالله تعالى، لا بنبي، ولا بملك، ولا بصالح، ولا غير ذلك، بل هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز إطلاقه(٤).

وقال في موضع آخر: وأما الرجل إذا أصابته نائبة، أو خاف شيئاً فاستغاث بشيخه يطلب تثبيت قلبه من ذلك الواقع، فهذا من الشرك، وهو من جنس دين النصارى، فإن

= ٦/ ٦٠.

(١) سورة القصص: ١٦.

(٢) سورة الأنفال: ٩.

(٣) القول السديد ٤٨.

(٤) مجموع الفتاوى ١/ ١٠٣.

الله هو الذي يصيب بالرحمة، ويكشف الضر، قال تعالى: «﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[(1)]»[(2)].

وقد شرع النبي ﷺ لأمته في حال البأساء أن يقولوا كما يقول إذا حزبه أمر: «يا حَيُّ يا قَيُّومُ برحمتك أستغيثُ»[(3)].

أما الأمور العادية التي يُطلب فيها الحي الحاضر، والأسباب الحسية المقدورة، فإنه يجوز للناس أن يستغيث بعضهم فيها ببعض، ومن هذا الباب قول الله عز وجل في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[(4)].

ومن ذلك استغاثة الإنسان بأصحابه في الجهاد والحرب ونحو ذلك[(5)].

وبهذا يتبين أن الاستغاثة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: استغاثة واجبة: وهي الاستغاثة بالله عز وجل وتعد من أفضل الأعمال وأكملها، وهي دأب الرسل عليهم السلام وأتباعهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[(6)].

روى ابن جرير رحمه الله بسنده عن سماك الحنفي قال: سمعت ابن عباس يقول: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ في غزوة بدر نظر إلى المشركين في ألف رجل، وأصحابه في ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً، فدخل العريش يناشد ربه عز وجل رافعاً يديه مستقبل القبلة يقول: «اللهم أنجِزْ لي ما وعَدْتَني، اللهم إن تُهلك هذه

(١) سورة يونس: ١٠٧.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٨٧.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب (٩٢) ٥/ ٥٣٩ (٣٥٢٤) وقال: حديث غريب، ورواه الحاكم في كتاب الدعاء، المستدرك ١/ ٥٠٩، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي بقوله: عبدالرحمن بن إسحاق لم يسمع من أبيه، وعبدالرحمن ومن بعده ليسوا بحجة.

(٤) سورة القصص: ١٥.

(٥) انظر مجموع فتاوى الشيخ ابن باز حفظه الله ١/ ١٧٤.

(٦) سورة الأنفال: ٩.

العصابةُ من أهلِ الإسلام لا تُعبد في الأرضِ»[١].

وما زال يستغيث بربه رافعاً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذ أبو بكر رضي الله عنه رداءَه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله هذه الآية.

الثاني: استغاثة جائزة:

وهي الاستغاثة بالأحياء الحاضرين القادرين على إغاثته، وهي كالاستعانة بهم، قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[٢].

الثالث: استغاثة محرمة:

وهي الاستغاثة الشركية، التي يُستغاث فيها بالأموات، أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين على الإغاثة، فهذه شرك؛ لأنه إنما يفعل هذا من يعتقد أن لهؤلاء المستغاث بهم تصرفاً خفياً في الكون، فيجعل لهم حظاً من الربوبية، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[٣].

والذين يدعون عند القبور، ويستغيثون خاشعين متذللين، هم غالباً من القسم الثالث؛ لأنهم يستغيثون بصاحب القبر، ويقول الواحد منهم: يا سيدي فلان أغثني، وأنا مستجيرك، ونحو ذلك، وهذا هو الشرك بالله عز وجل[٤].

يقول ابن تيمية رحمه الله: والمستغيث بالمخلوقات قد يقضي الشيطان حاجته أو بعضها، وقد يتمثل له في صورة الذي استغاث به، فيظن أن ذلك كرامة لمن استغاث

(١) انظر تفسير ابن جرير ٩/ ١٨٩ (مجلد ٦)، ودعاء النبي ﷺ يوم بدر رواه الإمام البخاري في الجهاد، باب ما قيل في درع النبي ﷺ، فتح الباري ٦/ ٩٩ (٢٩١٥)، ومسلم في الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم ٣/ ١٣٨٣ (١٧٦٣)، والترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنفال ٥/ ٢٦٩ (٣٠٨١).

(٢) سورة القصص: ١٥.

(٣) سورة النمل: ٦٢.

(٤) انظر في أقسام الاستغاثة مجموع فتاوى الشيخ ابن عثمين ٦/ ٦٠، ٦١. وقد ذكر قسماً رابعاً وهو الاستغاثة بحي غير قادر من غير أن يعتقد له قوة خفية مثل أن يستغيث الغريق برجل مشلول، فهذا لغو وسخرية.

به، وإنما هو شيطان أضله وأغواه لما أشرك بالله، كما يتكلم الشيطان في الأصنام وفي المصروع وغير ذلك(١).

وقد بين رحمه الله أن مثل هذه الأحوال واقعة في زمانه بكثرة، حتى وصل الأمر إلى شخصه رحمه الله.

فيقول: وأعرف من ذلك ما يطول وصفه في قوم استغاثوا بي أو بغيري، وذكروا أنه أُتي بشخص على صورتي، أو صورة غيري، وقضى حوائجهم، فظنوا أن ذلك من بركة الاستغاثة بي أو بغيري.

وإنما هو شيطان أضلهم وأغواهم، وهذا أصل عبادة الأصنام، واتخاذ الشركاء مع الله تعالى في الصدر الأول من القرون الماضية، كما ثبت ذلك، فهذا شرك نعوذ بالله من ذلك(٢).

ومن أولئك المستغيثين من يطلب من ذلك الرجل الصالح أن يدعو له، وهؤلاء يتحرون الدعاء عند القبور، ويزعمون أن الدعاء هناك مستجاب، ولا يخفى ما في هذا من المخالفة.

وذلك أنه إذا اعتقد أن صاحب القبر يستطيع أن يدعو له، فقد خالف الشرع والعقل والحس، فصاحب القبر ميت لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع ضراً، فضلاً عن غيره.

وإن اعتقد أن تلك الأماكن مباركة، والدعاء عندها أجوب منه في غيره، فهذا أيضاً لا دليل معه على ذلك، لا من القرآن ولا من السنة، ولا من أقوال سلف الأمة.

بل هو ذريعة إلى الوقوع في الشرك، وقد نهى النبي ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وعن اتخاذها مساجد، وقال: «لعن اللهُ اليهودَ والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ»(٣) يحذر ما فعلوا.

---

(١) مجموعة الرسائل ١/ ٢٩.

(٢) مجموعة الرسائل ١/ ٢٩.

(٣) رواه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ٨/ ١٤٠ (٤٤٤١)، ومسلم في المساجد، ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ١/ ٣٧٧ح (٥٣١) من حديث عبيدالله بن عبدالله عن عائشة وابن عباس مرفوعاً.

وفي مقارنة يعقدها ابن القيم رحمه الله بين الهدي النبوي الشريف، وأفعال هؤلاء، يبين الفرق الشاسع بين الحالين فيقول: «نهى النبي ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها، ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله تعالى، ونهى عن إيقاد السّرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها، ونهى أن تتخذ عيداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر، وأمر بتسويتها، وهؤلاء يبالغون في مخالفة ذلك ويرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب»(١).

ثم ذكر من أحوالهم تجصيص القبور، والبناء عليها، والكتابة في ألواح كبيرة جداً على القبر، وكأنه يتحدث عن بعض ما يجري في زماننا، فقد زادوا كما شاهدنا فبسطوا الفرش الوثيرة حولها، وزينوا الطريق إليها من مسافة بعيدة بالرخام، ووضعوا الزينات والورود ونحو ذلك.

ومن الصور التعبدية التي تجري لهم عند القبور وهم يستغيثون بمن فيها: الصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها، والاستعانة بأصحابها وسؤالهم النصر، والرزق، والعافية، وقضاء الديون وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلب التي كان عبّاد الأوثان يسألونها أوثانهم.

وقد حمى الله بلاد الحرمين الشريفين في زماننا بفضل الله جل وعلا، ثم بقيام دعوة الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وما تلا ذلك من جهود متواصلة قام بها علماؤنا بعده لتبصير الناس، وتوجيههم ، فحموا بتوفيق الله حمى التوحيد، ونشروا العلم الصحيح، ووضحوا ما قد يشكل على الناس من مسائل الاعتقاد.

ولكن المؤسف أن بلاداً كثيرة اليوم في العالم الإسلامي، يعيش بعض أهلها في انحرافات عقدية بسبب الجهل والتعصب، والتقليد للآباء، والهوى الذي طمس البصائر، وأعمى القلوب عن الحق، فنجد من جهال المسلمين من تعلق بالقبور، ونادى بأعلى صوته خاشعاً عندها، متذللاً، وجلاً، سائلاً الموتى كشف الكربة، وقضاء الحاجة.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/ ١٩٦.

فمنهم من ينادي السيد البدوي، وآخر ينادي عبد القادر الجيلاني، ومنهم من يقول: يا علي، أو: يا فاطمة، أو ينادي السيدة زينب، أو ابن عربي، أو العيدروس، أو ابن علوان، أو غير هؤلاء كثير!!

وقد رأيت بعيني، كما رأى غيري صوراً من ذلك في بعض البلاد الإسلامية، ففي سفح جبل في مدينة أنقرة في تركيا، أقبل مجموعة من النساء، ثم دخلن مسجد الحاج أحمد بايرام، ووقفن طويلاً في داخل المسجد حول ما سموه بمشهد الحاج أحمد.

وترجم لي أحد الأخوة ما يدعين به، فإذا هن يسألن الحاج أحمد أن يغيثهن بأزواج، فإنهن أيامى، فعجبت كيف وصل الجهل بهؤلاء إلى هذه الحال المحزنة؟!

وفي طرف مدينة إسلام أباد نفاجأ بثلاث قُباب متفاوتة في الحجم بحسب قدر الولي الذي فيها ومكانته عندهم، وترى الناس من حولها جماعات كثيرة وكأنما هم في مشاعر، قد أقبلوا خاشعين وَجِلين ينشدون حاجاتهم ويستغيثون بهؤلاء الأولياء بزعمهم، ليكشفوا كرباتهم، ويقضوا حاجاتهم.

وصور أخرى كثيرة في بلاد أخرى قد خيم الجهل والتقليد الأعمى على أصحابها، ومع الأسف فهذه الصور ليست وليدة عصرنا الحاضر فحسب، بل هي من القدم.

يحدثنا الإمام ابن تيمية رحمه الله فيقول: وقد زين الشيطان لكثير من الناس سوء عملهم، واستنزلهم عن إخلاص الدين لله، إلى أنواع من الشرك، فيقصدون بالسفر والزيارة والرجاء لغير الله، والرغبة إليه، ويشدون الرحال إما إلى قبر لنبي، أو صاحب، أو صالح، أو من يُظن أنه نبي أو صاحب أو صالح، داعين له راغبين إليه . . .

قال رحمه الله: ومن شيوخهم من يحج، فإذا دخل المدينة رجع وظن أن هذا أبلغ، ومن جهالهم من يتوهم أن زيارة القبر واجبة.

ومنهم من يسأل المقبور الميت كما يسأل الحي الذي لا يموت، يقول: يا سيدي فلان اغفر لي، وارحمني، وتب عليّ، أو يقول: اقض عني الدين، وانصرني على فلان، وأنا في حسبك وجوارك.

وقد ينذرون أولادهم للمقبور، ويسيِّبون له السوائب. . ومن السدنة من يضل الجهال، فيقول: أنا أذكر حاجتك لصاحب الضريح، وهو يذكرها للنبي، والنبي يذكرها لله . .

وما أكثر من يرى من هؤلاء أن صلاته عند هذا القبر المضاف إلى بعض المعظمين، مع أنه كذب في نفس الأمر، أعظم من صلاته في المساجد بيوت الله.

فيزدحمون للصلاة في مواضع الإشراك المبتدعة، التي نهى النبي ﷺ عن اتخاذها مساجد، وإن كانت على قبور الأنبياء..

ومن أكابرهم من يقول: الكعبة في الصلاة قبلة العامة، والصلاة إلى قبر الشيخ فلان مع استدبار الكعبة قبلة الخاصة، وهذا وأمثاله من الكفر الصريح باتفاق علماء المسلمين(١).

وهذه الصور يمكن إجمال أسبابها فيما يلي:

١- الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله ﷺ من التوحيد وقطع علائق الشرك بالله عز وجل.

٢- التقليد والتعصب، فكثير من أولئك الجهلة يجعلون العادات عبادات. وقد نشأوا في بيئات جاهلة، يقلد فيها بعضهم بعضاً، والناس كما قيل كأسراب القطا مجبولون على تقليد بعضهم البعض، ومن ثم يتوارثون هذا العمل، ويتعصبون لما هم عليه.

٣- التغرير والتلبيس على الجهال، إما بأحاديث باطلة، لا أصل لها، بل هي مكذوبة باتفاق أهل العلم، وإنما وضعها الوضّاعون، وعمل بها ودعا إليها المنتفعون بذلك من أصحاب الجاه والشهرة الذين يهمهم الكسب والمصالح.

وإما عن طريق الحكايات المختلفة التي حكيت للجهال، بأن فلاناً استغاث بفلان لقضاء حاجته، أو طلب رزقه، أو كشف كربة فأغاثه.

وجميع ما سبق من الاستغاثة بغير الله هو من تلبيس إبليس على الأتباع والمتبوعين الذي يتدرج بالناس في أعمال تبدأ في أصلها يسيرة، ثم يصل بهم من خلالها إلى الشرك بالله والعياذ بالله.

ولما ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله سبب عبادة الأصنام التي صورها قوم نوح على صور الصالحين: بين أن الشيطان ما زال يوحي إلى عبّاد القبور ويلقي إليهم أن البناء

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم ٢/ ٨٤١، ٨٤٢.

والعكوف من محبة أهل القبور، من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء به والإقسام به على الله تعالى، فإن شأن الله أعظم من أن يُقسم عليه، أو يُسأل بأحد من خلقه.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه، وعبادته وسؤاله الشفاعة، واتخاذ قبره وثناً تُعلَّق عليه القناديل والستور، ويطاف به، ويُستلم ويُقبّل ويحج إليه، ويذبح عنده، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم(١).

والحق أن هذه المسالك هي مسالك المشركين بنفسها حَذْوَ القَذَّةِ بالقَذَّة، أن ذلك شرك بالله، وإن سمي بأسماء أخرى، والتمس أصحابه، أو المتساهلون بشأنه عذراً، ولفقوا حججاً أوهى من بيت العنكبوت، سنعرض لها ثم نناقشها فيما بعد إن شاء الله.

لكن المقصود هنا عرض هذه الصور، وبيان ما يحصل للجهال اليوم من الاستعانة بغير الله، وهو نفس ما حصل لجهال الأمس.

يقول الإمام ابن عقيل رحمه الله: لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم.

قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور، وتقبيلها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا، وأخذ تربتها تبركاً، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخِرَق على الشجر اقتداء بمن عبَد اللات والعزى(٢).

ويحاول أولئك الذين يفعلون هذه الأعمال تبرير ما هم عليه، بأن القصد من ذلك التبرك بالأولياء، والتوسل بهم للوصول إلى مرضاة الرب جل وعلا، مع علمهم بأنهم لا يستجيبون لهم، فإنهم غير قادرين على ذلك.

---

(١) انظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/ ١٩٤-٢١٣ بتصرف.

(٢) نقل هذا عنه ابن القيم في الإغاثة ١/ ١٩٥، والشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب في الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة ضمن الجامع الفريد ٢٩٢.

وقد وضَّح الإمام ابن تيمية رحمه الله أن ما يعمل عند القبور مراتب:

الأول: «أبعدها عن الشرع: أن يسأل الميت حاجته، أو يستغيث به، وهو من جنس عبادة الأصنام.

الثاني: أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب، أو أفضل من الدعاء في المساجد، فيقصد زيارته لذلك، أو للصلاة عنده، أو لأجل طلب حوائجه منه، فهذا أيضاً من المنكرات باتفاق الأئمة.

الثالث: «أن يسأل صاحب القبر أن يدعو الله له، وهذا بدعة باتفاق المسلمين»(١).

وإذا نظرنا في الصور السابقة وجدنا أنها لا تخرج عن الشرك أو الابتداع، والغالب أنها من المرتبة الأولى؛ لأن الناس مولعون بقضاء الحوائج، وفي غمرة ذلك ومع الأسباب التي أشرنا إليها سابقاً لا يستغرب ولا يستبعد أن ينسب قضاء حاجته إلى صاحب القبر.

أما أن يظن أن الدعاء مستجاب عند القبر، أو أفضل من الدعاء في المساجد، وكذا من يسأل صاحب القبر أن يدعو له، فلا يخفى ما في هذا من السفه، والبلاهة، إضافة إلى المخالفة الشرعية الواضحة.

وإن مجرد النداء عند الشدائد ولو لم يذهب إلى القبر مخالفة واضحة، وقد يكون شركاً مخرجاً من الملة.

سئل الشيخ ابن عثيمين حفظه الله عن حكم من يقول: يا علي، يا محمد، يا جيلاني، عند الشدائد فأجاب: «إذا كان يريد دعاء هؤلاء والاستغاثة بهم فهو مشرك شركاً مخرجاً من الملة، فعليه أن يتوب إلى الله عز وجل وأن يدعو الله وحده كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾(٢)، وهو مع كونه مشركاً سفيه مضيع لنفسه قال تعالى: ﴿وَمَن

---

(١) هذا مذكور في الرد على البكري وهو في المجموع ١/ ٢٩. وقد جعله الشيخ ابن سعدي رحمه الله أصلاً من الأصول التي نقلها عن الإمام ابن تيمية في كتابه النفيس طريق الوصول ١٣٧.

(٢) سورة النمل: ٦٢.

يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[١] وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾[٢]»[٣].

ولا يخفى أن المستغيث بالمخلوق قد جمع أنواع الظلم الثلاثة التي ذكرها الإمام ابن تيمية، وأشرت إليها عند الحديث عن فوائد الدعاء:

- مفسدة الافتقار إلى غير الله، وهو نوع من الشرك.

- ومفسدة إيذاء المسؤول، وهذا نوع من ظلم المخلوقين.

- ومفسدة الذل لغير الله، وهذا ظلم للنفس.

فالسائل المستغيث بغير الله ظالم لنفسه ولغيره ولربه جل وعلا، فنسأل الله السلامة من الزيغ والضلال.

ثانياً: الاستعانة بغير الله.

الاستعانة لغة:

قال في «القاموس المحيط»: «العون: الظهير للواحد، والجمع والمؤنث ويُكَسَّر أعواناً، والعَوِين: اسم للجمع، واستعنته، وبه فأعانني وعَوَّنَني: والاسم العَوْن، والمَعَانة، والمَعُونة، والمَعُون»[٤].

واصطلاحاً:

طلب العون من الله عز وجل في جميع الأمور.

قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ «وإياك ربنا نستعين على عبادتنا إياك وطاعتنا لك، وفي أمورنا كلها، لا أحد سواك، إذا كان من يكفر بك يستعين في أموره معبوده الذي يعبده من الأوثان دونك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة»[٥].

(١) سورة البقرة: ١٣٠.
(٢) سورة الأحقاف: ٥.
(٣) مجموع فتاوى ابن عثيمين ٢/ ١٦٣.
(٤) القاموس المحيط، فصل العين، باب النون ١٠٩٧ ط دار الفكر الجديدة.
(٥) تفسير ابن جرير الطبري ١/ ٦٩ (مجلد ١).

حكم الاستعانة بغير الله :

إن الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك ، لأنه إنما يقع مثل هذا من شخص يعتقد أن للمستعان به تصرفاً خفياً في الكون وقدرة على قضاء الحوائج ، ودفع المضرات .

ولما ذكر الإمام ابن تيمية الاستغاثة ، والاستنصار والاستعانة قال : «والمخلوق يطلب منه من هذه الأمور ما يقدر عليه .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ ﴾[١] ، وكما قال الله تعالى : ﴿ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ ﴾[٢] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ ﴾[٣] ، وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يطلب إلا من الله»[٤] .

وتنقسم الاستعانة إلى ثلاثة أقسام :

الأول: استعانة واجبة: وهي الاستعانة بالله جل وعلا ، وتتضمن الثقة بالله ، والاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه ، وفي هذا كمال الذل والانقياد من العبد للمولى جل وعلا ، ومن صرف هذا النوع لغير الله فقد أشرك بالله شركاً مخرجاً من الملة ، ودليلها قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[٥] .

قال العلماء : «وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل ، إذ العبادة غاية العباد التي خُلقوا لها ، والاستعانة وسيلة إليها»[٦] .

«وتقديم المعبود ، والمستعان ، على الفعلين فيه أدب من العباد مع الله بتقديم اسمه على فعلهم ، وفيه الاهتمام وشدة العناية به ، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصر ، فهو في قوة : لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك ، والحاكم في ذلك ذوق اللغة العربية والفقه فيها»[٧] .

---

(١) سورة الأنفال : ٧٢ .

(٢) سورة القصص : ١٥ .

(٣) سورة المائدة : ٢ .

(٤) مجموع الفتاوى ١/ ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٥) سورة الفاتحة : ٥ .

(٦) تهذيب المدارج ٦٤ .

(٧) انظر تهذيب المدارج بتصرف ٦٤ ، وانظر مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين ٦/ ٥٨ .

يقول ابن رجب رحمه الله: «وأما الاستعانة بالله -عز وجل- دون غيره من الخلق، فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

فإن المعنى: لا تحوُّل للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وهي من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه»(١).

الثاني: استعانة جائزة: وهي الاستعانة بالمخلوق على أمر قادر عليه، فهذه على حسب المستعان عليه، فإن كانت على بر فهي جائزة للمستعين مشروعة للمعين.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾(٢)، وإن كانت على إثم فهي حرام على المستعين والمعين لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(٣).

وإن كانت على مباح فهي جائزة للمستعين والمعين، لكن المعين قد يثاب على ذلك ثواب الإحسان إلى الغير، ومن ثم تكون في حقه مشروعة لقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

الثالث: محرمة: وهي الاستعانة الشركية وتوضيحها أن يستعين الشخص بالأموات أو بالأحياء على أمر لا يقدرون على مباشرته، فهذا شرك(٥).

ثالثاً: الاستعاذة بغير الله:

الاستعاذة لغة:

---

(١) جامع العلوم والحكم ١٦٨.

(٢) سورة المائدة: ٢.

(٣) سورة المائدة: ٢.

(٤) سورة البقرة: ١٩٥.

(٥) انظر مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين ٦/ ٥٨ بتصرف.

قال في «النهاية»: «يقال: عذت به عوذاً وعياذاً، ومعاذاً، أي: لجأت إليه، والمعاذ المصدر والمكان والزمان، أي: قد لجأت إلى ملجأ، ولذت بملاذ»[(١)].

وقال ابن فارس: «العين والواو والذال: أصل صحيح، يدل على معنى واحد، وهو الالتجاء إلى الشيء، ثم يحمل عليه كل شيء لصق بشيء أو لازمه»[(٢)].

واصطلاحاً:

الاستعاذة بالله: طلب الإعاذة والإجارة من الله عز وجل لدفع المكروه.

قال ابن جرير: «الاستعاذة: الاستجارة، وتأويل قول القائل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أستجير بالله دون غيره من سائر خلقه من الشيطان أن يضرني في ديني، أو يصدني عن حق يلزمني لربي»[(٣)].

حكم الاستعاذة بغير الله:

الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك مخرج من الملة، وهو من صنيع أهل الجاهلية، فقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[(٤)].

أخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي فزادهم إثماً.

وعن الحسن قال: «كان الرجل منهم إذا نزل الوادي فبات به قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شر سفهاء قومه»[(٥)].

قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد رحمه الله: «وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله، ولهذا نهوا عن الرقى التي لا تُعرف معناها، خشية أن يكون فيها شيء من ذلك»[(٦)].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٣١٨.
(٢) معجم المقاييس، باب العين والواو وما يثلثهما (٧١٩) ط دار الفكر الجديدة.
(٣) تفسير ابن جرير ١/٤٩ (مجلد ١).
(٤) سورة الجن: ٦.
(٥) تفسير ابن جرير الطبري ٢٩/١٠٨ (مجلد ١٤).
(٦) تفسير العزيز الحميد ٢١٢.

والاستعاذة ثلاثة أقسام:

الأول: واجبة: وهي الاستعاذة بالله تعالى، وهي المتضمنة لكمال الافتقار إلى الله، والالتجاء إليه، والاعتصام به، والاطّراح بين يدي الرب والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر.

والعياذ يكون لدفع الشر، واللياذ لطلب الخير، والاستعاذة بالله عبادة لله، ولهذا أمر الله بالاستعاذة به في غير آية وتواترت السنن عن النبي ﷺ بذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾(٢)، وقال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٣)، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾(٥).

قال الشيخ سليمان بن عبدالله بعد عرض هذه الآيات: «فإذا كان تعالى هو ربنا وملكنا وإلهنا، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب غيره، ولا يخضع لغيره، ولا يتوكل إلا عليه»(٦).

ويدخل تحت الاستعاذة بالله الاستعاذة بصفة من صفات الله جل وعلا كالاستعاذة بكلماته، وبعظمته، وبعزته، وأدلتها من السنة حديث خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً فقال: أعوذُ بكلماتِ الله التامّاتِ من شرِّ ما خلقَ،

---

(١) سورة فصلت: ٣٧.

(٢) سورة المؤمنون: ٩٧-٩٨.

(٣) سورة غافر: ٥٦.

(٤) سورة الفلق: ٢.

(٥) سورة الناس: ١-٢.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٢١٠.

لم يضرّه شيءٌ حتى يرحل من منزله ذلك»[١].

وقوله ﷺ في حديث دعاء الألم: «أعوذُ بِعزّةِ اللهِ وقدرتِهِ مِنْ شَرّ ما أجدُ وأُحاذِر»[٢].

وفي الدعاء العظيم من حديث ابن عمر قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: «اللهمَّ إني أسألُكَ العافيةَ في الدنيا والآخرة، اللهمَّ إنّي أسألك العفوَ والعافيةَ في ديني ودنيايَ وأهلي ومالي، اللهمَّ استر عوراتي، وآمِنْ روعاتي، واحفظني من بينِ يديَّ، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فَوقي، وأعوذُ بعظمتكَ أن أُغتالَ من تحتي»[٣]، وموضع الشاهد هو قوله ﷺ: «أعوذُ بعظمتكَ أن أُغتالَ من تحتي» فقد استعاذ بصفة من صفات الله جل وعلا. وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي ورد فيها ذلك.

الثاني: استعاذة جائزة: وهي الاستعاذة بما يمكن العوذ به من المخلوقين من البشر، أو الأماكن، أو غيرها، فهذا جائز.

ودليله قوله ﷺ في ذكر الفتن: «من تَشَرَّف لها تَستشرِفْهُ، ومن وَجَدَ ملجأً أو معاذاً فَيَعُذ به»[٤].

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٤.

(٢) رواه مسلم في السلام، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء ٤/ ١٧٢٨ (٢٢٠٢) وفيه أنه قال: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً وقل سبع مرات: أعوذ بالله..» الحديث وليس فيه «بعزة الله» وإنما هي عند أبي داود في الطب باب كيف الرقي ٤/ ٤٠٨ (٢٠٨٠) وقال: حسن صحيح، ورواه ابن ماجه في الطب، باب ما عوذ به النبي ﷺ وما عوذ به ٢/ ١١٦٢ (٣٥٢٢).

(٣) رواه أبوداود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح ٥/ ٣١٥ (٥٠٧٤)، ورواه ابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ٢/ ١٢٧٣ (٣٨٧١)، وأحمد في المسند ٢/ ٢٥، والحاكم في المستدرك ١ / ٥١٧ وصححه، ووافقه الذهبي، وابن حبان في موارد الظمآن، باب ما يقول إذا أصبح وإذا أمسى، وإذا أوى إلى فراشه ٥٨٥ ح (٢٣٥٦).

(٤) رواه البخاري في كتاب الفتن، باب فتنة القاعد فيها خير من القائم، الفتح ١٣/ ٣٠ (٧٠٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر ٤/ ٢٢١٢ (٢٨٨٦)، وقد وقع تفسير المعاذ بالإبل، أو الغنم، أو الأرض في حديث أبي بكر=

وقد بين النبي ﷺ هذا الملجأ بقوله: «فمن كان له إبلٌ فليلحقْ بإبلهِ».

يقول الشيخ ابن عثيمين حفظه الله بعد ذكر هذا القسم: «ولكن من استعاذ من شر ظالم وجب إيواؤه وإعاذته، بقدر الإمكان، وإن استعاذ ليتوصل إلى فعل محظور، أو الهرب من واجب، حرم إيواؤه»(١).

الثالث: استعاذة محرمة:

وهي الاستعاذة الشركية، كأن يستعيذ بالأموات أو بالأخيار غير الحاضرين القادرين على العوذ، فهذا شرك وسبق بيانه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(٢). والله أعلم.

رابعاً: التوسل إلى الله بدعاء غير مشروع:

قبل بيان هذه الصورة المخالفة للشرع بدرجات متفاوتة في المخالفة لا بد من بيان معنى التوسل حتى يتضح المراد.

التوسل لغة:

قال ابن فارس: «وَسَل: الواو والسين واللام كلمتان متباينتان جداً، الأولى: الرغبة والطلب، يقال: وسل: إذا رغب، والواسِل الراغب إلى الله عز وجل، وهو في قول لبيد: بلى كل ذي دين إلى الله واسل، ومن ذلك القياس الوسيلة.

والأخرى: السرقة يقال: أخذ إبله توسلاً»(٣).

والذي يعنينا هنا المعنى الأول. وقال أبو السعادات: «هي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به، وجمعها وسائل»(٤).

= في صحيح مسلم (٢٨٨٧) ٤/ ٢٢١٢، ولفظه: «فإذا نزلت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله...» إلخ الحديث.

(١) مجموع فتاوى الشيخ الشيخ ابن عثيمين ٦/ ٥٩، ٦٠.

(٢) سورة الجن: ٦.

(٣) معجم المقاييس، باب الواو والسين وما يثلثهما (١٠٩١) ط دار الفكر الجديدة.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ١٨٥.

وقال الراغب: «التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيلة لتضمنها معنى الرغبة»[(١)].

فمدار الكلمة في اللغة على الرغبة، والطلب.

واصطلاحاً:

هو: طلب القربة إلى الله تعالى بالعمل بمرضاته، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[(٢)].

وقد ذكر الإمام ابن جرير: عن عطاء وقتادة، ومجاهد والحسن أن الوسيلة هي القربة، وعن السدي: المسألة والقربة[(٣)].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «الوسيلة التي أمرنا الله أن نبتغيها إليه، هي: التقرب إلى الله بطاعته، وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله»[(٤)].

وقال الشنقيطي رحمه الله: «التحقيق في معنى الوسيلة: هو ما ذهب إليه عامة العلماء، من أنها التقرب إلى الله تعالى بالإخلاص له في العبادة، على وفق ما جاء به الرسول ﷺ، قال: وتفسير ابن عباس: القربة داخل في هذا؛ لأن دعاء الله والابتهال إليه في طلب الحوائج من أعظم أنواع عبادته التي هي الوسيلة إلى نيل رضاه ورحمته»[(٥)].

وبهذا يتبين أن جميع ما جاء به الشرع من الواجبات والمستحبات وسائل شرعية، ومن أعظمها الدعاء بنوعيه: دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهو يتقرب بها إلى ربه لتحقيق غايته، والوصول إلى مراده.

فبين الدعاء والتوسل تلازم ظاهر، فإن الدعاء إذا أريد به دعاء العبادة كان هو نفس

(١) مفردات ألفاظ القرآن ٨٧١، وانظر القاموس المحيط باب اللام، فصل الواو مادة وسل ٩٦٢ دار الفكر الجديدة.

(٢) سورة المائدة: ٣٥.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٦/ ٢٢٦ (مجلد ٤).

(٤) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ٨٥.

(٥) أضواء البيان ٢/ ٩٨.

معنى التوسل، فما من عبادة يقوم بها العبد، وفق ما شرع الله ورسوله ﷺ يرجو بها رحمة الله، ويخاف عذابه، ويريد الوصول إلى مرضاته إلا كان ذلك وسيلة وقربة، وهذا أيضاً دعاء عبادة.

وإذا أريد بالدعاء دعاء المسألة، كان التوسل أعم من الدعاء، ويكون دعاء المسألة وسيلة خاصة من الوسائل التي يتقرب بها إلى الله عز وجل للوصول إلى مراده.

وإذا كان الأمر على النحو الذي أسلفنا، فإن الدعاء بنوعيه وسيلة وهذه الوسيلة عبادة، والقاعدة عند العلماء في العبادات: أن الأصل فيها الحظر، فلا يشرع منها إلا ما شرعه الله ورسوله.

والدليل قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾(١).

يقول الإمام ابن سعدي رحمه الله: «فكل واجب أوجبه الله ورسوله، أو مستحب، عبادة يُعبد الله به وحده، فمن أوجب أو استحب شيئاً لم يدل عليه الكتاب والسنة فقد ابتدع ديناً لم يأذن به الله، وهو مردود على صاحبه كما قال ﷺ: «من عملَ عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ»(٢)»(٣).

والدعاء وسيلة وقربى، فإن كان واجباً أو مستحباً فهو حسن يثاب عليه، وإن كان محرماً فهو إثم ومعصية، وإن كان مكروهاً فهو ينقص مرتبة صاحبه، وإن كان مباحاً استوى فيه الطرفان فلا له ولا عليه، هذا مضمون كلام الإمام ابن تيمية رحمه الله(٤).

ثم يقرر قاعدة مهمة في الأمور التعبدية فيقول: «وبالجملة فمعنا أصلان عظيمان:

أحدهما: أن لا نعبد إلا الله.

والثاني: أن لا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بعبادة مبتدعة.

---

(١) سورة الشورى: ٢١.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رسالة في القواعد والأصول الجامعة (٣٠١) ضمن مجلد الرسائل والمتون العلمية.

(٤) انظر مجموعة الرسائل الكبرى، الرسالة السادسة، (الاحتجاج بالقدر) ٢/ ١٢٦.

وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[١].

قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: أن يكون لله.

والصواب: أن يكون على السنة.

وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٢].

وكان عمر رضي الله عنه يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كلَّه صالحاً واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً»[٣].

وبناءً على ما تقدم: فإنه لا يصح للعبد أن يتوسل إلى الله جل وعلا بدعاء غير مشروع، لأنه يكون بذلك عابداً بما لم يشرع، وكل عمل ليس عليه أمر محمد ﷺ فهو مردود كما تقدم.

---

(١) سورة الملك: ٢.

(٢) سورة الكهف: ١١٠.

(٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ١٥١.

التوسل في القرآن الكريم والسنة المطهرة

ورد لفظ الوسيلة في القرآن الكريم في موضعين:

الأول: في سورة المائدة، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[١].

الثاني: في سورة الإسراء: قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[٢].

ذَكَر العلماء في سبب نزول هذه الآية:

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «نزلت في نفر من العرب، كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون، أما الإنس الذين كانوا يعبدونهم فلم يشعروا بإسلامهم»[٣].

يقول الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله عند تفسير الآية: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه: ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه عند ضُرٍّ نزل بكم، فانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم، أو تحويله عنكم إلى غيركم فدعوهم آلهة؟»[٤].

وإذا تأملنا آيتي الإسراء، وجدنا أن دعاء العبادة ورد مبنياً على دعاء المسألة، فإذا كان المعبود الذي يدعى دعاء عبادة لا يملك كشف الضر إذا دعى دعاء مسألة، فكيف يكون أهلاً لأن يُعبد من دون الله!

(١) سورة المائدة: ٣٥.
(٢) سورة الإسراء: ٥٦-٥٧.
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٥/ ١٠٤ (مجلد ٩).
(٤) المرجع السابق ١٥/١٠٣ (مجلد ٩).

ومن جهة أخرى فإن أولئك الذين يدعون من دون الله قد أسلموا، فهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة (القربة) رجاء رحمته وخوفاً من عذابه فكيف تدعونهم من دون الله؟!

أما السنة المطهرة:

فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «سَلوا اللهَ لي الوسيلةَ، فإنها درجةٌ في الجنةِ، لا تنبغي إلا لعبدٍ من عبادِ الله، وأرجو أن أكونَ أنا ذلك العبدَ، فمن سألَ الله لي الوسيلةَ حلّت له شفاعتي يومَ القيامةِ»[١].

وهذا فضل من الله عظيم، والشفاعة إنما تحل لمن سأل النبي ﷺ الوسيلة وهي أعلى درجة في الجنة، والجزاء من جنس العمل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فلما دعوا للنبي ﷺ استحقوا أن يدعوَ هو لهم، فإن الشفاعة نوع من الدعاء، وهكذا، فمن صلى على النبي ﷺ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً»[٢].

التوسل المشروع، والتوسل الممنوع:

عرفنا من الحديث السابق أن التوسل جاء في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية المطهرة بمعاني سبق إيضاحها، وقد جاء أيضاً على ألسنة الصحابة رضي الله عنهم، كما جاء على ألسنة المتأخرين الذين أحدثوا في اللفظ معاني محدثة سنوضحها إن شاء الله.

والمهم هنا هو التنبيه إلى ما أشار إليه الإمام ابن تيمية رحمه الله بقوله: «لفظ التوسل فيه إجمال واشتباه، يجب أن تعرف معانيه، ويعطى كل ذي حق حقه.

فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك، وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك، ويعرف ما أحدثه المحدَثون في هذا اللفظ ومعناه، فإن كثيراً من اضطراب

---

(١) رواه مسلم في الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يسأل الله الوسيلة ١/ ٢٨٨ (٣٨٤)، ورواه أبو داود في الصلاة، باب ما يقول إذا سمع المؤذن ١/ ٣٥٩ (٥٢٣)، ورواه الترمذي في المناقب، باب فضل النبي ﷺ ٥/ ٥٨٦ (٣٦١٤) وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في الأذان، باب الصلاة على النبي ﷺ ٢/ ٢٥. ورواه أحمد في المسند ٢/ ١٦٨.

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ٤٩.

الناس في هذا الباب هو بسبب ما وقع من الإجمال والاشتراك في الألفاظ ومعانيها، حتى تجد أكثرهم لا يعرف في هذا الباب فصل الخطاب»(١).

وبهذه القاعدة الضرورية التي نبه عليها الإمام ابن تيمية رحمه الله في كثير من الألفاظ التي دخلها الإجمال والاشتراك، نستطيع التفريق بين التوسل المشروع، والتوسل الممنوع.

فما ورد به القرآن والسنة لا يخرج عن الوجوب أو الاستحباب، وكلاهما قربة إلى الله تعالى، «وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك، سواء كان محرماً أو مكروهاً، أو مباحاً، فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول ﷺ، فأمر به أمر إيجاب أو استحباب»(٢).

أما ما فعله الصحابة رضي الله عنهم فهو توسل بدعاء النبي ﷺ في حياته، لا بذاته وهذا جائز، وقبل التفصيل في هذا النوع، وبيان أدلته، ومحل الإشكال فيه يحسن توضيح صور التوسل المشروع وذكر أدلة كل صورة منها.

التوسل المشروع:

يتضمن التوسل المشروع ثلاث صور، الصورة الأولى:

أن يتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، أو بصفاته العلى، أو بأفعاله جل وعلا.

ولهذه الصورة - المتضمنة ثلاثة جوانب - أدلة كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٣).

وصح من دعائه ﷺ قوله: «أسألُكَ بكلّ اسمٍ هوَ لكَ سمّيتَ به نفسَكَ، أو أنزلتَهُ في كتابِكَ، أو علّمتَهُ أحداً من خلقكَ، أو استأثرْتَ به في علمِ الغيبِ عندَكَ، أن تجعلَ

---

(١) المرجع السابق ٤٨.

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ٤٨.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٠.

القرآنَ ربيعَ قلبي، وجلاءَ حُزني وذهابَ هَمّي»[١].

هذا في الجانب الأول، وهو التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، أما الجانب الثاني وهو: التوسل إلى الله بصفاته فمنه:

قوله ﷺ: «اللهم بعلمِكَ الغيبَ، وقدرتِكَ على الخلقِ أحييني ما علمتَ الحياةَ خيراً لي، وتوفّني ما علمتَ الوفاةَ خيراً لي»[٢].

فعلم الله وقدرته صفتان، وهنا حصل التوسل بهما.

وفي الجانب الثالث هو التوسل إلى الله بأفعاله، فمثاله كما قال الشيخ ابن عثيمين حفظه الله: «أن يدعو الله بشيء ثم يتوسل إليه في تحقيق هذا الشيء بفعل نظيره، ومنه حديث الصلاة على النبي ﷺ: «اللهمَّ صلّ على محمدٍ، وعلى آلِ محمدٍ، كما صليتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ. . .» الحديث[٣].

فإن صلاة الله على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم من أفعاله، ومثاله أن يقول: «اللهم كما أنزلت علينا المطر، فاجعله غيثاً نافعاً» فهنا توسل بإنزال المطر وهو فعل من أفعال الله[٤].

الصورة الثانية: أن يتوسل إلى الله تعالى بالإيمان به وبالأعمال الصالحة، ومنه قوله تعالى في التوسل بالإيمان به: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾، ثم قال: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[٥].

---

(١) رواه أحمد في المسند من حديث ابن مسعود ١/ ٣٩١، ٤٥٢، وابن حبان في صحيحه في الأذكار، باب ما يقول إذا أصابه هم أو حزن موارد الظمآن ص ٥٨٩ رقم (٢٣٧٢)، والحاكم في المستدرك في الدعاء ١/ ٥٠٩ بألفاظ متقاربة، وهو في مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٦ ونسبه لأحمد وأبي يعلي والبزار.

(٢) جزء من حديث طويل رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء ١/ ٥٢٤، ٥٢٥ وقال: حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي رحمه الله وراوي الحديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ ٦/ ٤٠٨ (٣٣٧٠)، ومسلم في الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ ١/ ٣٠٥ (٤٠٦)، وأبو داود في الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد ١/ ٥٩٨ (٩٧٦)، والترمذي في الصلاة، باب صفة الصلاة على النبي ﷺ ٢/ ٣٥٢ (٤٨٣)، وأحمد في المسند ٤/ ٢٤١.

(٤) انظر مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين ٢/ ٣٥٣.

(٥) سورة آل عمران: ١٩٣.

ومن التوسل بالأعمال الصالحة: حديث الثلاثة الذي قص علينا نبينا ﷺ خبرهم وقد خرجوا في سفر فآواهم الليل إلى غار فدخلوه، ثم انحدرت عليهم صخرة من الجبل، فسدت الباب، فتوسل كل واحد منهم بصالح عمله فانفرجت الصخرة»(١).

الصورة الثالثة: التوسل إلى الله تعالى بدعاء من ترجى إجابته، كأن تطلب من شخص ترجى إجابته أن يدعو الله لك.

ودليله ما حصل من عمر رضي الله عنه حين توسل بالنبي ﷺ - أي بدعائه - ثم بالعباس - أي بدعائه - فقال: «اللهم إنا إذا كنا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال: فيسقون»(٢).

وجاء في «صحيح» البخاري رحمه الله عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب:

وأبيضَ يُستسقى الغَمامُ بوجهِه ... ثِمَالُ اليتامى عِصمةٌ للأراملِ»(٣)

وهذا التوسل من جنس الاستشفاع بالنبي ﷺ وهو أن يطلب منه الدعاء والشفاعة.

ولهذا يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله عن هذا: «إنه توسل بدعائه، لا بذاته، ولهذا عدلوا عن التوسل به، إلى التوسل بعمه العباس، ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس. فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس، علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته»(٤).

---

(١) الحديث بتمامه في صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إجابة دعاء مَن بَرَّ والديه. انظر فتح الباري ١٠/ ٤٠٤ (٥٩٧٤).

(٢) رواه البخاري في الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، فتح الباري ٢/ ٤٩٤ (١٠١٠) وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ذكر العباس بن عبدالمطلب من حديث أنس بن مالك ٧/ ٧٧ (٣٧١٠).

(٣) انظر فتح الباري ٢/ ٤٩٤ (١٠٠٩)، وبيت الشعر من قول: أبي طالب كما ورد في صحيح البخاري.

(٤) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ٥٠.

ولهذا يقول الشيخ محمد الرفاعي: «إن عملية الاستسقاء مؤلفة من عنصرين: طلب الدعاء، والدعاء، فلما توفي النبي ﷺ فقد عنصر الدعاء، الذي بدونه لا تتم عملية الاستسقاء، بسبب وفاته فداه أبي وأمي، فكان لا بد من اختيار شخص حي يدعو للمسلمين بدلاً من دعاء رسول الله ﷺ الذي التحق بالرفيق الأعلى»[١].

وسبب اختيار العباس من بين الصحابة، هو قربه من النبي ﷺ نسباً، ومكانته فضلاً وقدراً وإيماناً، فهو أحرى بأن يستجاب له، وقد جمع الله له المجد والشرف من أطرافه كما قيل.

وهذا في الحقيقة من التوسل الجائز، وليس للمخالفين حجة به، بل هو حجة عليهم.

والتوسل بالنبي ﷺ لفظ مجمل يحتمل ثلاثة معانٍ: اثنين منها صحيح، ولا إشكال فيهما، والثالث هو الذي تنازع فيه الناس، وهو محل إشكال.

يوضح الإمام ابن تيمية رحمه الله ذلك بقوله: «لفظ التوسل- يعني بالنبي ﷺ - يراد به ثلاثة معانٍ:

أحدهما: التوسل بطاعته - ﷺ - فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به.

الثاني: التوسل بدعائه وشفاعته، وهذا كان في حياته، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته.

والثالث: التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته، ولا بعد مماته، لا عند قبره، ولا غير قبره.

ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة، وموقوفة، أو عمن ليس قوله حجة»[٢].

وقد بين أنه حصل نزاع في هذه المسألة، وساق أقوال الأئمة الذين لم يجيزوها ومنهم الإمام أبو حنيفة رحمه الله، وأبو يوسف رحمه الله، وغيرهما من الأئمة، وبين

---

(١) التوصل إلى حقيقة التوسل ٢٦٣.

(٢) قاعدة جليلة ٥٠، وانظر مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين ٢/ ٣٤٣.

أن ما يحصل فيه النزاع يرد إلى الله ورسوله، كما في سائر مسائل النزاع ، وكل يبدي حجته.

والذين أجازوا التوسل بذات النبي ﷺ اعتمدوا على حديث باطل: «إن كانت لكم إلى الله حاجة فاسألوا الله بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم».

قال ابن تيمية: هذا الحديث لم يروه أحد من أهل العلم، ولا هو في شيء من كتب الحديث[١].

وقال في موضع آخر: «وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين.

وقد أخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وجيهان عند الله فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[٣].

فإذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل، فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود، الذي يغبطه الأولون والآخرون وصاحب الكوثر والحوض المورود، والشفاعة يوم القيامة واللواء وخطيبهم إذا وفدوا، ذو الجاه العظيم ﷺ.

ولكن جاه المخلوق عند الخالق تعالى، ليس كجاه المخلوق عند المخلوق، فإنه لا يشفع عند أحد إلا بإذنه. . والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه فهو شريك له في حصول المطلوب، والله تعالى لا شريك له»[٤].

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ١/ ٢٨.

(٢) سورة الأحزاب ٦٩.

(٣) سورة آل عمران: ٤٥.

(٤) انظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ١٤١، ١٤٢ بتصرف.

واستدل المجيزون للتوسل بذات النبي ﷺ بحديث الأعمى، الذي فيه أنه أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: «إن شئتَ دعوتُ، وإن شئتَ صبرتَ فهو خيرٌ لكَ».

قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ ويحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «اللهمَّ إني أسألُكَ وأتوجَّهُ إليكَ بنبيكَ محمدٍ نبيِّ الرحمةِ، إني توجهتُ بهِ إلى ربّي في حاجتيَ هذه لتُقضى، اللهمّ فشفّعه فيّ»[١].

وقد ساقه ابن الجزري عفا الله عنه في كتابه «عدة الحصن الحصين»[٢] محتجاً به على ما يسمى بصلاة الضر والحاجة، وذكر أنه يصلي ركعتين لله ثم يدعو ربه.

وشرح الإمام الشوكاني - عفا الله عنه - هذا الحديث محتجاً به أيضاً في شرحه المسمى «تحفة الذاكرين بشرح عدة الحصن الحصين»[٣].

وقد اختلف أهل العلم في الحكم على الحديث، فمنهم من قال: إنه ضعيف، ومنهم من قال: إنه حسن، ولكن له وجهة.

يقول الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد رحمه الله: «هذا الحديث من أصله وإن صححه الترمذي، فإن في ثبوته نظراً، لأن الترمذي يتساهل في التصحيح كالحاكم لكن الترمذي أحسن نقداً كما نص على ذلك الأئمة.

ووجه عدم ثبوته أنه قد نص: أن أبا جعفر الذي عليه مدار هذا الحديث هو غير الخطمي، وإذا كان غيره فهو لا يعرف.

ولعل عمدة الترمذي في تصحيحه أن شعبة لا يروي إلا عن ثقة، وهذا فيه نظر، فقد قال عاصم بن علي: سمعت شعبه يقول: لو لم أحدثكم إلا عن ثقة لم أحدثكم إلا عن ثلاثة، وفي نسخة عن ثلاثين، ذكره الحافظ العراقي.

(١) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (٢٢) في المجلد الأول، قال الألباني: لا أصل له وانظر مجموع فتاوى الشيخ ابن عثمين ٢/ ٣٤٧.

(٢) انظر عدة الحصن الحصين ٩٩.

(٣) تحفة الذاكرين بشرح عدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين ١٨٠.

وهذا اعتراف منه بأنه يروي عن الثقة وغيره، فينظر في حاله، ويتوقف الاحتجاج به على ثبوت صحته»(١).

وعلى فرض صحته فإنه لا حجة فيه لمن أجاز التوسل بالذات؛ لأن الأعمى «طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، كما طلب الصحابة رضي الله عنهم الاستسقاء منه ﷺ، وقوله: «أتوجه إليك بنبيِّك محمد» أي: بدعائه، وشفاعته لي، ولهذا في تمام الحديث «فشفِّعه فيَّ» فالذي في الحديث متفق عليه جوازه وليس هو مما نحن فيه»(٢).

وقال ابن تيمية رحمه الله في موضع آخر: «فسائل الله بغير الله: إما أن يكون مقسماً عليه، وإما أن يكون طالباً بذلك السبب، كما توسل الثلاثة في الغار بأعمالهم، وكما يتوسل بدعاء الأنبياء، والصالحين، فإن كان إقساماً على الله بغيره فهذا لا يجوز، وإن كان طالباً من الله بذلك السبب، كالطلب منه بدعاء الصالحين، والأعمال الصالحة، فهذا يصح؛ لأن دعاء الصالحين سبب لحصول مطلوبنا الذي دعوا به، وكذلك الأعمال الصالحة سبب لثواب الله لنا»(٣).

ومن أدلة التوسل إلى الله بدعاء من ترجى إجابته قصة المرأة السوداء التي قالت لرسول الله ﷺ: إني أُصرع وإني أتكشَّف فادع الله لي، فقال ﷺ: «إن شئتِ صبرتِ، ولك الجنةُ، وإن شئتِ دعوتُ الله عزَ وجلّ أن يعافيكَ» قالت: أصبر، قالت: فإني أتكشَّف فادع الله لي أن لا أتكشف. فدعا لها(٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: استأذنت النبي ﷺ في العمرة فأذن، وقال: «لا تنسنا يا أُخيّ من دعائِك» فقال كلمةً ما يسرني أن لي بها الدنيا، وفي رواية قال: «أشركنا يا أخي في دعائِكَ»(٥).

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٤٤، وانظر مجموع فتاوى ابن عثيمين ٢/ ٣٤٨. وهذه مفاهيمنا، للشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ٣٦، وقد بحث هذا بتوسع مفيد جداً.

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ١/ ٢٤، ٢٥.

(٣) المرجع السابق ١/ ٢٣، ٢٤.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح، ١٠/ ١١٤ (٥٦٥٢)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها ٤/ ١٩٩٤ (٢٥٧٦).

(٥) رواه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء ٢/ ١٦٩ (١٤٩٨)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب رقم=

وقد ذكر العلماء أن في هذا الحديث الحث على سؤال الدعاء من سائر المسلمين، وإن كان السائل أشرف من المسؤول منه[١].

وذكر الإمام ابن تيمية رحمه الله: «أن من قال لغيره من الناس: ادع لي، أو لنا، وقصده أن ينتفع ذلك المأمور بالدعاء وينتفع هو أيضاً بأمره، ويفعل ذلك المأمور به كما يأمره بسائر فعل الخير، فهو مقتد بالنبي ﷺ، مؤتم به، ليس هذا من السؤال المرجوح.

وأما إن لم يكن مقصوده إلا طلب حاجته، لم يقصد نفع ذلك والإحسان إليه، فهذا ليس من المقتدين بالرسول المؤتمين به في ذلك، بل هذا من السؤال المرجوح الذي تركه إلى الرغبة إلى الله ورسوله أفضل من الرغبة إلى المخلوق، وسؤاله، وهذا كله من سؤال الأحياء السؤال الجائز المشروع»[٢].

ويعني الإمام ابن تيمية ملاحظة الفرق بين المستحب، والجائز، فالصورة الأولى مستحبة لأن فيها اقتداء، والثانية جائزة، والله أعلم.

= ١١٠ حديث (٣٥٦٢) ٥/ ٥٥٩، وقال: حديث حسن صحيح.

(١) انظر نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ١/ ٥١٠.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ١/ ١٩٣، ومجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين ٢/ ٣٥٤.

التوسل الممنوع

التوسل الممنوع له صورتان:

الأولى: أن يتوسل بوسيلة أبطلها الشرع كتوسل المشركين بآلهتهم بالدعاء والخوف، والرجاء، ونحو ذلك من أنواع العبادة وهذا توسل شركي.

قال تعالى في شأن أصحابه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(١).

الثانية: أن يكون بوسيلة لم يرد بها دليل من الشرع، وهذا توسل بدعي محرم ووسيلة إلى الشرك بالله، كالتوسل إلى الله بذوات الملائكة، والنبيين والصالحين وسؤال الله بحقهم، أو جاههم، أو حرمتهم، أو مقامهم ونحو ذلك.

ولهذه الصورة ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: التوسل إلى الله تعالى بذات وشخص المتوسَّل به، كأن يقول المتوسِّل: اللهم إني أتوسل إليك بفلان- ولا يعني إلا ذاته وشخصه - أن تقضي حاجتي.

الوجه الثاني: التوسل إلى الله تعالى بجاه فلان، أو حقه، أو حرمته أو بركته، كأن يقول المتوسل: اللهم إني أتوسل إليك بجاه فلان عندك، أو بحقه عليك، أو بحرمته، أو بركته أن تقضي حاجتي.

الوجه الثالث: الإقسام على الله بالمتوسَّل به، كأن يقول: اللهم أقسم عليك بفلان أن تقضي لي حاجتي.

---

(١) سورة الزمر: ٣.

وقد أجاز المستحلون للتوسل الممنوع، كل هذه الأوجة الثلاثة، والحقيقة أنها جميعاً كلها باطلة، وفاسدة، ومخالفة لأصول الدين ونصوصه[١].

وقد مضى معنى التوسل بذات النبي ﷺ وبجاهه؛ لأنه محل الإشكال أكثر من غيره، بسبب ما جرى للمخالفين من الوهم في فهم النصوص الواردة في هذا الشأن، التي فهموا منها جواز التوسل بذات النبي ﷺ، مع أنه لا حجة لهم فيها، والتوسل فيها إنما هو بدعاء النبي ﷺلا بذاته، ولا بجاهه مع عظيم جاهه ﷺ.

يقول الشيخ محمد بن عثيمين حفظه الله: التوسل بجاه النبي ﷺ ليس بجائز على الراجح من قول أهل العلم، فيحرم التوسل بجاه النبي ﷺ، فلا يقول الإنسان: اللهم إني أسألك بجاه نبيك كذا وكذا، وذلك لأن الوسيلة لا تكون وسيلة إلا إذا كان لها أثر في حصول المقصود، وجاه النبي ﷺ بالنسبة للداعي ليس له أثر في حصول المقصود، وإذا لم يكن له أثر، لم يكن سبباً صحيحاً، والله عز وجل لا يدعى إلا بما يكون سبباً صحيحاً له أثر في حصول المطلوب[٢].

ومن أمثلة التوسل الممنوع: التوسل بذوات الصالحين، وهذا كذلك الذي سبق من باب أولى، ليس له أثر في حصول المطلوب، لأنه ليس سبباً يقتضي إجابة الدعاء، فيكون فاعل ذلك متوسلاً بغير وسيلة، ولهذا لم يكن هذا منقولاً عن النبي ﷺ، نقلاً صحيحاً، ولا فعله أحد من أصحابه كما ذكر أهل العلم بالحديث.

وقد جاء في «سنن» أبي داود عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك.

فسبح رسول الله ﷺ حتى رؤي ذلك في وجوه أصحابه وقال: «ويحكَ! أتدري ما الله؟ إن اللهَ لا يُستشفعُ به على أحد من خلقِه، شأنُ اللهِ أعظمُ من ذلك»[٣].

---

(١) انظر التوصل إلى حقيقة التوسل ١٨٥.

(٢) انظر مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين ٢/ ٣٤٧.

(٣) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب في الجهمية ٥/ ٩٤ (٤٧٢٦)، وذكر البخاري آخر الحديث في=

جاء في «تيسير العزيز الحميد» ما نصه: «قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في الرد على الجهمية، من حديث محمد بن إسحاق بن يسار»[١].

والاستشفاع: طلب الشفاعة، والاستشفاع بالله على خلقه حرام؛ لأن الله تعالى أعظم شأناً من أن يتوسل به إلى خلقه؛ لأن رتبة المتوسَّل به غالباً دون رتبة المتوسَّل إليه، وذلك سوء أدب مع الله فيتعين تركه[٢].

قال ابن تيمية رحمه الله: وهذا يبين أن معنى الاستشفاع بالشخص في كلام النبي ﷺ وأصحابه هو الاستشفاع بدعائه وشفاعته ليس هو السؤال بذاته، فإنه لو كان السؤال بذاته لكان سؤال الخلق بالله تعالى أولى من سؤال الله بالخلق.

ولكن لما كان معناه هو الأول أنكر النبي ﷺ قوله: «نستشفع بالله عليك» ولم ينكر قوله: «نستشفع بك على الله» لأن الشفيع يسأل المشفوع إليه أن يقضي حاجة الطالب، والله تعالى لا يسأل أحداً من عباده أن يقضي حوائج خلقه»[٣].

وبهذا تتضح صور التوسل الممنوع، الدائرة بين الشرك والبدعة، ولا يخفى أن البدعية منها موصلة إلى الشرك، ولهذا جاءت النصوص الكثيرة في التحذير منها، وسد الذرائع وحماية التوحيد، والله أعلم.

= التاريخ الكبير من رواية جبير بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده، ولم يدخله في الجامع الصحيح كما قال الخطابي. وانظر التاريخ الكبير ٢/ ٢٢٤ (٢٢٧٧).

(١) تيسير العزيز الحميد ٧٢٧.

(٢) الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة على كتاب التوحيد للشيخ عبدالله بن جار الله الجار الله رحمه الله ص ٢٢٣.

(٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ١٣٨، وانظر تيسير العزيز الحميد ٧٢٧.

مناقشة شبهات المستغيثين عند القبور

إن الشُّبَه التي يوردها المخالفون، ويحتجون بها على صحة ما هم عليه من الدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، والتوسل بمن في القبور تقوم على أمرين:

الأول: نصوص باطلة، مخترعة، أو ضعيفة لا يحتج بها.

الثاني: شُبه يروج لها أصحابها في كل زمان.

فأما القسم الأول من النصوص التي يحتجون بها فهي:

١ - «إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا بأهل القبور».

زعموا أن هذا مرفوع، وأنه حجة واضحة لهم فيما ذهبوا إليه.

والجواب أن هذا كلام موضوع مكذوب باتفاق العلماء كما قال الإمام ابن تيمية رحمه الله[١].

وقال في موضع آخر: هذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه، لم يروه أحد من العلماء بذلك، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة.

وقد قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[٢].

وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه غير مشروع، وقد نهى النبي ﷺ، وعما هو أقرب من ذلك، عن اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك، ولعن أهله، تحذيراً من التشبه بهم، فإن ذلك أصل عبادة الأوثان»[٣].

والعلة في النهي عن الصلاة عند القبور، حتى لا تتخذ ذريعة إلى نوع من

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٧٧.

(٢) سورة الفرقان: ٥٨.

(٣) مجموع الفتاوى ١/ ٣٥٦، ٣٥٧.

الشرك، والعكوف عليها، وتعلق القلوب بها عن رغبة ورهبة، «ومن المعلوم أن المضطر في الدعاء الذي قد نزلت به نازلة فيدعو لاستجلاب خير كالاستسقاء، أو لرفع شر كالاستنصار، حاله في افتتانه بالقبور إذا رجا الإجابة عندها أعظم من حال من يؤدي الفرض عندها في حال العافية.

فإن أكثر المصلين في حال العافية، لا تكاد قلوبهم تفتن بذلك إلا قليلاً، أما الداعون المضطرون ففتنتهم بذلك عظيمة جداً، فإذا كانت المفسدة والفتنة التي لأجلها نهى عن الصلاة متحققة في حال هؤلاء، كان نهيهم عن ذلك أوكد وأوكد، وهذا واضح لمن فقه في دين الله»[١].

٢- حديث: «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه».

أورده الإمام العجلوني رحمه الله ثم قال: قال ابن تيمية: إنه موضوع، وقال ابن حجر: لا أصل له[٢].

٣- حديث: «إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فليناد: ياعباد الله احبسوا».

قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد رحمه الله: هكذا في كتاب ابن السني، وفي «الجامع الصغير»: «فإن لله عز وجل في الأرض حاضراً سيحبسه عليكم».

والجواب:

أن هذا الحديث مداره على معروف بن حسان، وهو أبو معاذ السمرقندي- أحد رجال السند- فقوله في الأصل: ثنا أبو معاذ السمرقندي، خطأ أظنه من الناسخ.

قال ابن عدي: منكر الحديث.

وقال الذهبي في «الميزان»: قال ابن عدي: منكر الحديث، قد روى عن عمرو بن ذر نسخة طويلة كلها غير محفوظة.

وقال السيوطي: حديث ضعيف.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٧٧.

(٢) تمييز الطيب من الخبيث ١٣٣.

وأقول-والكلام للشيخ سليمان- : هو باطل؛ إذ كيف يكون عند سعيد عن قتادة، ثم يغيب عن أصحاب سعيد الحفاظ الأثبات، مثل يحيى القطان وغيره.

فهذا من أقوى الأدلة على وضعه.

وبتقدير ثبوته لا دليل فيه؛ لأن هذا من دعاء الحاضر فيما يقدر عليه كما قال: «فإن لله حاضراً في الأرض سيحبسه عليكم»[١].

٤- احتجوا بما ذكر عن أبي أُمامة بن سهل بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته.

فلقي ابن حنيف، فشكا إليه ذلك فقال له: ائت الميضأة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين، ثم قل: إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك ليقضي لي حاجتي... الحديث.

وقد أجاب الشيخ سليمان عن هذا الحديث بعدة وجوه حاصلها:

«أن راويه طاهر بن عيسى ممن لا يعرف بالعدالة، وهو مجهول الحال، لا يجوز الاحتجاج بخبره، لا سيما فيما يخالف نصوص الكتاب والسنة.

وكذلك أبو سعيد المكي- أحد رجال السند- أشد جهالة من طاهر، ثم على تقدير ثبوته فليس فيه دليل على دعاء الميت والغائب، غاية ما فيه أنه توجه به في دعائه، فأين هذا من دعاء الميت، فإن التوجه بالمخلوق سؤال به لا سؤال منه، والكلام إنما هو في سؤال المخلوق نفسه، ودعائه، والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله»[٢].

هذه هي أهم النصوص التي اعتمد عليها المخالفون، وقد وضح لنا كلام الأئمة في أسانيدها، وتبين أنه لا حجة للمخالف بها لا سيما مع مخالفتها للنصوص الصحيحة، وبتقدير ثبوت بعضها - مع ما فيها من القدح في أسانيدها - فإنه لا حجة لهم بها؛ لأنه لا يلزم من ثبوت الدليل وصحته صحة الاستدلال، والله أعلم.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٤٧.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٤٨، ٢٤٩.

القسم الثاني: شُبه يروجون لها:

يحتج المخالفون بشبه يروجون لها في كل زمان، زاعمين أنها حجج على صحة ما يفعلونه من المخالفات الشرعية عند القبور، ومن أهمها:

الشبهة الأولى:

قولهم: إن الدعاء عند القبر مجرب، فكم حاجة قضيت، وكربة كشفت ببركة الدعاء عند قبور الصالحين، أو الاستغاثة بهم، أو طلب الدعاء منهم.

والجواب عن هذه المقولة الفاسدة من وجوه:

الأول: أن الله لم يشرع الدعاء على هذه الصورة، ولا رسوله ﷺ ولا فعله أحد من الصحابة، وهم أعلم الخلق بالسنة، فمن أين أتوا بمثل هذا؟!

يقول ابن تيمية رحمه الله: من تأمل كتب الآثار، وعرف حال السلف تيقن قطعاً أن القوم ما كانوا يستغيثون عند القبور، ولا يتحرون الدعاء عندها أصلاً، بل كانوا ينهون عن ذلك من كان يفعله من جهالهم[١].

ونحن لا ندري كيف غاب علم هذا عن صحابة رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم، وهم أحرص الناس على كل خير، وأقومهم بكل فضيلة ومعروف، وقد عُرِفت البقاع المباركة، ولم تعرف المقابر منها، ومعلوم أن من في القبور بحاجة إلى الدعاء لهم، وليس منهم، فهذا محال، ولا عندهم فهذا ضلال.

وذكر الإمام ابن القيم قصة عن الصحابة تبين مدى حرصهم على حماية جناب التوحيد، واقتدائهم بالهدي العظيم، مضمونها أنهم لما فتحوا تستر وجدوا سريراً عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف له، ثم ترجمه كعب، وقد كتب لهم عمر رضي الله عنه أن يحفروا ثلاثة عشر قبراً متفرقة، ثم يدفن في واحد منها، بحيث يُعمى على الناس فلا ينبشونه، وكان أولئك يتبركون به، ويستسقون به.

قال ابن القيم: «ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره، لئلا يفتن به الناس، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به»[٢].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٨١، ومجموع الفتاوى ١/ ٦٠، وانظر إغاثة اللهفان ١/ ٢٠٢.

(٢) انظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/ ٢٠٣، ٢٠٤، وقد ذكر القصة أبو عبيد في الأموال =

ثم إنه من المحال كما يقول ابن القيم رحمه الله: أن يكون دعاء الموتى، أو الدعاء بهم، أو الدعاء عندهم مشروعاً وعملاً صالحاً، ويصرف عنه القرون المفضلة بنص رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ثم يرزقه الخلوف الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون»[١].

الثاني: من المعلوم أن النفوس مولعة بقضاء حوائجها، فإذا قضيت لها حاجة على النحو الذي ذكر ازدادت تعلقاً بالمكان وبصاحب المكان، فتتعلق بغير الله عز وجل، وتشرك مع الله غيره فيما هو من خصائصه جل وعلا، ولا يقدر عليه أحد سواه، من كشف الضر وبسط الرزق، وإنزال النصر ونحو ذلك.

ولا يخفى ما في هذه النتيجة - والعياذ بالله - من فسادٍ وشر، في دنيا الإنسان وآخرته.

الثالث: أن دعوى قضاء الحاجات عند الذهاب إلى القبر ليس عليها دليل، وما أكثر ما يحصل من الكذب في ذلك، حتى أن الكذب في المقبور ذاته، والدليل على ذلك أن كل بلد يزعم أهله أن فلاناً مقبور عندهم، فهل يتعدد الشخص الواحد، ويقبر في أماكن متعددة متباعدة، أم أنه الكذب والتلبيس؟!

ولهذا يقول ابن تيمية رحمه الله: الكذب في هذا الشأن من وجوه متعددة، منها: دعوى أن هذا قبر فلان المعظم، أو رأسه، ففي ذلك كذب كثير، والثاني: إخبار عن أحواله بأمور يكثر فيها الكذب. والثالث: الإخبار بما يقضى عنده من الحاجات، فما أكثر ما يحتال المعظمون للقبر بحيل يلبسون على الناس أنه حصل به خرق عادة، أو قضاء حاجة، وما أكثر من يخبر بما لا حقيقة له، وقد رأينا من ذلك أموراً كثيرة جداً[٢].

الوجه الرابع:

قضاء الحاجة قد يكون حاصلاً أحياناً من باب الفتنة والامتحان، حيث يوافق هذا الصنيع قدر الله عز وجل في وقوع المطلوب، وقد ذكر أهل العلم أن المشركين وأهل الكتاب تقضى حوائجهم بالدعاء عند الأصنام، وعند تماثيل القديسين، والأماكن التي يعظمونها، فهل يصح لهم الاستدلال بفعل هؤلاء على صحة ما هم عليه؟

= (٣٤٣)، وذكرها الطبري في التاريخ ٤/ ٢٢٠، في حوادث السنة السابعة عشرة.

(١) انظر إغاثة اللهفان ١/ ٢٠٢.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٧٢.

ولهذا يمكن أن تقضى الحاجات لأهل الأهواء والبدع من باب الامتحان والفتنة أعظم من عدم قضاء الحاجة، وهنا يعظم الخطر، ويعم الضلال، وعند ذلك يزداد ركب الشيطان عدداً وعدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الخامس: لا يسلم بأن للقبر، أو لصاحبه تأثيراً في قضاء تلك الحاجة إلا على طريقة الفلاسفة الباطلة بالنقل والعقل، حيث زعموا أن هناك تأثيراً للقوى النفسية على بعض الناس.

والأرواح المفارقة - بزعمهم - تتصل بروح الداعي، ومن هذا ما يحصل عند القبور، ولا يخفى ما في هذا من الكفر والضلال.

فأما إذا قضيت الحاجة فلا يخلو الأمر كما يقول ابن تيمية رحمه الله:

«إما أن تكون قضيت بغير دعائه، وإما أن تكون قضيت بدعائه، فإن كان الأول فلا كلام، وإن كان الثاني فيكون قد اجتهد في الدعاء اجتهاداً لو اجتهده في غير تلك البقعة، أو عند الصليب لقضيت حاجته، فالسبب هو اجتهاده في الدعاء لا خصوص القبر»(١).

وبهذه الوجوه التي ذكرنا يتضح لك بطلان ما زعموا، والله أعلم.

الشبهة الثانية:

يحاول المخالفون تخفيف الأمر، والتهوين من شأن المسألة بما يرددونه دائماً من أن النداء معناه لغة: الدعاء، وهو لا يتقيد بالعبادة إلا إذا كان لله - عز وجل- أما النداء لغير الله فيرجع إلى عقيدة الداعي، إن كان يعتقد فيمن يناديه أنه يضر وينفع، ويعطي ويمنع، من غير إذن الله فقد أشرك.

والجواب عن هذا من وجوه:

الأول: أن مدلول النداء والدعاء في كتاب الله واحد، فهذا زكريا عليه السلام يقول عنه الله في كتابه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٧٥.

(٢) سورة مريم: ٣-٤.

فالآية صريحة في المراد، وهي تبين أن النداء دعاء، وفي الآية الأخرى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[١].

فقوله «رب» أي: يارب، وقوله «إذ نادى» أي: دعا.

وكذلك ذو النون قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٢].

قال عليه الصلاة والسلام: «دعوةُ أخي ذي النّون: لا إلهَ إلا أنتَ سبحانك إني كنت من الظالمين. ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه»[٣].

وكذلك قال الله عن نوح عليه السلام: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[٥]. وقال تعالى في أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٦].

وقد ورد النداء في القرآن بمعنى الدعاء في مواضع كثيرة، في سورة هود ومريم والأنبياء في أربعة مواضع، وص، والدخان، وغيرها.

الوجه الثاني: لا شك أن بين النداء والدعاء عموم وخصوص مطلق، فيجتمعان في السؤال والطلب إذا كان عن رغبة ورهبة، وينفرد الدعاء إذا كان دعاء عبادة، والذي يقف عند القبر ينادي ويمد يد الافتقار والضراعة، ويرفع كف السؤال والطلب يعد راجياً وخائفاً ومحباً، وهذه هي العبادة بأهم ركائزها،، وإذن فالنداء دعاء مسألة، وهو متضمن لدعاء العبادة، كما أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة.

الوجه الثالث: ثبت عن رسول الله ﷺ من حديث الصلت بن حكيم، عن أبيه، عن جده أن أعرابياً قال: يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ

---

(١) سورة آل عمران: ٣٨.
(٢) سورة الأنبياء: ٨٧.
(٣) رواه الترمذي في الدعوات باب رقم (٨٢) ٥/ ٥٢٩ ح (٣٥٠٥)، ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٠٥ وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الإمام الذهبي رحمه الله.
(٤) سورة الأنبياء: ٧٦.
(٥) سورة القمر: ١٠.
(٦) سورة الأنبياء: ٨٣.

فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[١].

فالسائل يريد أن يتحقق في الأمر ليحدد كيفية الدعاء، إما دعاء مناجاة وهي بصوت منخفض، أو دعاء مناداة بصوت مرتفع، فأنزل الله الآية لتوضح أن الله قريب يسمع الدعاء ولو كان بصوت منخفض، إن الأدب مع الله يقتضي عدم رفع الصوت.

وقد ورد في كلام العرب:

فقلت ادعي وأدع فإنّ أندى لصوت أن ينادى داعيان[٢]

وأنشد كعب بن أسد الغنوي:

وداعٍ دعا يا من يجيب إلى النّدى فلم يستجبه عند ذاك مجيبُ[٣]

الوجه الرابع: أن أولئك الذي يقفون، وينادون ويدعون عند القبور يسألون أشياء لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، ومن المعلوم أن هذا شرك يخرج صاحبه من الملة، والذي يزعم أن هذا نداءٌ لا ينكر أن أولئك الناس قد خشعت جوارحهم، وتذللوا وخضعوا، وربما بكوا، وهذا عمل في الظاهر يدل على باطنهم، ولا يهمنا أن يسمى صنيعهم بعد ذلك نداءً أو دعاءً، فالنّتيجة واحدة.

يقول الشيخ عبدالله بن جبرين: ولهذا فإننا «لا نشك أنه والحالة هذه، يعتقد أنه يعطيه سؤله، ويدفع عنه السوء، وأنه يستطيع التصرف في أمر الله، ففعله هذا دليل على سوء معتقده، فلا حاجة لنا أن نسأله: هل أنت تعتقد أنه يضر وينفع من غير إذن الله»[٤].

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦.
وقد أخرج الحديث ابن جرير بسنده عند تفسير الآية ٢/ ١٥٨ (مجلد ٢). وذكره الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتاب: شرح حديث النزول (١٢٩) وقال: قال ابن أبي حاتم: ثنا يحيى بن المغيرة، ثنا جرير، عن عبده بن أبي برزة السجستاني، عن الصلت بن حكيم، عن أبيه، عن جده وذكره.

(٢) ذكره ابن فارس في معجم المقاييس باب النون والدال وما يثلثهما ص١٠٢١.

(٣) ذكره ابن جرير في التفسير ٢/ ١٥٨ (مجلد ٢).

(٤) الجواب الفائق على مبدل الحقائق ١٨.

والحق أن الظاهر في الغالب يدل على الباطن، فكل إناء بما فيه ينضح، ولا يعني هذا أننا نجزم في الحكم على الشخص بعينه، ولكن ذلك مؤشر خطر، ومنذر فساد، نسأل الله الهداية لجميع المسلمين.

الشبهة الثالثة:

قالوا: بأن صاحب القبر الذي يستغيثون به، ويدعونه أقرب إلى الله منهم، وهم بعيدون عن الله، فلا يمكنهم أن يدعوا الله عز وجل إلا بهذه الواسطة، فهي أقرب وأجوب منهم.

والجواب على هذا من وجوه:

الوجه الأول: يقال للمخالف: لماذا كان هذا المدعو أقرب إلى الله منك، وأنت بعيد عن المولى جل وعلا؟ فسيقول: لأنه كان ولياً لله ومتصلاً بربه، ونحن نقول له: ولماذا لا تكون أنت كذلك؟

ما الذي حال بينك وبين هذا المقام الرفيع؟ ألم تؤمر بذلك، وتوجه إلى هذه المنزلة؟ وما الغاية التي تسعى لها من الدعاء؟

أليست الغاية أن تكون مقبولاً محبوباً عند الله؟ فلماذا تطيل الطريق على نفسك وتسلك السبيل الطويل المخيف؟ إنك بفعلك هذا قد عصيت الله مرتين: مرةً حين لم تكن قريباً من الله عز وجل، كما كان من تعتقد فيه ذلك، ومرة أخرى حينما سلكت طريقاً مبتدعاً خالفت فيه هدي محمد ﷺ بحجة واهية، وتصور باطل، تزعم فيه صحة المسلك مع أنه مسلك فاسد، ومنهج منحرف.

الوجه الثاني: نسأل المخالف أيضاً: من الذي يعلم حالك؟

أهو الميت المدفون الذي تدعوه ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً؟ أم هو رب العالمين الذي يعلم السر وأخفى؟

«فإن كنت تظن أنه - المدعو من دون الله- أعلم بحالك وأقدر على عطاء سؤالك، أو أرحم بك، فهذا جهل، وضلال، وكفر، وإن كنت تعلم أن الله أعلم، وأقدر، وأرحم بك، فلم عدلت عن سؤاله إلى سؤال غيره؟

ألا تسمع إلى ما أخرجه البخاري وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هَمَّ أحدُكم بأمرٍ فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيركَ بعلمك، وأستقدرُك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاّم الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري، فاقدره لي، ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضِنِي به» قال: ويسمى حاجتَه(١).

أمر العبد أن يقول: أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم(٢).

الوجه الثالث: معلوم أن خير خلق الله، وأعلمهم، وأتقاهم وأخشاهم محمد ﷺ، ولما لحق بالرفيق الأعلى لم يثبت عن أحد من الصحابة ولا من السلف، أنه ذهب إلى قبره، وطلب منه الدعاء له.

وقد علم أن ذلك كان ممكناً ومشروعاً في حياته، أما بعد مماته فلم يشرع لأحد أن يطلب منه الدعاء، وهذا في أعظم الخلق، فما بالك بمن دونه، ثم إن المعروف أن الصحابة وسلف الأمة «كانوا إذا جاؤوا عند قبر النبي ﷺ يسلمون عليه، فإذا أرادوا الدعاء لم يدعو الله مستقبلي القبر الشريف، بل ينحرفون إلى القبلة، ويدعون الله وحده لا شريك له، كما يدعونه في سائر البقاع»(٣) فغيره من باب أولى ألاَّ يقف أحد عند قبره ليطلب منه الدعاء، أو يطلبه مباشرة كما هو حال الجهال الضلال.

---

(١) رواه البخاري في التهجد، باب ماجاء في التطوع مثنى مثنى، الفتح ٣/ ٤٨ (١١٦٢)، وفي الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة ١١/ ١٨٣ (٦٣٨٢) وأبوداود في الصلاة، باب في الاستخارة ٢/ ١٨٧ (١٥٣٨) والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في صلاة الاستخارة ٢/ ٣٤٥ (٤٨٠) وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ماجاء في صلاة الاستخارة ١/ ٤٤٠ (١٣٨٣) وأحمد في المسند ٣/ ٣٤٤.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٧٤، ٧٥.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٧٦.

الشبهة الرابعة:

عندما تذكر لهم النصوص الكثيرة الواردة في القرآن، وفي السنة بإخلاص الدعاء لله عز وجل، قالوا: هذا في دعاء العبادة وليس في دعاء المسألة، ويقولون في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[(١)]، أي: لا تعبدوا مع الله أحداً[(٢)].

والجواب من وجهين:

الأول: أن بين دعاء العبادة ودعاء المسألة تضمناً والتزاماً كما قد أسلفنا - فدعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، ودعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة.

والذي يعبد الله عز وجل هو في الحقيقة راغب راهب كما تقدم تقريره، فهو في النهاية سائل لله عز وجل، يسأله الجنة، ويتعوذ به من النار.

كما أن الذي يسأل الله تعالى مسألته يعلن فقره وحاجته وخضوعه لله عز وجل وهذه عبادة، فلا دليل إذن على التفريق بينهما، وإنما هو تحكم، ومن قال بهذا كان جاهلاً بأوضح حقائق هذا الدين العظيم.

الوجه الثاني: أن دعاء المسألة قد خص في القرآن بآيات كثيرة واحتج به على المشركين الذين إذا نزلت بهم النوازل، وحلت بهم المصائب لجأوا إلى الله، سائلين ربهم أن يكشف عنهم ما حل بهم.

فلماذا لا يكون هذا حالهم في السراء، كما هو في الضراء؟

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[(٤)].

---

(١) سورة الجن: ١٨.

(٢) أورد الإمام سليمان بن عبدالله رحمه الله شبهتهم هذه ثم أجاب عليها في كتابه النفيس تيسير العزيز الحميد ٢١٦ وما بعدها.

(٣) سورة الزمر: ٨.

(٤) سورة الأنعام: ١٧.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(٢) الآيات.

والآيات كثيرة جداً، وقد تقدم ذكر بعضها في بيان نوعي الدعاء، والمقصود: أن دعاء المسألة مذكور ومأمور به، ويحتج به على المشركين كما ذكرنا.

ولكن الملاحظ، وبكل أسف، أن المشركين الأوائل كانوا في الضراء يلجأون إلى الله، وأما الخلوف من هذه الأمة فلا يلجأون إلى الله حتى في الضراء، فماذا يقال عن هذه الحال الرديئة؟

لا شك أنه الجهل والهوى، وطرق الباطل المتشعبة، فنسأل الله أن يهدي ضال المسلمين.

الشبهة الخامسة:

يحتجون بأن الاستغاثة في الجملة ثابتة بالأحاديث المرفوعة، فقد صح أن العباد يوم القيامة يستغيثون بآدم أبي البشر، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى، وينتهون إلى محمد ﷺ بعد اعتذار كل واحد من الأنبياء، فهذا دليل على أن الاستغاثة بغير الله ليست بمنكر.

والجواب على هذا ما ذكره الإمام الصنعاني رحمه الله بعد أن أورد هذا الاعتراض حيث قال: هذا تلبيس، فإن الاستغاثة بالمخلوقين الأحياء فيما يقدرون عليه لا ينكرها أحد، وقد قال الله تعالى في قصة موسى مع الإسرائيلي والقبطي: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾(٣).

وإنما الكلام في استغاثة القبوريين وغيرهم بأوليائهم، وطلبهم منهم أموراً لا يقدر عليها إلا الله تعالى من عافية المريض وغيرها.

بل أعجب من هذا أن القبوريين وغيرهم من الأحياء من أتباع من يعتقدون فيه

(١) سورة فصلت: ٥١.
(٢) سورة الأنعام: ٦٣.
(٣) سورة القصص: ١٥.

يجعلون له حصة من الولد إن عاش، ويشترون منه الحمل في بطن أمه ليعيش، ويأتون بمنكرات ما بلغ إليها المشركون الأولون[١].

ثم ساق رحمه الله قصصاً عجيبة في تعلق القبوريين بالأموات، وبذل الدراهم عند قبورهم، والتقرب إليهم بقربات شتى فيه دلالة واضحة على أن القوم يعتقدون في أولئك النفع والضر.

ولا يخفى أن هذا شرك في التوحيد بجميع أنواعه ما بلغ إليه المشركون الأوائل، وقد يظن ظان أن الحال في فترة زمنية معينة قد انقضى عهدها.

والحق أن الجهل أصل كل بلاء وشر، فما عم إلا وعمت معه منكرات الأقوال والأعمال، والأخلاق، وزادت بزيادته أنواع من الضلالات، نسأل الله أن يمن على جميع المسلمين بالعلم النافع والعمل الصالح، ويصلح أحوالهم، ما ظهر منها وما بطن، ويردهم إليه رداً جميلاً، والله أعلم.

---

(١) تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد ٦٥.

نماذج من شعر المخالفين في باب الدعاء

ربما يقول قائل: ما لنا وللشعر؟ فإن الشعراء يتجوزون، ويقولون ما لا يفعلون، فإذا غلوا في مدحهم فيلتمس لهم العذر أن ذلك من المبالغات الشعرية وقد شاع ذلك عند الناس حتى تساهلوا في المخالفات الشعرية في المسائل العقدية.

ومعلوم في ديننا أن كل مسلم محاسب على قوله المخالف، وأن أقواله وأعماله تسجل له أو عليه قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١].

قال الإمام النووي رحمه الله: «اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة والسلامة لا يعد لها شيء»[٢].

وفي حديث معاذ رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكِلَتْكَ أمُّكَ، وهل يكُبَّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»[٣].

وسوف نعرض لنماذج من شعر المخالفين الذين غلوا في المدح، فأوصلهم إلى الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

أولاً: البوصيري[٤] في قصيدته المسماة نهج البردة، يقول فيها:

---

(١) سورة ق: ١٨.

(٢) رياض الصالحين ٤٤٥.

(٣) جزء من حديث طويل رواه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة ٥/ ١١ (٢٦١٦) وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٣٧.

(٤) هو محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري المصري ولد سنة ٦٠٨هـ، شاعر مشهور نسبته إلى بوصير من أعمال بني سويف بمصر، له ديوان شعر مطبوع وأشهر شعره البردة شرحت وعارضها كثيرون توفى سنة ٦٩٦هـ.
انظر فوات الوفيات ٣/ ٢٦٢، والأعلام للزركلي ٦/ ١٣٩.

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذُ به سواك عند حلول الحادث العَمَمِ
ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلّى باسم منتقم
فإن لي ذمة منه بتسميتي محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

ونحن نقول: لقد زل قلمه، فزلت قدمه في هذه الأبيات والعياذ بالله، وارتكب من المخالفات العقدية الظاهرة ما يلي:

١- جعل ملاذه إذا نزلت به الحادثات محمداً ﷺ ولا ملاذ له إلا هو -كما زعم- وهذا لا يكون إلا لله عز وجل وحده، فهو ملاذ الناس جميعاً.

أما النبي الهادي محمد ﷺ فهو بشر قال تعالى عنه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾(١).

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾(٢).

فهاتان الآيتان واضحتان في هذا الشأن، وأن محمداً ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وإنما هو عليه الصلاة والسلام نعمة منّ الله بها على الناس أجمعين، يبصرهم بالطريق، ويهديهم بإذن ربه إلى الملاذ والملجأ، وهو الله سبحانه ولا سواه ملجأ وملاذاً.

٤- أن البوصيري تضرع، ودعا، وأظهر الفقر والحاجة للنبي ﷺ بقوله: «يا أكرم الخلق» والحاجات إنما تطلب من الله ومن طلب من الحاجات مالا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك مع الله غيره.

٥- قوله: «ولن يضيق رسول الله جاهك بي» هذا سؤال منه أن يشفع له. قال الشيخ سليمان بن عبدالله: وهذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوه، وهو الجاه، والشفاعة عند الله، وذلك هو الشرك، وأيضاً فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله، فلا معنى

(١) سورة الأعراف: ١٨٨.
(٢) سورة يونس: ٤٩.

لطلبها من غيره، فإن الله تعالى هو الذي يأذن للشافع أن يشفع، لأن الشافع يشفع ابتداءً»[١].

٦- قوله: «فإن لي ذمه منه بتسميتي محمداً».

لا يخفى ما في هذا القول من الكذب والافتراء. يقول الشيخ سليمان رحمه الله: «كذب على الله وعلى رسوله ﷺ، فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة، لا بمجرد الإشراك في الاسم مع الشرك»[٢].

وقد فنّد الشيخ سليمان رحمه الله ما ورد في هذه القصيدة المشهورة، التي يتغنى بها كثيرون إلى اليوم من المخالفات والعظائم.

ثانياً: البرعيّ[٣].

يقول:

وحُلَّ عقدة كربي يا محمد من ... هَمّ على خطرات القلب مطردِ
أرجوك في سكرات الموت تشهدني ... كيما يهون إذ الأنفاس في صعدِ
وإن نزلت ضريحاً لا أنيس به ... فكن أنيس وحيد منه منفردِ
وارحم مؤلفها عبد الرحيم ومن ... يليه من أجله وانعشه وافتقدِ
وإن دعا فأجبه واحمِ جانبه ... من حاسدٍ شامت أو ظالم نكدِ

وقال في قصيدة أخرى:

يا سيدي يا رسول الله يا أملي ... يا موئلي يا ملاذي يوم يلقاني
هبني بجاهك ما قدّمت من زلل ... جوداً ورجِّح بفضل منك ميزاني
واسمع دعائي واكشف ما يساورني ... من الخطوب ونفّس كل أحزاني
فأنت أقرب من تُرجى عواطفه ... عندي وإن بعدت داري وأوطاني

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٢٢.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٢٣.

(٣) هو عبدالرحيم بن أحمد بن علي اليماني نسبة إلى بُرع (كعمر) جبل بتهامة، شاعر متصوف من اليمن أفتى ودرس، له ديوان شعر مطبوع، أكثره في المدائح النبوية، توفي سنة ٨٠٣هـ، انظر ملحق البدر الطالع ١٢٠ رقم (١١٣) والأعلام ٣/ ٣٤٣.

إنـي دعـوتُـك مـن نيـابتـي بـرع[١] وأنت أسمع من يدعون ذو شأنِ
فامنع جنابي وأكرمني وصِل نسبي بـــرحمـــة وكـــرامـــات وغفـــرانِ

لقد تجاوز البرعيّ حده، ووقع فيما حذر منه النبي ﷺ وهو الإطراء الموصل إلى الشرك، ومن أجل الخوف على الأمة المسلمة أن تسلك مسالك اليهود، والنصارى، حذر النبي ﷺ من إطرائه.

يقول عليه الصلاة والسلام: «لا تطروني كما أطرتِ النصارى عيسى ابن مريم»[٢].

قال أبو السعادات ابن الأثير في النهاية: «الإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه»[٣].

والمتأمل في شعر البرعي يجد أن هذا ينطبق تماماً على ما ورد في كلامه -نعوذ بالله من الزيغ والضلال -، وقد لعب الشيطان بعقول هؤلاء المادحين من أمثال البرعي ليصيد بحبائله خلقاً كثيراً فيكونوا من حزبه الخاسر، باسم الحب لمحمد ﷺ حتى يبرروا الأعمال والأقوال الشركية.

ولقد صنع الشيطان بالنصارى، وباليهود من قبلهم هكذا ولهذا يقول الشيخ سليمان رحمه الله: وهذا - يشير إلى شعر البرعي- هو الذي ادعته النصارى في عيسى عليه السلام - إلا أن أولئك أطلقوا عليه اسم الإله، وهذا لم يطلقه، ولكن أتى بلباب دعواهم وخلاصتها، وترك الاسم، إذ في الاسم نوع تمييز. فرأى الشيطان أن الإتيان بالمعنى دون الاسم أقرب إلى ترويج الباطل وقبوله عند ذوي العقول السخيفة، إذ كان من المتقرر عند الأمة المحمدية أن دعوى النصارى في عيسى عليه السلام كفر.

---

(١) نيابتين: موطن الشاعر في اليمن كما ذكر ذلك في ملحق البدر الطالع ص١٢٠، وبرع بوزن زُفر: جبل بنواحي زبيد، فيه قلعة يقال لها حُلبة. انظر معجم البلدان ١/ ٣٨٥، ومراصد الاطلاع ١/ ١٨٤، ١٨٥ وملحق البدر الطالع ص١٢٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ فتح الباري ٦/ ٤٧٨ (٣٤٤٥)، ورواه الدارمي في الرقائق، باب قول النبي ﷺ لا تطروني ٢/ ٢٢٩ (٢٧٨٧)، رواه أحمد في المسند ١/ ٢٣، ٢٤، ٤٧، ٥٥.

(٣) النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٢٣.

فلو أتاهم بدعوى النصارى اسماً ومعنى لردوه، وأنكروه، فأخذ المعنى وأعطاه البرعي وأضرابه، وترك الاسم للنصارى، وإلا فما ندري ماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث للخالق تعالى وتقدس، من سؤال مطلب، وتحصيل مأرب، فالله المستعان»(١).

وما أكثر ما تغنَّى القبوريون ومن على شاكلتهم من الرافضة والصوفية بمثل هذه القصائد، متبعين سنن اليهود والنصارى حذو القذة بالقذة، والجميع بينهم صلة وقربى، فالهوى إمامهم ، والجهل حاديهم، والشهوة قائدهم، والغفلة مركبهم، فنسأل الله السلامة من ذلك كله.

وقد ذكر الإمام سليمان بن عبدالله رحمه الله أنه حدث بعض الثقات أنه رأى في رابية صاحب مشهد من المشاهد:

هذه رابية البحر التيار، به أستغيث، وأستجير، وبه أعوذ من النار».

وقال بعضهم في قصيدة في بعض آلهتهم:

يا سيدي يا صفي الدين يا سندي ... يا عمدتي بل ويا ذخري ومفتخري
أنت الملاذُ لما أخشى ضرورته ... وأنت لي ملجأ من حادث الدهر

إلى أن قال:

وامنن علي بتوفيق وعافية ... وخير خاتمة مهما انقضى عمري
وكف عنا أَكُفّ الظالمين إذا ... امتدت بسوءٍ لأمر مؤلم نكرِ
فإنني عبدك الراجي بودك ما ... أمّلته يا صفي السادة الغُررِ(٢)

قلت: ما هو الشرك إن لم يكن مثل هذا شركاً؟ وأي شيء أعظم شركاً من هذه الاستغاثة وهذا الدعاء، الذي طلب فيه أهم خصائص الباري جل وعلا، من الملاذ والملجأ، والتوفيق، والعافية، وخير خاتمة، وكف الظلم، بل أعلن العبودية صريحة «فإنني عبدك الراجي..» في رجاء، وخضوع وانقطاع، نعوذ بالله من الشرك، والابتداع.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٢٥.

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد ٢٢٦.

الزيارة الشرعية للقبور

من المناسب أن أفرد هذه المسألة بالحديث ولو على سبيل الاختصار ليتضح لنا المقصود من الزيارة الشرعية، والفرق بينها وبين الزيارة البدعية والشركية، ويتجلى منهج السلف في ذلك، فإن للسلف منهجاً متميزاً في زيارة القبور، كما تميز في سائر الأمور.

فهم أولاً: يدعون للميت، ويخلصون في الدعاء له، في صلاة الجنازة، كما بيّن النبي ﷺ ذلك، وحث أمته على الدعاء.

وهم ثانياً: يزورون القبور للدعاء لمن فيها، وليس للدعاء عندها أو لطلب الدعاء من الأموات، وأعظم الخلق محمد ﷺ يسلمون عليه ويصلون عليه، ثم على صاحبيه رضي الله عنهما.

قال ابن تيمية رحمه الله: ولهذا كانت السنة عند الصحابة وأئمة المسلمين إذا سلَّم العبد على النبي ﷺ وصاحبيه أن يدعو الله مستقبل القبلة، ولا يدعو مستقبل الحجرة، والحكاية التي تروى في خلاف ذلك عن مالك مع المنصور باطلة لا أصل لها»[١].

وينفي الإمام ابن تيمية الخلاف بين الأئمة في ذلك فيقول: «ولم أعلم الأئمة تنازعوا في أن السنة استقبال القبلة وقت الدعاء، لا استقبال القبر النبوي، وإنما تنازعوا وقت السلام عليه.

فقال الأكثرون: يسلم عليه مستقبل القبر، وقال أبو حنيفة: يسلم عليه مستقبل القبلة مستدبر القبر، وكان عبدالله بن عمر يقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبو بكر، السلام عليك يا أبت، ثم ينصرف»[٢].

ثم يصل الإمام ابن تيمية إلى نتيجة مهمة من كلام عموم الأئمة فيقول: «فإذا كان الدعاء في مسجد رسول الله ﷺ أمر الأئمة فيه باستقبال القبلة كما روي عن الصحابة، وكرهوا استقبال القبر فما الظن بقبر غيره؟

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٦٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٦٦، وانظر إغاثة اللهفان ١/ ٢٠٠.

وهذا مما يبين ذلك، أن قصد الدعاء عند القبور ليس من دين المسلمين، ومن ذكر شيئاً يخالف هذا من المصنفين في المناسك أو غيرها فلا حجة معه بذلك، ولا معه نقل عن إمام متبوع، وإنما هو شيء أخذه بعض الناس عن بعض الأحاديث ظنوها صحيحة وهي باطلة، أو لعادات مبتدعة ظنوها سنة بلا أصل شرعي»[١].

والمقصود من الزيارة الشرعية ثلاثة أمور:

الأول: الاعتبار والاتعاظ، فهي تذكر بالآخرة، كما ورد في السنة.

الثاني: الإحسان إلى الميت بالدعاء له، فإن الانقطاع عنه هجر ونسيان له، كما إذا ترك زيارة الحي مدة طويلة تناساه.

وقد ذكر ابن القيم أن الميت، يسر بزيارة الحي كما يسر الحي بالزيارة، قال: ولهذا شرع النبي ﷺ للزائرين أن يدعوا لأهل القبور بالمغفرة والرحمة، وسؤال العافية فقط، ولم يشرع أن يدعوهم، ولا أن يدعوا بهم، ولا يقعد عندهم.

الثالث: إحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة، والوقوف عند ما شرعه الرسول ﷺ، فيحسن إلى نفسه وإلى المزور[٢].

فالدعاء للميت، والوقوف على قبره، ليسأل الله له التثبيت من هدي المصطفى ﷺ، فإنه صح عنه أنه كان إذا دفن الرجل من أمته قام على قبره وقال: «سلوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل»[٣].

ولم يكن من هدي النبي ﷺ تحري الدعاء عند القبور، ولا أثر عن أحدٍ من سلف الأمة أنه كان يتحرى الدعاء عند القبر، وإنما كان يحصل منهم الدعاء اتفاقاً لا قصداً، لعلمهم بأن المقابر ليست أماكن للدعاء، ولكن الخلوف من هذه الأمة يظنون أن الدعاء عند القبور أجوب منه في غيرها.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٦٧.

(٢) انظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/ ٢١٨.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف ٣/ ٥٥٠ ح (٣٢٢١).

يقول ابن تيمية رحمه الله: «أما أن يُتحرى الدعاء عند القبور، بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره، فهذا النوع منهي عنه، إما نهي تحريم ، أو تنزيه، وهو إلى التحريم أقرب»[١].

وقد فرق رحمه الله بين حصول الدعاء اتفاقاً، وبين القصد للمكان ليدعو عنده بضرب مثال فقال: إن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم أو صليب، أو كنيسة، أو كان يدعو في بقعة، وهناك صليب هو عنه ذاهل، أو دخل كنيسة ليبيت فيها مبيتاً جائزاً، ودعا الله في الليل، أو بات في بيت بعض أصدقائه، ودعا الله لم يكن بهذا بأس.

ولو تحرى الدعاء عند صنم، أو صليب، أو كنيسة، يرجو الإجابة بالدعاء في تلك البقعة لكان هذا من العظائم، بل لو قصد بيتاً، أو حانوتاً في السوق، أو بعض عواميد الطرقات يدعو عندها يرجو الإجابة بالدعاء عندها، لكان هذا من المنكرات المحرمة إذ ليس للدعاء عندها فضل، ففضل القبور للدعاء من هذا الباب، بل هو أشد من بعضه، لأن النبي ﷺ نهى عن اتخاذها مساجد واتخاذها عيداً بخلاف كثير من هذه المواضع»[٢].

ولا يخفى أن الذي يقصد القبر ليدعو عنده يعتقد في المكان الأفضلية له على غيره من البقاع، وقد صح عن النبي ﷺ النهي عن اتخاذ القبور مساجد، فكيف نوفق بين اعتقاد المخالف، وبين هدي النبي ﷺ؟ وإذا كانت المقابر أماكن يظن فيها إجابة الدعاء، فلم لم يشرع لنا ذلك؟!

اللهم إنها البدعة التي سلك المخالفون مسالكها، واختاروا سبلها الموصلة إلى الشرك والعياذ بالله.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ٢/ ٦٧٦.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٧٦، ومجموع الفتاوى ٢/ ٣١٠.

الدعاء عند الصوفية

تسلك أكثر الطرق الصوفية في المسائل العقدية مسالك شتى، وتتعدد أقوالهم بتعدد طرائقهم التي لا تحصى، وإذا استثنينا أوائل الصوفية ومن بقي على نهجهم، وهم قليل، فإنه يمكننا القول أن الجامع لمسالكهم في النصوص الشرعية أمران:

الأول: التأويل - لا بمعنى التفسير- وإنما بمعنى صرف ألفاظ النصوص عن معانيها الظاهرة، إلى معان بعيدة، والقرينة هي: الوسواس، والخواطر، وربما الأحلام في بعض الأحيان.

والنص - عندهم - له ظاهر وباطن، ومن ثم فالذين -عندهم- شريعة وحقيقة، والمعنى الباطن: هو الحقيقة التي يعلمها شيوخهم الذين لهم وحدهم حق التفسير لها، والمعرفة بها.

الثاني: الكشف، فهم يعتقدون أن هناك أموراً غيبية لا تتجلى وتكشف إلا لخواصهم وعارفيهم، وأما عامة الناس فلا يدركون ذلك.

وبهذا تكون حقائق الدين الواضحة الجلية، التي علمناها من هدي خير البرية ﷺ، ونقلها لنا سلف الأمة العدول تكون خاضعة -عند الصوفية- للنظر وفق مناهجهم، بالتأويل أو الكشف كما يزعمون.

يذكر لنا الإمام ابن الجوزي عن الإمام ابن عقيل قوله: جعلت الصوفية الشريعة اسماً، وقالوا: المراد منها الحقيقة.

قال: وهذا قبيح، لأن الشريعة وضعها الحق لمصالح الخلق، وتعبداتهم، فما الحقيقة بعد هذا سوى شيء واقع في النفس من إلقاء الشياطين، وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع»[1].

وليس الغرض من هذا المبحث الحديث عن عقائد الصوفية ومناهجهم، ولكن المراد بيان أصل الاستدلال والنظر عندهم في مسائل الاعتقاد ودلائلها، حتى لا

(١) تلبيس إبليس ٣٢٥ فصل في نقد مسالك الصوفية في تركهم الاشتغال بالعلم.

نستغرب ما سيأتي بعد التأويل والكشف في مسألة الدعاء من أنواع الخرافات وضروب الجهالات.

ولقد ضلوا في الدعاء ضلالاً مبيناً، وتفرقت بهم السبل، وتعددت بهم الأهواء، وحصل الضلال عندهم في هذا الباب من جانبين:

الأول: ضلالهم فيما سموه بـ «الغوث» وهي مسألة مرتبطة بالأولياء والولي إذا مات فإن الله يوكل بقبره ملكاً يقضي الحوائج بزعمهم، وتارة يخرج الولي نفسه من قبره فيقضيها.

الثاني: خبطهم العجيب في الأدعية التي تحمل عدداً من الأساطير، من الحلول، والغلو، والشركيات، وكذلك صيغة الأذكار، والطريقة التي يذكرون بها.

فأما الجانب الأول فيعنون بالغوث ما يقوله بعضهم: بأن في الأرض ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً يسمونهم (النجباء)، فينتقى منهم سبعون هم (النقباء)، ومنهم أربعون هم (الأبدال).

ومنهم سبعة هم (الأقطاب)، ومنهم أربعة هم (الأوتاد)، ومنهم واحد هو (الغوث)، وهو مقيم بمكة بزعمهم.

وأن أهل الأرض إذا نابهم نائبة في رزقهم ونصرهم فزعوا إلى الثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً، وأولئك يفزعون إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة.

والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الواحد، وبعضهم قد يزيد في هذا وينقص في الأعداد، والأسماء، والمراتب[١].

وقال ابن عربي عن هذا الغوث: «لا يكون منه بالزمان إلا واحد»[٢].

وقال في سبب تسميته: أما تسمية الغوث فمن حيث إغاثة العوالم بمادته ورتبته الخاصة»[٣].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٢٧/ ٩٧.

(٢) الفتوحات المكية ٢/ ٧،٨.

(٣) الفتوحات المكية ٢/ ٧،٨.

قلت: وفي التسمية بالغوث ما يدل على الاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله، ولا ندري من هو هذا المستغاث به وأين هو؟ لأنه كما قيل: ثلاثة أشياء ما لها من أصل: باب النصيرية، ومنتظر الرافضة، وغوث الصوفية الجهال[١].

وقد بين ابن تيمية رحمه الله أن الصوفية يقولون: إن مدد الخلائق في نصرهم ورزقهم بواسطة هذا الغوث، وهذا من جنس قول النصارى في المسيح عليه السلام، والغالية في علي رضي الله عنه.

وهذا كفر صريح يستتاب منه صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإنه ليس من المخلوقات لا ملك، ولا بشر، يكون إمداد الخلائق بواسطته[٢].

ولم يقف الأمر على الغوث فقط، فقد توسع هؤلاء الجهال الضلال فخلعوا هذه الأوصاف التي اخترعوها للغوث على مشائخهم، ووصفوهم بأنهم يغيثون من يستغيث بهم، ولو كان بينه وبينهم مسافات من القفار والبحار، فإنه إذا دعاه وهو في مصيبة، وقف هذا المدعو المستغاث به عليه وأنقذه من المصيبة.

فهم يتوجهون إلى هذا الولي بالدعاء، ويمدون إليه يد الحاجة والافتقار ويرفعون أكف الضراعة، وصيحات الاستغاثة حتى يغيثهم.

يذكر الشيخ عبد الرحمن دمشقية نقلاً عن كتبهم المعتمدة أن أحد مريدي الشيخ محمد معصوم كان راكباً على فرس، فجفلت فسقط على الأرض وبقيت رجله معلقة في الركاب، وجعلت الفرس تعدو به، حتى أيقن بالهلاك. فاستغاث بحضرة القيّوم[٣]، أي بالشيخ محمد المعصوم. قال فرأيته حضر وأوقفها، وأركبني.

ثم وقع نفس هذا المريد في البحر، ولم يكن يعرف السباحة، وكاد أن يغرق فناداه مستغيثاً به فحضر، وأخذه بيده وأنقذه، وكذلك استغاث به رجل في سفينة كادت تغرق به، فاستغاث بالشيخ فمد الشيخ يده، وكان جالساً بين أصحابه في بيته، فمد يده،

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٩٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٩٦.

(٣) لاحظ التسمية بالقيوم، من أعظم أسماء الله يسمى به هذا المعصوم الموهوم، نسأل الله السلامة من الضلال.

وانتشل السفينة وابتل كمه لذلك، مع أن المسافة بين المستغيث والمستغاث به شاسعة، فتعجب تلامذته وأصحابه حين رأوا كمه قد ابتل بعد أن مد يده في الهواء[١].

وقد ذُكرت قصص أخرى كثيرة تدل على ما وصل إليه هؤلاء الجهال من الانحراف في أهم وأخطر مسائل العقيدة، وهو انحراف أعظم من انحراف المشركين الأوائل، الذين عرفنا من القرآن أنهم كانوا يلجأون عند النوازل إلى الله جل وعلا، أما هؤلاء فملجأهم وملاذهم أشياخهم في السراء والضراء.

وقد علم أن الله وحده هو الذي يصيب برحمته من يشاء، ويكشف الضر عمن يشاء، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٣].

يقول ابن تيمية رحمه الله: «من أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب، ويستغيث به عند المصائب، يقول: يا سيدي فلان، كأنه يطلب منه إزالة ضره، أو جلب منفعة، وهذا حال النصارى في المسيح، وأمه وأحبارهم ورهبانهم.

ومعلوم أن خير الخلق وأكرمهم على الله نبينا محمد ﷺ، وأعلم الناس بقدره وحقه أصحابه، ولم يكونوا يفعلون شيئاً من ذلك لا في مغيبه، ولا بعد مماته.

وهؤلاء يضمون إلى الشرك الكذب، فإن الكذب مقرون بالشرك، وقد قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾[٤].

ثم ذكر من كذبهم أن أحدهم يقول عن شيخه: أن المريد إذا كان بالمغرب وشيخه بالمشرق، وانكشف غطاؤه رده عليه، وأن الشيخ إن لم يكن كذلك لم يكن شيخاً، وقد

(١) انظر كتاب النقشبندية عرض وتحليل للشيخ عبدالرحمن دمشقية ص٤٨، وقد أخذ هذه القصص من كتبهم المعتمدة لدى أكثر الصوفية مثل جامع كرامات الأولياء، والمواهب السرمدية، والأنوار القدسية.

(٢) سورة يونس: ١٠٧.

(٣) سورة فاطر: ٢.

(٤) سورة الحج: ٣٠-٣١.

تغويهم الشياطين كما تغوي عباد الأصنام، كما كان يجري في العرب في أصنامهم، ولعباد الكواكب وطلاسمها من الشرك والسحر.

فكثير من هؤلاء قد يجري، له نوع من ذلك لا سيما عند سماع المكاء والتصدية، فإن الشياطين قد تنزل عليهم، وقد يصيب أحدهم كما يصيب المصروع من الإرغاء والإزباد، والصياح المنكر، ويكلمه بما لا يعقل هو والحاضرون، وأمثال ذلك مما يمكن وقوعه في هؤلاء الضالين»[(١)].

والاستغاثة واللجأ عندهم ليس مقصوراً على المشايخ الأحياء، وإنما تقع حتى بعد موته، يذكر أحدهم أن إمداد الشيخ نقشبند لأصحابه حاصل لهم في حياته وبعد موته فلا فرق بين حياته وموته في إمداد أصحابه بكل شيء، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾[(٢)].

مع أن الآية خاصة بالنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، لكن لا مانع عندهم من الانتساب إلى ما اختص به، فهم قد نسبوا إلى أنفسهم صفات وخوارق قد اختص بها الله عز وجل[(٣)].

ومن ذلك أن أولياءهم يخلّصون من التجأ إليهم، ولاذ بحماهم من النار والعذاب، فيقول أحدهم أنه يقف عند النار فلا يدع أحداً ممن يرتجيه ويدعوه يدخلها، أو نحو هذا، وقد قال تعالى لسيد المرسلين صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾[(٤)].

يقول الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله: فإذا كان النبي ﷺ لا يقدر على تخليص أحد من النار، فكيف بغيره؟ بل كيف بمن يدعي نفسه أنه هو يفعل ذلك»[(٥)].

ولهذا نقل عن البيجوري أنه يقول: قيل: من لم تظهر كرامته بعد موته كما كانت في حياته فليس بصادق. وقال الشعراني: ذكر لي بعض المشائخ أن الله تعالى يوكل بقبر الولي ملكاً يقضي الحوائج، وتارة يخرج الولي من قبره فيقضيها بنفسه»[(٦)].

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٨٢، ٨٣.
(٢) سورة آل عمران: ١٤٤.
(٣) النقشبندية عرض وتحليل ٤٩.
(٤) سورة الزمر: ٢٠.
(٥) تيسير العزيز الحميد ٢٢٠.
(٦) شرح جوهرة التوحيد ١٥٣.

ومن هذا الكلام نفهم أن البيجوري يدعو إلى الالتجاء بأصحاب القبور لقضاء الحوائج، وهذا هو الشرك المنافي للتوحيد، الذي سدَّ النبي ﷺ جميع الذرائع الموصلة إليه.

وقد عرف الصحابة رضي الله عنهم هذا المبدأ العظيم، الذي يهدف إلى قطع علائق الشرك، صغيرها وكبيرها، فهذا عمر رضي الله عنه يقول وهو يقبل الحجر الأسود: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك[١].

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا لا يسن باتفاق الأئمة أن يقبل الرجل أو يستلم ركني البيت اللذين يليان الحجر ولا جدران البيت، ولا مقام إبراهيم، ولا صخرة بيت المقدس، ولا قبر أحد من الأنبياء والصالحين.

حتى تنازع الفقهاء في وضع اليد على منبر سيدنا رسول الله ﷺ لما كان موجوداً، فكره مالك وغيره، لأنه بدعة، وذكر أن مالكاً لما رأى عطاء فعل ذلك لم يأخذ عنه العلم، ورخص فيه أحمد وغيره، لأن ابن عمر رضي الله عنهما فعله.

وأما التمسح بقبر النبي ﷺ وتقبيله فكلهم كره ذلك ونهى عنه، وذلك لأنهم علموا ما قصده النبي ﷺ من حسم مادة الشرك، وتحقيق التوحيد، وإخلاص الدين لله رب العالمين»[٢].

فانظر أخي القارئ كيف حرص السلف على حماية جناب التوحيد وهم أعلم بهدي النبي ﷺ وأحرص على دعوة الناس إليه، والعمل به، فكيف سوغ المخالفون لأنفسهم كل عمل مخالف، وابتدعوا في الدين ما ليس منه ولهذا تطور الأمر بهم إلى ما وصل إليه حالهم من الدعاء والاستغاثة بغير الله عز وجل.

أما الجانب الثاني: فهو ما جرى للصوفية من خبط شديد في الأدعية والأذكار، ومعلوم أن الذكر والدعاء بينهما تلازم ظاهر، فالذاكر يكون داعياً وإن لم يطلب مسألته،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود جـ٣ ص٤٦٢ برقم (١٥٩٧) ورواه مسلم في الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود بالطواف ٢/ ٩٢٥ (١٢٧٠) وأورده الإمام الذهبي في ترجمة الإمام محمد بن محمد بن مخلد (ت٤٦٨) في سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤١١-٤١٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٧٩، ٨٠.

لأن مضمون الذكر طلب الأجر والثواب، وقد صح: «أن أفضل الدعاء الحمد لله»[(١)] وثبت عن النبي ﷺ قوله: «خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»[(٢)].

والذكر عبادة توقيفية ليس لأحد أن يبتدع أذكاراً من عنده، ولا سيما إذا خالفت الكتاب والسنة، وليس لأحد أن يبتدع طريقة في الذكر لم ترد في الشرع.

فمن حيث الأدعية الصوفية نجد الغلو والحلول في أدعيتهم والشرك بدعاء غير الله، ومنها على سبيل المثال قولهم:

إلهي استهلك كليتي في كليتك، وأمد أوليتي بأوليتك، حتى أشهد أوليتك في أوليتي، وأخريتك في أخريتي، وظاهريتك في ظاهريتي، وباطنيتك في باطنيتي، وقابليتك في قابليتي، وأنت في أمنيتي، وهويتك في هويتي.

ومنها قولهم: اللهم صل وسلم وبارك على طلعة الذات المطلسم، والغيث المطمطم، لاهوت الجمال، وناسوت الوصال، وطلعة الحق، هوية إنسان الأزل في نشر من لم يزل، من أقمت به نواسيت الفرق إلى طريق الحق، فصل اللهم به منه فيه.

ومنها قولهم: اللهم صل على محمد الذي تجسد فيه الله، اللهم صل على نفسك التي ظهرت وتظهر في صورة الكائنات، اللهم أسألك بجميع ما تعلم لنفسك من لا يعلمه منك غيرك، أن تنفعني ياذا الجلال والإكرام في شهود تجليات ذاتك بالعين التي لا تحجب عنها شيء في الأرض ولا في السماء.. إلخ ما قالوا من الهذيان، والكفر والعياذ بالله[(٣)]، ومن حيث الذكر يذكرون الله بالاسم المفرد:

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك في كتاب الدعاء ١/ ٥٠٣ من حديث جابر رضي الله عنه وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الترمذي في الدعوات، باب في الدعاء يوم عرفة ٥/ ٥٧٢ (٣٥٨٥) وقال: حديث غريب من هذا الوجه، وحماد بن أبي حميد هو: محمد بن أبي حميد، وهو: أبو إبراهيم الأنصاري المدني، وليس بالقوي عند أهل الحديث. وقد جاء بلفظ مقارب بإسناد مرسل في موطأ مالك في جامع الحج ١/ ٢٩٢ من حديث طلحة بن عبدالله بن كريز، وحسنه الألباني في الأحاديث الصحيحة رقم (١٥٠٣) المجلد الثالث.

(٣) انظر هذه الأدعية وغيرها من أدعية الصوفية في عوارف المعارف على هامش الإحياء ٢/ ٢٢٦ =

الله . الله ، ويتركون الذكر بما ورد به الشرع ومن أعظمها : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

ذكر ابن الجوزي رحمه الله عن الشبلي أن شاباً سأله فقال: يا أبا بكر- يعني الشبلي[١] - لم تقول : الله ، ولا تقول : لا إله إلا الله؟

فقال الشبلي : استحي أن أوجه إثباتاً بعد نفي .

فقال الشاب : أريد حجة أقوى من هذه فقال : أخشى أني أوخذ في كلمة الجحود ، ولا أصل إلى كلمة الإقرار .

قال ابن الجوزي رحمه الله معلقاً على هذا الهراء : انظروا إلى هذا العلم الدقيق!! فإن رسول الله ﷺ كان يأمر بقول : لا إله إلا الله ويحث عليها ، وفي الصحيحين عنه أنه كان يقول دبر كل صلاة : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[٢] .

فانظروا إلى هذا التعاطي على الشريعة ، واختيار ما لم يختره رسول الله ﷺ»[٣] .

قلت : لا أدري من أين أتى لهذا المبتدع هذا الورع ، الذي يخدع به أتباعه ويسميه حياء ثم يروغ بعد ذلك فيسميه خوفاً ، حتى يقنع مريديه؟! وهل هو أتقى وأورع من الأنبياء جميعاً ، من أولهم إلى خاتمهم صلوات الله عليهم أجمعين ، الذين طالما رددوا

= والتصوف بين الحق والخلق ١٦٦ ، وهذه هي الصوفية ١٥٩ .

(١) هو دلف بن جَحْدر الشبلي أبو بكر ، البغدادي ، شيخ الطائفة ولد سنة ٢٤٧هـ أصله من خراسان ونسبته إلى قرية شبلة ، سلك مسالك الصوفية ، وله شعر في الغزل والمحبة على طريقتهم الفاسدة ، وله أقوال كالقول الذي أشرنا إليه قال الذهبي : «كان يحصل له جفاف دماغ وسكر ، فيقول أشياء يعتذر عنه فيها ، توفى سنة (٣٣٤)هـ انظر سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٦٧ ، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٦٦ ، والأعلام ٢/ ٣٤١ .

(٢) تتمة الحديث : «له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» .

رواه البخاري في الأذان باب الذكر بعد الصلاة ٢/ ٣٢٥ (٨٤٤) ومسلم في المساجد ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة ١/ ٤١٤ (٥٩٣) . وأبو داود في الصلاة ، باب ما يقول الرجل إذا سلم ٢/ ١٧٢ (١٥٠٥) .

(٣) تلبيس إبليس : ٣٨٠ .

هذه الكلمة العظيمة، ودعوا أقوامهم إليها، ثم يأتي هذا المتحذلق - ويا لسوء الحذلقة- فيقول: إنه يستحي أن يقولها.

ولما لم يقتنع السائل بكلامه الأول أوحى إليه شيطانه بما لا يعجز عن مثله من الحيل والتلبيس: فقال: أخشى أني أوخذ في كلمة الجحود، فلماذا لا يخشى الأنبياء على أنفسهم وعلى أتباعهم ذلك؟!

وهل هو أخوف على الأمة من الأنبياء وأرحم بهم؟! أم أنه الدجل والضحك على الناس؟ اللهم إن هذا ضلال عظيم، وخطر جسيم، منيت به الأمة من أهل الأهواء، وأصحاب الزيغ والضلال، بوحي من الشيطان يلبس به على أوليائه حينما صدَّق عليهم ظنه، عافانا الله من ذلك كله، ونسأل الله الثبات على دينه.

أما طريقتهم في الذكر، فهم على طرائق مختلفة، منهم من جعل الذكر ذكراً قلبياً اعتماداً على حديث: «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي» وهو حديث غير صحيح، كما جاء في «أسنى المطالب».

ومنهم: من جعل الذكر صياحاً يرفعون به أصواتهم.

ومنهم: من قرن ذلك بالتصفيق والرقص، بل والموسيقى، والدف، وآلات اللهو، ويصرخون بكلمات بلهاء، كأن يرددوا كلمة «ها» و «هو» و«هي» ونحو ذلك، مما يحصل من الوجد والسكر والإغماء.

يقول أحد علماء الأزهر الشيخ يوسف الدجوي: «إن الذين يعملون هذه الأعمال المنكرة، داخلون فيمن قال الله فيهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[١]، ومن الذين اتخذوا آيات الله هزوا، وسيقال لهم: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[٢]»[٣].

وإذا تأملنا ما يجري في واقع الصوفية من المنكرات والمفاسد، وجدنا أنه لا صله لها بدين الإسلام، الذي ينهى عن الرذائل ويأمر بالفضائل، وإنما هي متصلة بأساليب

(١) سورة الأنفال: ٣٥.
(٢) سورة التوبة: ٦٥.
(٣) انظر التصوف بين الحق والخلق ١٦٠.

وثنية قديمة، وممتدة في أودية الشهوات، ومنعطفات النفوس المريضة بحب المنكرات والمفاسد.

يقول الدكتور زكي مبارك: «وقد لاحظت أن مجالس الصوفية كانت تنقلب أحياناً إلى مجالس فنية، فهي مجالس تعقد ظاهراً لذكر الله، والغرض منها الغناء.

فقد كان في حي الحسين منزل تقام فيه حضرة كل يوم ثلاثاء، وكان ذكر الله في الصورة الشكلية يتولاه طائفة من العجزة الدراويش، أمام نظام المجلس، فيقوم على فنه الشيخ حسن الحويحي، وكان منشداً حلو الصوت، وكان ينشد في الحضرة أبياتاً من شعر ابن الفارض مثل:

مـا بيـن معتـرك الأحـداق والمهـج　　　أنـا القتيـل بـلا إثـم ولا حـرج

ثم يندفع فيغني «آنست يانور الوجود، شرفت يا روح البهجة، بعد البعاد، أنا قلبي عليك» أو الكمال في الملاح صدف.. إلخ الأغاني..

وكنت ألاحظ أن أهل ذلك المنزل يجعلون ليلة الحضرة ليلة مضيف، فيجمعون خلانهم حول الموائد.

وكان المستمعون يقترحون «الأدوار» على نحو ما كانوا يفعلون في حفلات الطرب والأنس، وقد اقترح بعضهم دور «حوّد من هنا وتعال عندنا» فغضب الشيخ الحويحي، وقال: نحن لسنا في الأزبكية.. أما أنا فكنت أفهم من شواهد الحال أن الأزبكية ليست منهم ببعيد!»[1]

ثم أفاض بعد ذلك الدكتور زكي مبارك، لينقل طرفاً مما هنالك من القصيد والغزل والاستغاثات ونحوها من المهالك.

ومن أغانيهم قولهم:

إلٰهـي تـوسلنـا بجـاه محمـد　　　نبيـك وهـو السيـد المتـواضـع..

الخ القصيدة، ثم ينفرد رئيس المنشدين بعد الوصول إلى نغمة الرصد، أو إلى النغمة التي ينتهي عندها إنشاد القصيدة بالاستغاثة، «أغثنا أدركنا يا رسول الله»[2]... إلى آخر ما يفعلون من المنكرات.

(١) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ٢/ ١٩٤.

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٩٤.

هذا هو الدعاء عند الصوفية، وما ذكرنا مجرد أمثلة من الأدعية والأذكار الخرافية، والتي قامت على طرق بدعية، ومسالك شيطانية.

وقد علمت ما عندهم من الاستغاثة بالشيوخ، وهم يسمون ما يجري من الأباطيل والمخالفات للشرع المطهر، يسمونها كرامات ومقامات وأحوال، ويصل الأمر بهم إلى أن يكون هم أحدهم رضا شيخه ولا يهمه رضا ربه، ويخاف إذا سئل بشيخه ولم يجب، ما لا يخاف إذا سئل بربه، فنسأل الله العافية والسلامة من الزيغ والفساد.

الدعاء عند الرافضة

إن الحديث عن الدعاء عند الرافضة مرتبط بمعرفة عقيدتهم في الأئمة، وما لهم من المنزلة التي تفوق منزلة الأنبياء والمرسلين، بل والملائكة أجمعين.

فللأئمة في اعتقاد الرافضة خصائص كثيرة، من أبرزها علم الغيب والعصمة، والتصرف في الحوادث الكونية، ونسبة كثير مما يجري إلى الأئمة.

ولا يخفى أن هذا الاعتقاد يعد شركاً في الربوبية، فالغيب لا يعلمه إلا الله -جل وعلا- وما يجري في الكون بتقدير الله، وليس بتقدير أحد من خلقه، والمعصوم من عصمه الله فقط من الملائكة والأنبياء والمرسلين، فكيف خلع الرافضة هذه الألقاب والمراتب وألبسوها الأئمة؟! سبحانك يا رب هذا بهتان عظيم!

وقد تحدث الأخ الدكتور ناصر القفاري حفظه الله بتفصيل موثق، وكلام محقق، معتمداً على كتب القوم المعتمدة عندهم، تحدث عن أصول الاثني عشرية، كواحدة من أكبر فرق الشيعة.

وقد خص موضوع الأئمة عندهم بالحديث في خمسة مباحث، بيَّن في الأول منها قولهم: أن الرب هو الإمام، وفي الثاني: اعتقادهم أن الدنيا والآخرة للإمام، وفي الثالث: قولهم: أن السحاب والرعد هو من أمر الأئمة ، ومسخر للأئمة- أي إسناد الحوادث الكونية إلى الأئمة- وفي الرابع: قولهم بحلول جزء إلهي في الأئمة، وفي الخامس: زعمهم بأن الإمام يؤثر بالنفع والضر(١).

والشيعة في زماننا لهم عناية فائقة بقبور أئمتهم التي يسمونها «مشاهد»، فقد نصبوا عليها القباب(٢)، وأقبل أتباعهم من كل حدب وصوب، يتهافتون على تلك المشاهد لينالوا البركة من خلال التمسح بأعتابها كما زعموا، بل وينالوا الأجر من خلال تعظيمها والدعاء عندها، ويتم لهم بزعمهم تحقيق مطالبهم وإجابة سؤلهم.

---

(١) انظر كتابه النفيس: أصول مذهب الشيعة الإمامية الأثنى عشرية ٢/ ٥٠٧-٥٢٤.

(٢) انظر كلام الخميني عن القبب والمراقد في كشف الأسرار ص٨٠-١٢٠.

ومن المعلوم كما يذكر الإمام ابن تيمية أن المشاهد «لم تكن في العصور المفضلة، وإنما ظهر ذلك وكثر في دولة بني بويه، لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب، وكان بها زنادقة كفار مقصودهم تبديل دين الإسلام.

وكان في بني بويه من الموافقة لهم على بعض ذلك.. فبنوا المشاهد المكذوبة كمشهد علي رضي الله عنه وأمثاله، وصنف أهل الفرية الأحاديث في زيارة المشاهد والصلاة عندها، والدعاء عندها، وما يشبه ذلك، فصار هؤلاء الزنادقة، وأهل البدع المتبعون لهم يعظمون المشاهد ويهينون المساجد، وذلك ضد دين المسلمين، ويستترون بالتشيع»(١).

ولست هنا بصدد الحديث عن أصول الشيعة، وخصوصاً (الإمامة)(٢). وما يتفرع عن هذا الأصل عندهم، ولكن المقصود التنبيه على عقيدتهم في الأئمة على وجه الإجمال، حتى نعرف منهجهم في الدعاء والاستغاثة بأئمتهم، لأنهم إذا كانوا بالمنزلة المشار إليها آنفاً، فلا غرو أن يكونوا -والحالة هذه- محط آمالهم ومعقد رجائهم، وملجأ المتضرعين منهم، وغياث المستغيثين، يفرجون - بزعمهم - كرباتهم، ويسمعون صرخاتهم وأناتهم، ويستجيبون دعواتهم، وهم لا يعدون طلب الحاجة من الأموات شركاً.

فهذا إمامهم في هذا العصر، وزعيم ثورتهم (الخميني) يعترض على أهل السنة بقوله: «يقولون: إن طلب الحاجة من الأموات شرك، لأن الرسول، أو الإمام بعد موته إنما هو جماد، ولا يرجى منه نفع ولا ضر، وفي الرد على ذلك نقول: لا، إنهم لم يحددوا لنا أبعاد الشرك والكفر حتى نعد ما يريدونه هم شركاً».

وبعد ما تبين أن الشرك هو طلب الشيء من غير رب العالمين على أساس كونه إلهاً، فإن ما دون ذلك ليس بالشرك، ولا فرق في ذلك بين حي وميت، فطلب الحاجة

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٦٧.

(٢) الأمامة تعد عندهم الأصل الرابع من أصول الدين.

انظر كشف الأسرار للخميني ص١٢١.

الحاجة من الحجر، أو الصخر، ليس شركاً، وإن يكن عملاً باطلاً ثم إننا نطلب المدد من الأرواح المقدسة للأنبياء، والأئمة ممن قد منحهم الله القدرة[١].

ويظهر من كلام هذا الضال ما يلي:

١- يحاول فلسفة تعريف الشرك، جرياً على طريقة أسلافه ومنهج أشياخه ملاحدة الباطنية، من أمثال ابن سينا، والنصير الطوسي، وغيرهما، وقد وصفهم في مقدمة كتابه بالشيوخ الكبار، ولا يخفى على المطلع على عقائدهم أنهم يحاولون دائماً قلب الحقائق، ومنها أنهم جعلوا الشرك توحيداً، والتوحيد الذي جاءت به الرسل شركاً، والخميني يسير على خُطى أساتذته ويدور في قافلة الشيطان، التي تغذ السير في كل زمان.

٢- أنه يعد طلب الحاجة والاستغاثة بالأئمة أمراً مشروعاً وعملاً صالحاً مبروراً، ويربي أتباعه على ذلك حتى ينشأ الناشئ منهم على هذه العقائد الفاسدة، فتصبح عنده يقيناً جازماً، وعملاً عظيماً صالحاً، وبناء على هذا فإذا لم يكن هذا، هو الشرك بعينه، فإنه لا يوجد مشرك على وجه الأرض على حد زعمهم والعياذ بالله.

وإذا كانت هذه منزلة الأئمة عندهم، فلم لا يصل الأمر إلى أبعد من مجرد طلب الحوائج؟ لا سيما والأئمة كما زعموا يعلمون ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وكل شيء بأيديهم.

وهذه منازل يستحق صاحبها أن يطاع فلا يعصى، ويخاف منه ويرجى ويعتمد عليه، وتكون الإنابة إليه، وهذا ما يشاهد عند ما سموه بالمشاهد.

عقد صاحب «الكافي» باباً بعنوان: «باب أن الأرض كلها للإمام» مما جاء فيه: عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: أما علمت أن الدنيا والآخرة للإمام يضعها حيث يشاء، ويدفعها إلى من يشاء، جائزة له ذلك من الله[٢]، ولهذا فإنهم يقولون: «لا يقبل الدعاء إلا بأسماء الأئمة، قالوا: لا يفلح من دعا الله بغير الأئمة، ومن فعل ذلك فقد هلك».

---

(١) انظر كشف الأسرار، تأليف روح الله الخميني ص٤٩، بتقديم الأخ الدكتور محمد الخطيب.

(٢) للإمام عند الرافضة المتقدمين والمتأخرين مقام لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل. انظر كتاب الحكومة الإسلامية للخميني ص٥٢ ط القاهرة ١٩٧٩.

جاء في أخبارهم عن الأئمة: من دعا الله بنا أفلح، ومن دعا بغيرنا هلك واستهلك.

يقول الدكتور ناصر القفاري معقباً على الكلام: «وبلغت جرأتهم في هذا الباب أن قالوا: إن دعاء الأنبياء استجيب بالتوسل، والاستشفاع بهم صلوات الله عليهم أجمعين»[١].

ولا غرابة فيما نسبوه وهم يعتقدون: أن الناس لا يهتدون إلا بالأئمة، وأنهم الوسائل بين الخلق وبين الله، وأنه لا يدخل الجنة إلا من عرفهم، وهذا كلام له صلة وثيقة بتأليه الأئمة، وهي مسألة قام عليها دين الرافضة من الأصل.

ولهذا يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: «إن الرافضة أكذب طوائف الأمة على الإطلاق، وهم أعظم الطوائف المدعية للإسلام، غلواً وشركاً، ومنهم كان أول من أدعى الإلهية وادعى نبوة غير النبي ﷺ كمن ادعى نبوة علي، وكالمختار بن أبي عبيد الثقفي[٢]، ادعى النبوة.

ثم يليهم الجهال كغلاة ضلال العباد، وأتباع المشايخ[٣] فإنهم أكثر الناس تعظيماً للقبور بعد الرافضة، وأكثر الناس غلواً بعدهم»[٤].

وإذا كان الشرك عند المشركين الأوائل في أوقات الرخاء، أما عند نزول البلاء فإنهم يدعون الله مخلصين له الدين، فإن الرافضة لا يفرقون بين الرخاء والضراء، بل يلجأون في جميع أحوالهم إلى أئمتهم، والشدة عندهم لا ترفع إلا بالدعاء بأسماء الأئمة.

---

(١) أصول مذهب الشيعة الأثني عشرية ٢/ ٤٤٥.
وانظر في رواية الكليني نفس المرجع، فقد ساق ذلك من كتاب الكافي.

(٢) المختار أبي عبيد الثقفي الكذاب، كان من كبراء ثقيف وذوي الرأي وقلة الدين. قال الذهبي: «وقد قال النبي ﷺ: يكون في ثقيف كذاب ومبير» فكان الكذاب هذا، ادعى أن الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب، وكان المبير الحجاج، فبحهما الله. هلك سنة ٦٧هـ، وكان مقتله في الكوفة على يد مصعب بن الزبير بعد معركة وحصار طويل انظر سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٣٨، والأعلام ٧/ ١٩٢.

(٣) يعني مشايخ الصوفية: أصحاب الطرق البدعية وقد سبق الحديث عنهم.

(٤) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٧٥-١٧٦.

ولهذا فإن الأنبياء -كما زعموا- يدعون باسم الأئمة إذا نزل بهم البلاء، فيفرج عنهم، وينسون ذلك فينزل بهم البلاء حتى يدعوا باسم الأئمة فيكشف عنهم.

تقول إحدى رواياتهم عن الرضا عليه السلام قال: لما أشرف نوح عليه السلام على الغرق دعا الله بحقنا، فدفع الله عنه الغرق، ولما رمي إبراهيم عليه السلام في النار دعا الله بحقنا، فجعل الله النار عليه برداً وسلاماً.

وأن موسى عليه السلام لما ضرب طريقاً في البحر دعا الله بحقنا فجعله يبساً، وأن عيسى عليه السلام لما أراد اليهود قتله دعا الله بحقنا فنجي من القتل فرفعه الله»[١].

إذن فدعوات الأنبياء لم تستجب، إلا عندما دعوا بحق الأئمة، وفي المقابل ما حصل لآدم ويونس من ابتلاء، إنما هو بسبب موقفهم من الأئمة، فلما دعوا بحق الأئمة، خرجوا من المحنة والبلاء.

فآدم عليه السلام - كما يفترون - لما أسكنه الله الجنة، مثل له النبي ﷺ، وعلي، والحسن، والحسين صلوات الله عليهم، فنظر إليهم بحسد، ثم عرضت عليه الولاية فأنكرها، فرمته الجنة بأوراقها، فلما تاب إلى الله من حسده وأقر بالولاية، ودعا بحق الخمسة: محمد، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين صلوات الله عليهم، غفر الله له، وذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[٢].

كما ادعوا أن يونس عليه السلام، حبسه الله في بطن الحوت لإنكار ولاية علي بن أبي طالب، ولم يخرجه حتى قبلها»[٣].

وإننا لنطرح هذا السؤال وهو: إذا كان الأمر كما يفترون، فلماذا لم يأمر الله العباد بالدعاء بأسماء الأئمة؟ بل قد ورد الأمر بالدعاء بأسماء الله الحسنى فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[٤]، وورد الأمر بإخلاص الدعاء لله عز وجل، فأين أدعية هؤلاء الكذبة من أوامر الله الواضحة في القرآن وعلى لسان رسوله ﷺ!

(١) ساق هذه الروايات الدكتور ناصر في كتابه: أصول مذهب الشيعة نقلاً عن مصادرهم المعتمدة ٢/ ٤٤٦.

(٢) سورة البقرة: ٣٧.

(٣) أصول مذهب الشيعة الاثني عشرية ٢/ ٤٤٦.

(٤) سورة الأعراف: ١٨٠.

ولا شك أن «تربية الشيعي من خلال أدعيته، ومناجاته لله على هذا المنهج هي تربية خطيرة، حيث تزرع في قلبه ومشاعره الاتجاه إلى غير الواحد القهار - وتنمي في نفسه التوجه إلى البشر لا إلى خالق البشر، ويترعرع في هذا المحصن الوثني لينشئ أولاده وأحفاده على هذا الطريق، ولربما ينسى ذكر الله سبحانه أصلاً لأن ذكر الأئمة في لسانه، ووجودهم في قلبه حين الدعاء والتوجه»[١].

إن دين الإسلام يربي في أتباعه الصادقين الاعتماد على الواحد الأحد، والتعلق بذي العزة والعظمة، ذي القوة المتين، ودعائه وحده لا شريك له.

وما أعطاه الشيعة لأئمتهم من المراتب، أو نشأوا عليه من تعليم أئمة الضلال، أمر لا يتفق مع قواعد وأصول هذا الدين الأساسية، ولم يكن أحد من أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم، وهم أعلم الناس بهدي نبيهم يفزع عند الشدائد، فينادي، ويدعو النبي ﷺ وهو أعظم الناس قدراً، وأعلاهم مكانة ووجاهة عند الله، فكيف بمن دونه؟!

بل لم يأمر النبي ﷺ أحداً بذلك، وإنما أمرهم بالفزع إلى الله، وسنَّ لهم أدعية الكرب، مثل ما عرف عنه ﷺ أنه كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله، العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش الكريم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض، ورب العرش العظيم»[٢].

وكان يقول ﷺ إذا حزبه أمر: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»[٣].

فمن أين أتى أئمة الشيعة، دعاة الضلالة والخرافة، بما سبق ذكره من الدعاء بالأئمة، ونحوه، ومن الاستغاثة بالأئمة فيما لا يقدر عليه غير الله وحده.

وهذه إحدى روايات الشيعة تخصص وظيفة كل إمام كي يستغاث به في أمر معين:

تقول الرواية: «أما علي بن الحسين: فللنجاة من السلاطين، ونفث الشياطين.

(١) أصول مذهب الشيعة الاثني عشرية ٢/ ٤٤٧.

(٢) رواه البخاري في الدعوات، باب الدعاء عند الكرب ١١/ ١٤٥ح (٦٣٤٥) ومسلم في الذكر والدعاء، باب دعاء الكرب ٤/ ٢٠٩٢ (٢٧٣٠) والترمذي في الدعوات، باب ما يقول عند الكرب ٥/ ٤٩٥ح (٣٤٣٥)، وابن ماجه في الدعاء، باب الدعاء عند الكرب ٢/ ١٢٧٨ (٣٨٨٣)، وأحمد في المسند ١/ ٢٢٨، ٣٣٩.

(٣) سبق تخريجه ص١٤٦.

وأما محمد بن علي وجعفر بن محمد: فللآخرة، وما تبتغيه من طاعة الله عز وجل، وأما موسى بن جعفر: فالتمس به العافية من الله عز وجل.

وأما علي بن موسى: فاطلب به السلامة في البراري، والبحار.

وأما محمد بن علي: فاستنزل به الرزق من الله تعالى.

وأما علي بن محمد: فللنوافل وبر الإخوان، وما تبتغيه من طاعة الله عز وجل.

وأما الحسن بن علي فللآخرة.

وأما صاحب الزمان: فإذا بلغ منك السيف الذبح فاستعن به فإنه يغنيك.

ثم جاء صاحب بحار الأنوار بدعاء يتضمن الاستغاثة بالأئمة على هذا النحو السالف الذكر، اعتبره من قبيل الشرح لهذا النص، وقد قرر المجلسي أنهم كما يزعم الشفاء الأكبر، والدواء الأعظم لمن استشفى بهم».

ومن أدعيتهم قولهم في الأئمة:

«أركان البلاد، وقضاة الأحكام، وأبواب الإيمان . . . منائح العطاء، بكم إنفاذه محتوماً مقروناً، فما شيء منه إلا وأنتم له السبب، وإليه السبيل. . فلا نجاة ولا مفزع إلا أنتم، ولا مذهب عنكم يا أعين الله الناظرة».

وفي الرقاع التي تكتب وتوضع على قبور الأئمة وأضرحتهم يقولون:

«إذا كان لك حاجة إلى الله عز وجل فاكتب رقعة على بركة الله، واطرحها على قبر من قبور الأئمة إن شئت، أو فشدها واختمها، واعجن طيناً نظيفاً واجعلها فيه، واطرحها في نهر جار، أو بئر عميقة، أو غدير ماء، فإنها تصل إلى السيد عليه السلام، وهو يتولى قضاء حاجتك بنفسه.

ثم ذكروا أنه يكتب في الرقعة: بسم الله الرحمن الرحيم: كتبت إليك يا مولاي صلوات الله عليك مستغيثاً. . فأغثني يا مولاي صلوات الله عليك عند اللهف»: ثم يبعثون برسائل لطلب الاستغاثة إلى المنتظر المعدوم(١).

(١) انظر أصول مذهب الشيعة ٢/ ٤٤٩-٤٥٠.

هذا هو منهج الرافضة في الدعاء والاستغاثة، يعتقدون في مخلوق ضعيف: ميت أو غائب أنه يستغاث به لدفع المصائب أو كشف الكربات، وجلب المنافع من الرزق، والعافية، وطلب الأجر، وهذا شرك والعياذ بالله، وإن حاول أئمتهم المتقدمون والمتأخرون تسمية هذا العمل بغير الشرك، فهم -كما مر بنا - يعرفون الشرك تعريفاً فلسفياً جرياً على منهاج الفلاسفة الذين يسمون الأشياء بغير اسمها، ويعملون جاهدين على إقناع أتباعهم بالأعمال المخالفة للشرع والعقل والحس والفطرة.

ونحن نعلم أن رؤوس الضلالة ينالهم نصيب كبير من المصالح الدنيوية، من جاه، ومال، ومن جراء جهل الأتباع وانسياقهم في مذاهب ساداتهم وكبرائهم.

وهذا أمر مشاهد، ولهذا لا يمكن أن يتخلى هؤلاء المتبعون عن مصالحهم، وإن استيقنوا ضلال ما هم عليه وبطلانه إلا أن يشاء الله، فإن الله تعالى يقول في شأن من هذا حاله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[١].

نسأل الله السلامة من الزيغ والفساد.

---

(١) سورة النمل: ١٤.

مسائل متفرقة في الدعاء

في هذا الفصل نتحدث عن مسائل متفرقة في الدعاء، ونلقي الضوء على أهم المسائل التي حصل فيها نزاع، وربما وقع بعض الناس من جراء المخالفة فيها في الابتداع، وقد اتفق السلف في النظر إلى هذه المسائل، ونهجوا نهجاً مميزاً لهم عن غيرهم، وهذه أهمها:

الأولى: الدعاء بعد كل فريضة من الإمام والمأمومين، على هيئة مخصوصة وبطريقة مستمرة.

من المعلوم أن أمور العبادة توقيفية، والدعاء عبادة عظيمة، وقد تضمن هدي النبي ﷺ تفصيلاً وبياناً شافياً لهذه العبادة، قولاً وعملاً، وبما لا يدع مجالاً للاجتهاد بالزيادة، شأنها شأن سائر العبادات.

وما أحدثه الناس في بعض بلاد المسلمين من المداومة على الدعاء بأوراد مخصوصة، وهيئة مخصوصة، من الإمام والمأمومين عقيب الصلوات الخمس ليس من هدي النبي ﷺ.

ولهذا يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وليس لأحد أن يسن نوعاً من الأذكار والأدعية غير المسنونة، ويجعلها عبادة راتبة، يواظب الناس عليها كما يواظبون على الصلوات الخمس، بل هذا ابتداع دين لم يأذن الله به، بخلاف ما يدعو به المرء أحياناً من غير أن يجعله للناس سنة، فهذا إذا لم يعلم أنه يتضمن معنى محرماً، لم يجزم بتحريمه، لكن قد يكون فيه ذلك، والإنسان لا يشعر به»(١).

والدعاء بعد الفريضة له حالتان:

الأولى: أن يدعو الشخص: إماماً أو مأموماً، أو منفرداً عقب كل صلاة، أو يخصص بعض الصلوات بطريقة مستمرة، وهيئة مخصوصة وقبل الأذكار المشروعة.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥١٠، ٥١١.

الثانية: أن يدعو الشخص بعد الأذكار المشروعة، بدون هيئة معينة ومنفرداً وليس جماعياً، وليس بطريقة مستمرة.

فالحالة الأولى هي محل الإشكال وجرى فيها النزاع، وقد تدرج الأمر فيها ببعض المسلمين إلى الابتداع، وترك الأذكار المشروعة، وتخصيص ورد من الدعاء رتبوه، وسوف أنقل كلام الأئمة في ذلك وأبين الحالة الصحيحة التي لا نزاع فيها ولا ابتداع.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله «لم يكن النبي ﷺ يدعو هو والمأمومون عقيب الصلوات الخمس، كما يفعله بعض الناس، عقيب الفجر والعصر، ولا نقل ذلك عن أحد، ولا استحب ذلك أحد من الأئمة».

ومن نقل عن الشافعي أنه استحب ذلك فقد غلط عليه، ولفظه الموجود في كتبه ينافي ذلك، وكذلك أحمد وغيره من الأئمة لم يستحبوا ذلك[١].

وقال الشاطبي رحمه الله: «إن هذا لم يكن من فعل رسول الله ﷺ، ولا فعل الأئمة من بعده، حسبما نقله العلماء في دواوينهم، عن السلف والفقهاء.

أما أنه لم يكن من فعل رسول الله ﷺ فظاهر، لأن حاله عليه السلام في أدبار الصلوات: مكتوبات، أو نوافل كانت بين أمرين:

إما أن يذكر الله تعالى ذكراً في العرف غير الدعاء، فليس للجماعة فيه حظ إلا أن يقولوا مثل قوله، أو نحواً من قوله.. وإن كان دعاء فعامة ما جاء من دعائه ـ عليه السلام ـ بعد الصلاة مما سمع منه، إنما كان يخص به نفسه دون الحاضرين»[٢].

ثم ذكر عن العلماء قولهم: «إن الدعاء والذكر الوارد على أثر الصلاة أنه مستحب لا سنة، ولا واجب، وهو دليل على أمرين:

أحدهما: أن هذه الأدعية لم تكن منه عليه السلام على الدوام.

والثاني: أنه لم يكن يجهر بها دائماً، ولا يظهرها للناس في غير مواطن التعليم، إذ

(١) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥١٢.

(٢) انظر الاعتصام ١/ ٣٤٩-٣٥٠.

لو كانت على الدوام، وعلى الإظهار لكانت سنة، ولم يسع العلماء أن يقولوا فيها بغير سنة»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وأما الدعاء بعد السلام من الصلاة، مستقبل القبلة أو المأمومين، فلم يكن ذلك من هديه ﷺ أصلاً، ولا روي عنه بإسناد صحيح، ولا حسن. وأما تخصيص ذلك بصلاتي الفجر والعصر، فلم يفعل ذلك هو ولا أحدٌ من خلفائه، ولا أرشد إليه أمته، وإنما هو استحسان رآه من رآه عوضاً عن السنة بعدهما»[٢].

ثم بين رحمه الله أن: «عامة الأدعية المتعلقة بالصلاة، إنما فعلها فيها وأمر بها فيها، وهذا هو اللائق بحال المصلي»[٣].

وليس المراد من كلام الأئمة رحمهم الله نفي الدعاء مطلقاً، ولكن المراد بيان عدم مشروعية الاستمرار، ومباشرة الدعاء بعد السلام على الهيئة المخصوصة التي غلا فيها كثير من الناس وأصبحت عندهم راتبة، فبعد السلام مباشرة يرفع الإمام صوته بالدعاء ثم يؤمن المأمومون معه بدعاء راتب، وربما أسقطوا الأذكار المشروعة واكتفوا بذلك، وقد رأينا هذا كثيراً في أنحاء مختلفة من بلاد المسلمين.

أما الدعاء بعد الصلاة بدون الهيئة السابقة، فقد بوب الإمام البخاري رحمه الله بقوله: (باب الدعاء بعد الصلاة).

وعلق الإمام ابن حجر رحمه الله على ذلك بقوله: «وفي هذه الترجمة رد على من زعم أن الدعاء بعد الصلاة لا يشرع، متمسكاً بالحديث الذي أخرجه مسلم من رواية عبدالله بن الحارث عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ لا يثبت إلا قدر ما يقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام»[٤].

يقول الإمام ابن حجر: «والجواب: أن المراد بالنفي المذكور: نفي استمراره

---

(١) المرجع السابق ١/ ٣٥١.
(٢) زاد المعاد ١/ ٢٥٧.
(٣) زاد المعاد ١/ ٢٥٨.
(٤) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها في المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وصفته ١/ ٤١٤ح (٥٩٢).

جالساً على هيئته قبل السلام إلا بقدر أن يقول ما ذكر» ثم أجاب عن كلام ابن القيم بقوله: «مراد ابن القيم نفي الدعاء بقيد استمرار استقبال المصلي القبلة وإيراده بعد السلام، وأما إذا انتقل بوجهه أو قدم الأذكار المشروعة، فلا يمتنع عنده الإتيان بالدعاء حينئذ»(١).

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله بعد الكلام الذي أشار إليه ابن حجر ما نصه: ها هنا نكتة لطيفة، وهو أن المصلي إذا فرغ من صلاته، وذكر الله وهلله، وسبحه، وحمده وكبره بالأذكار المشروعة عقيب الصلاة، استحب له أن يصلي على النبي ﷺ بعد ذلك، ويدعو بما شاء، ويكون دعاؤه عقيب هذه العبادة الثانية، لا لكونه دبر الصلاة.

فإن كل من ذكر الله وحمده، وأثنى عليه، وصلى على رسول الله ﷺ، استحب له الدعاء عقيب ذلك، كما في حديث فضالة بن عبيد: «إذا صلى أحدُكُم، فليبدأْ بحمدِ اللهِ والثناء عليه، ثم ليصلِّ على النبي ﷺ، ثم ليدع بما شاء» قال الترمذي: حسن صحيح(٢).

ويلاحظ أن الإمام ابن حجر رحمه الله قد أجمل الكلام فقال: «وأما إذا انتقل بوجهه، أو قدم الأذكار المشروعة» وهذا يحتاج إلى تفصيل، لأن كلام ابن القيم السابق، ليس فيه ما يفهم أن مجرد الانتقال بوجهه يكفي، فإن الذي أفهمه أنه بعد الأذكار المشروعة، وعقيب عبادة ثانية.

وقد سئل ابن تيمية عن ذلك فقال: «الذي نقل عن النبي ﷺ بعد الصلاة المكتوبة، إنما هو الذكر المعروف، كالأذكار التي في «الصحاح» وكتب «السنن»، و«المسانيد»، وغيرها»(٣) ثم ساق طرفاً منها.

وقد علل من رأى الدعاء بعد الصلاة مباشرة، بأن ذلك أقرب إلى الإجابة، ويجيب الإمام ابن تيمية عن هذا التعليل بقوله: هذا الذي ذكروه قد اعتبره الشارع في صلب

---

(١) فتح الباري ١١/ ١٣٣.

(٢) انظر زاد المعاد ١/ ٢٥٨. والحديث رواه الترمذي في الدعوات باب ادع تجب ٥/ ٥١٦ (٣٤٧٦) وأبو داود في الصلاة، باب الدعاء ٢/ ١٦٢ (١٤٨١) وقال الترمذي: حديث صحيح، وصححه الحاكم ١/ ٢١٨، وأقره الذهبي.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥١٤.

الصلاة، فالدعاء في آخرها، قبل الخروج مشروع مسنون بالسنة المتواترة، وباتفاق المسلمين، بل قد ذهب طائفة من السلف والخلف إلى أن الدعاء في آخرها واجب.

وأوجبوا الدعاء الذي أمر به النبي ﷺ في آخر الصلاة بقوله: «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»(١).

قال ابن تيمية: «والمناسبة الاعتبارية فيه ظاهرة، فإن المصلي يناجي ربه، فما دام في الصلاة لم ينصرف، فإنه يناجي ربه، والدعاء حينئذ مناسب لحاله، أما إذا انصرف إلى الناس من مناجاة الله لم يكن موطن مناجاة له ودعاء، وإنما هو موطن ذكر له، وثناء عليه، فالمناجاة والدعاء حين الإقبال والتوجه إليه في الصلاة، أما حال الانصراف من ذلك فالثناء والذكر أولى»(٢).

إذن فتحفظ الأئمة رحمهم الله هو على الهيئة المخصوصة، والدعاء قبل الأذكار المشروعة حتى وإن جاء بها بعد ذلك، فإنه قد قدم عملاً أتى به من عنده على ما جاء في هدي المصطفى ﷺ، أما إذا دعا بعد الأذكار المشروعة، ولم يكن هذا راتباً ولا جماعياً، فإنه لا بأس بذلك، بل ورد به الدليل كما تقدم، والله أعلم.

وقد ذكر الإمام الشاطبي رحمه الله حجج المخالفين الذين قالوا بمشروعية الدعاء عقيب الصلوات بالطريقة التي ساروا عليها، وفند كل حجة منها بالنقل والعقل.

ومن أبرز حججهم:

قولهم: إن ظواهر الأحاديث تدل على الدوام بقول الرواة «كان يفعل». وأجاب الشاطبي رحمه الله بوجهين(٣):

الأول: أنه لا يلزم من التكرار للفعل دوام الفعل، وإنما قد يراد به الكثرة في الفعل وقد يراد به الفعل، ولو لم يفعله إلا مرة واحدة، ثم ذكر على ذلك أمثلة من هدي النبي ﷺ.

---

(١) رواه البخاري في الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر ٣/ ١٩٢، ومسلم في المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ١/ ٤١٢ (٥٨٨)، وأبو داود في الصلاة، باب ما يقول بعد التشهد ١/ ٦٠١ (٩٨٣) والنسائي في السهو، باب نوع آخر من التعوذ في الصلاة ٣/ ٥٨.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥١٨، وانظر زاد المعاد ١/ ٢٥٨.

(٣) الاعتصام ١/ ٣٦٥.

الثاني: لو كانت المداومة التامة للحق بالسنن كالوتر وغيره، ولما خفي علم هذا على الصحابة، ولنقلوه كما نقلوا غيره والصحيح أنه لم ينقل عنه على الصورة التي ذكروها كما مر ذكره.

ومن حجج المخالفين:

أنه لم يأت ما يخالفه، وأن الأصل الجواز في كل مسكوت عنه.

والجواب: أن العبادات توقيفية، والأصل فيها المنع، فلا يعبد الله عز وجل إلا بما شرع، وأما الأمور العادية، فالأصل فيها الإباحة ولا يمنع شيء.. إلا إذا منع شرعاً، بخلاف أمور العبادة، فلا يصح لأحد أن يأتي بشيء لم يأت به الشرع، فإن هذا من الزيادة في الدين، وهذا ابتداع كما هو معلوم لعموم المسلمين.

وقد احتجوا بأن عملهم هذا أقرب إلى الإجابة، لأنه دعاء جماعي، وعقب الصلاة.

والجواب: إذا كان هذا أقرب إلى الإجابة، فلماذا لم يفعله النبي ﷺ، وقد كان حريصاً على أن يدل أمته على كل خير وفضل؟! قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

أفيترك النبي ﷺ توجيه الناس إلى هذا الأمر الذي يفوتهم بفواته خير كثير -بزعمكم- ثم يأتي من بعده بقرون كثيرة فيستدركون ذلك؟!

يقول الشاطبي رحمه الله: «إن قصد الاجتماع على الدعاء لا يكون بعد زمانه أبلغ في البركة من اجتماع يكون فيه سيد المرسلين ﷺ، وأصحابه، فكانوا بالتنبه لهذه المنقبة أولى»[2].

واحتجوا بأنهم يقصدون بذلك تعليم الناس، ليأخذوا ما يجوز ويصح من الدعاء، ويتركوا ما لا يجوز ولا يصح.

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

(٢) الاعتصام ١/٣٦٦.

والجواب عن هذا: أنه ليس معهم في هذا دليل، ولا حجة، لأنه يمكن التعليم بغير هذه الصور، فبابه واسع ومفتوح لكل أحد، وقد رأيت أن من يصنع ذلك يردد مع الإمام، ولا يفقه ما يقول، فأين هذا مما يقال بأنه يراد به التعليم؟! لا سيما الأعاجم ولم نرهم يسألون ويتعلمون.

ثم أنه يرد على المخالفين طرد الأمور من هذا الباب، فيزاد في دين الله عز وجل ما لم يرد به الشرع بحجة التعليم، ولهذا فلو قدر وجود المصلحة فيما يقولون، فإن درء المفسدة أولى من جلب المصلحة، فمفسدة الابتداع في الدين أولى بالدفع مما يزعمونه من مصلحة التعليم، لا سيما في أمر لا حرج من الجهل به.

واحتجوا: بأن ذلك العمل من التعاون على البر والتقوى.

والجواب: أنه لو كان الأمر كما تقولون لكان النبي ﷺ الذي أُنزل عليه ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أولى بذلك، لكنه لم يفعله أصلاً، ولا أحد من بعده، حتى حدث ما حدث، فدل على أنه ليس على ذلك الوجه بر ولا تقوى(١).

واحتجوا: بأن عامة الناس لا علم لهم باللسان العربي، فربما لحن، فيكون اللحن سبب عدم الإجابة.

قال الشاطبي رحمه الله: «وهذا الاجتماع إلى اللعب أقرب منه إلى الجد، وأقرب ما فيه أن أحداً من العلماء لا يشترط في الدعاء أن لا يلحن، كما يشترط الإخلاص، وصدق التوجيه، وعزم المسألة وغير ذلك.

وتعلم اللسان العربي لإصلاح الألفاظ في الدعاء، وإن كان الإمام أعرف به هو كسائر ما يحتاج إليه الإنسان من أمر دينه، فإن كان الدعاء مستحباً، فالقراءة واجبة، والفقه في الصلاة كذلك، فإن كان تعليم الدعاء إثر الصلاة مطلوباً، فتعليم فقه الصلاة آكد، فكان من حقه أن يجعل ذلك من وظائف آثار الصلاة»(٢).

وخلاصة الأمر:

على المسلم أن يتبع هدي محمد ﷺ حتى لا يقع في البدعة من حيث يشعر أو لا

(١) انظر الاعتصام ١/ ١٦٧.
(٢) الاعتصام ١/ ٣٦٧.

يشعر، وليكن المسلم على علم فيما يأتي وما يذر، فإن ذلك أدعى للقبول والأجر، وأبعد عن المحظور والوزر، والله أعلم.

الثانية: الذكر والدعاء وأيهما أفضل؟

من المعلوم أن بين الذكر والدعاء صلة قوية، حتى أن أحدهما يطلق على الآخر، فالأدعية تسمى أذكاراً، والأذكار تسمى أدعية، والذكر والدعاء لفظان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، وبيان ذلك: أن إطلاق أحدهما مجرداً - أي منفرداً - يتضمن معنى الآخر.

أما إذا اقترنا فإن لكل منهما معنى يخصه، خاصة دعاء المسألة، أما دعاء العبادة، فلا يخفى أنه شامل لكل ما يتقرب به العبد إلى ربه ويدخل في ذلك الذكر.

وبهذا نستطيع فهم كلام الأئمة رحمهم الله، حينما جعلوا الذكر في موضع شاملاً والدعاء فرعٌ منه، وفي موضع آخر جعلوا الدعاء أشمل والذكر فرع منه.

فهذا ابن القيم رحمه الله يقول في «المدارج»: الذكر نوعان: ثناء ودعاء، فأما ذكر الثناء فنحو قوله: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وذكر الدعاء فنحو: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(١)] ويا حي ويا قيوم برحمتك أستغيث ونحو ذلك»[(٢)].

ثم يضيف نوعاً ثالثاً وهو ذكر الرعاية فيقول: «الأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة: ذكر الثناء، وذكر الدعاء، وهو مثل قول الذاكر: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي، ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله، وفيه رعاية لمصلحة القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرز من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس[(٣)].

وقد بين في موضع آخر أن: «الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، كما قال النبي ﷺ: «أفضل الدعاء الحمد لله» فسمي «الحمد لله» دعاء

---

(١) سورة الأعراف: ٢٣.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٤٣٤.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٤٣٤.

وهو ثناء محض لأن الحمد يتضمن الحب والثناء والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب.

فالحامد طالب لمحبوبه، فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب من ربه حاجة ما، فتأمل هذا الموضع، فإذا تأملته لا تحتاج إلى ما قيل: إن الذاكر متعرض للنوال وإن لم يكن مصرحاً بالسؤال، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض كما قال أمية بن أبي الصلت[١] في ممدوحه: -

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحباء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التي ذكرناها، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، وهو طلب المحب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه، والمقصود أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه[٢].

وقد قرر الإمام النووي رحمه الله شمول الذكر، وأنه ليس منحصراً في التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، ونحوها، بل يشمل جميع مجالس العلم يقول: «اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح، والتهليل، والتحميد، والتكبير، بل كل عامل لله تعالى بطاعة فهو ذاكر لله تعالى، كذا قاله سعيد بن جبير[٣]، رضي الله عنه وغيره من العلماء.

وقال عطاء[٤] رحمه الله: مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام،

(١) أمية بن أبي الصلت الثقفي الشاعر المشهور قال ابن حجر: ذكره ابن السكن في الصحابة وقال: لم يدركه الإسلام، وقد صدق النبي ﷺ في بعض شعره وقال: قد كاد أمية أن يسلم، انظر الإصابة في تمييز الصحابة ١٣٤/١.

(٢) انظر التفسير القيم ٢٤٩.

(٣) سعيد بن جبير بن هشام، الحافظ المقرئ المفسر الشهيد، أبو محمد الأسدي الوالبي، مولاهم الكوفي، أحد الأعلام مولده سنة ٤٥هـ واستشهد سنة ٩٥هـ وقد كان من أعلام التابعين، قرأ القرآن على ابن عباس رضي الله عنه، قال عنه الإمام أحمد: قتل الحجاج سعيداً وما على الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه. انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٢١-٣٤٣ والأعلام ٣/ ٩٣.

(٤) عطاء بن أبي رباح شيخ الإسلام، مفتي الحرم، أبو محمد القرشي مولاهم المكي تابعي من أجلاء الفقهاء ولد في جند باليمن سنة ٢٧هـ ونشأ بمكة، فكان مفتي أهلها ومحدثهم وتوفي بها سنة =

كيف تشتري وتبيع، وتصلي وتصوم، وتنكح وتطلق، وتحج، وأشباه هذا»(١).

قلت: وهذا كلام جيد، يحمل على إطلاق كلمة الذكر، أما إذا اقترنت بكلمة الدعاء، فإن لكل منهما معنى خاصاً على النحو الذي أسلفنا.

أما المفاضلة بين الذكر والدعاء، فإن من الواضح أن كلاً منهما عبادة وفي كل خير، فالذكر طاعة وقربى وكذا الدعاء، بشرط إخلاص النية، وتحقق المتابعة.

وعند المفاضلة يحسن التنبيه على أنه إذا نظر إلى كل من قراءة القرآن والذكر، والدعاء مجرداً، فإن قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، ونعني بالذكر هنا: ذكر الثناء، وبالدعاء: دعاء المسألة وذلك أن ذكر الثناء متضمن للطلب، وفيه تعظيم وتمجيد لله الواحد الأحد، أما دعاء المسألة فقد يكون مجرداً عن الثناء، وخاصاً بطلب حاجة، فيكون الذكر أفضل من الدعاء على هذه الصورة.

أما في حال ربط هذه الأعمال بزمن معين، أو حالة معينة، أو شخص بعينه، فإن الأفضل هنا يتنوع بتنوع الأحوال والأعمال، وهنا يلزم الشخص فقه مراتب الأعمال، وتنزيل كل عمل منزلته حتى لا يشغل العبد بالمفضول عن الفاضل، بل ربما بالمنهي عنه عن المأمور به بحسب الأحوال.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: الأفضل يتنوع بتنوع أحوال الناس، فمن الأعمال ما يكون جنسه أفضل، ثم يكون تارة مرجوحاً أو منهياً عنه كالصلاة، فإنها أفضل من قراءة القرآن، وقراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء.

ثم الصلاة في أوقات النهي كما بعد الفجر والعصر، ووقت الخطبة منهي عنها، والاشتغال حينئذ إما بقراءة، أو ذكر، أو دعاء، أو استماع أفضل من ذلك.

وكذلك قراءة القرآن أفضل من الذكر، ثم الذكر في الركوع والسجود هو المشروع دون القراءة والذكر»(٢).

ويقول ابن القيم رحمه الله: «وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل، بل

= ١١٤هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٧٨-٨٨، والأعلام ٤/ ٢٣٥.

(١) الأذكار للنووي ١٠، ١١ ط المؤيد.

(٢) مجموع الفتاوي ٢٢/ ٣٠٨.

يعينه، فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود، فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما، بل القراءة فيهما منهي عنها نهي تحريم أو كراهة.

وكذلك التسميع والتحميد في محلهما أفضل من القراءة، وكذلك التشهد، وكذلك «رب اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني» بين السجدتين أفضل من القراءة»[١].

فهذا بالنظر في العمل وفي وقته، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل عمل وقت ينبغي مراعاته، لأنه إذا فات القيام به في وقته، وعدل الإنسان إلى غيره، اختلت الحكمة وفاتت المصلحة، التي قصدها الشارع.

وقد أورد الإمام ابن القيم أمثلة على ذلك كثيرة[٢].

وأما من حيث النظر إلى الشخص ذاته، فإنه لا يخفى تفاوت الناس في القدرات، كما لا يخفى تنوع أحوال الناس يقول ابن تيمية رحمه الله: «من الناس من تكون القراءة أنفع له من الصلاة، ومنهم من يكون الذكر أنفع له من القراءة، ومنهم من يكون اجتهاده في الدعاء لكمال ضرورته أفضل له من ذكر هو فيه غافل.

والشخص الواحد يكون تارة هذا أفضل له، وتارة هذا أفضل له، ومعرفة حال كل شخص، وبيان الأفضل له لا يمكن ذكره في كتاب، بل لا بد من هداية يهدي الله بها عبده إلى ما هو أصلح[٣].

وقد استدل رحمه الله بما صح عن النبي ﷺ من الدعاء العظيم الذي فيه طلب الهداية من الله عز وجل للعمل الذي يحبه ويرضاه، فقد كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[٤].

---

(١) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب ١٩٦.

(٢) انظر المرجع السابق ١٩٧.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٣٠٩.

(٤) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل ١/ ٥٣٤ (٧٧٠) ورواه الترمذي في الدعوات، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل ٥/ ٤٨٤ (٣٤٢٠) وابن ماجه=

وهكذا عند الحكم بالأفضلية لعمل على آخر، لا بد من مراعاة هذه الأمور ومعرفة الفرق بين فضيلة الشيء في نفسه، وفضيلته العارضة حتى لا يشتغل بالمفضول عن الفاضل، أو ربما يقع في محظور، وهو يظن أنه مأمور به، ولكن عدم مراعاة الأحوال وعدم الفقه بمراتب الأعمال سبب له هذا الإشكال، والله أعلم.

الثالثة: الاجتماع للدعاء:

من خلال النظر في أقوال العلماء رحمهم الله في حكم الاجتماع للدعاء يتبين لنا أنه: لكي يصح هذا العمل، ويسلم من الابتداع لا بد فيه من الضوابط الآتية:

١- ألا يتخذ عادة، وعملاً راتباً، له وقت محدد، ومكان مخصص يتعمد الاجتماع فيه بطريقة منتظمة.

٢- ألا يصحب ببدعة منكرة، كما يحصل لبعض من يجتمعون للدعاء، من اتخاذ الحصى، أو النوى، أو إناء فيه ماء، أو يكشفون عن رؤوسهم أو يجلسون جلسة متميزة على وضع موحد للجميع، أو يقومون بحركات مرتبة، وهذا كله وما شابهه من البدع المنكرة.

٣- ألا يكثر من الاجتماع بحيث يظن الناس من خلال هذه المداومة على هذا العمل أنه سنة راتبة، ومع طول الزمن يتطور العمل شيئاً فشيئاً إلى أن يبلغ مبلغاً لا يتفق مع الشرع.

ولهذا لما رأى الإمام عبدالله بن مسعود[1] رضي الله عنه بعض أصحابه قد اتخذوا مكاناً يجتمعون فيه للذكر، خرج إليهم، وقال: يا قوم، لأنتم أهدى من أصحاب محمد ﷺ، أو لأنتم على شعبة ضلالة.

= في كتاب إقامة الصلاة والسنة منها، باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل ١/ ٤٣١، ٤٣٢ح (١٣٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) عبدالله بن مسعود بن غافل الهذلي، الصحابي الجليل، أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد بعدها، ولازم النبي ﷺ وكان صاحب نعليه وحدث عن النبي ﷺ بالكثير وعن أبي الدرداء قال: ما ترك بعده مثله مات بالمدينة سنة (٣٢) هـ وقيل: مات بالكوفة والأول أثبت كما قال ابن حجر. انظر الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٣٦٠-٣٦٢ والرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة ص١٨٥-١٨٨.

ولهذا تشدد الإمام يحيى بن معين[١] رحمه الله في المسألة، لما سأله الفضل ابن مهران عن قوم يجتمعون فيدعون ويقرأون القرآن، ويذكرون الله تعالى، قال: فما ترى فيهم؟ فأجاب الإمام يحيى بقوله: يقرأ في المصحف، ويدعو بعد صلاة، ويذكر الله في نفسه. قال الفضل: فأخ لي يفعل هذا؟ قال: انهه، قال: لا يقبل. قال: عظه، قال: لا يقبل. أهجره؟ قال: نعم.

وسأل أيضاً الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فقال: يقرأ في المصحف ويذكر الله تعالى في نفسه، ويطلب حديث رسول الله ﷺ. قال: أنهاه؟ قال: نعم. قال: فإن لم يقبل، قال: بلى، إن شاء الله تعالى، فإن هذا محدث الاجتماع، والذي تصف، قال: فإن لم يفعل أهجره؟ فتبسم وسكت.

وعن معمر أن عمر بن عبد العزيز كان حسن الصوت بالقرآن قال: فخرج يوماً، وقرأ وجهر بصوته. فاجتمع الناس له، فقال سعيد بن المسيب: فتنت الناس. قال: فدخل.

هذه أقوال بعض أئمة السلف[٢] وقد عرفنا من خلالها عدم التساهل في الأمر حتى لا يؤدي ذلك إلى البدعة في الدين، وهذا حق باعتبار ما يؤول إليه الأمر، أما الأمر في ذاته بالضوابط التي ذكرنا في أول الكلام، فإنه لا بأس به فهذه أقوال أئمة آخرين بخلاف الأقوال السابقة وعند التحقيق لا تعارض بينها.

فهذا الإمام المروزي[٣] يُسأل عن القوم يجتمعون، فيقرأ قارئ، ويدعون حتى يصبحوا. قال: أرجو أن لا يكون به بأس.

---

(١) يحي بن معين بن عون المري بالولاء، البغدادي، أبو زكريا مولده سنة (١٥٨) إمام حافظ جهبذ، شيخ المحدثين، إمام في الجرح والتعديل، قال عنه الإمام أحمد: أعلمنا بالرجال وقال الذهبي: هو أسن الجماعة الكبار وهم ابن المديني، وأحمد وإسحاق، وابن أبي شيبة وأبو خيثمة له كتب كثيرة منها التاريخ والعلل وغيره توفي سنة (٢٣٣) هـ.
انظر سير أعلام النبلاء ١١/ ٧١ وتهذيب التهذيب ١١/ ٢٨٠ والأعلام ٨/ ١٧٣.

(٢) انظر الأقوال التي أشرنا إليها عن أئمة السلف في كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح رحمه الله ٢/ ١١١ وما بعدها.

(٣) محمد بن نصر بن الحجاج المروزي الإمام شيخ الإسلام، أبو عبدالله الحافظ إمام عصره بلا مدافعة في الحديث كما قال الحاكم، وكان أعلم الأئمة باختلاف العلماء كما قال الذهبي، كان مولده سنة (٢٠٢) ووفاته سنة (٢٩٤) هـ له كتب كثيرة في الفقه والحديث.
انظر سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٣، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٨٩.

وروى الخلال[(١)] عنه أنه قال: وأي شيء أحسن من أن يجتمع الناس، فيصلوا، ويذكروا ما أنعم الله عليهم، كما قالت الأنصار.

وعن محمد بن سيرين[(٢)] قال: نبئت أن الأنصار قبل قدوم رسول الله ﷺ، قالوا: لو نظرنا يوماً، فاجتمعنا فيه، فذكرنا هذا الأمر الذي أنعم الله به علينا، وذكر الحديث، وفيه أنهم اجتمعوا يوم الجمعة في بيت أسعد بن زرارة[(٣)] وذبحت لهم شاة وكفتهم[(٤)].

ولا تعارض بين الأقوال عند التحقيق في الأمر، لأنه من لم يرخص في المسألة، فإنما هو لسبب ما قد يؤدي إليه من الابتداع في الدين، ولعله تشدد لكونه رأى المداومة أو تخصيص مكان ويوم معينين، أو نحو ذلك.

وأما الذين رخصوا في الأمر، فلكونه عارضاً، وليس راتباً ولم يلحظوا ما لحظ غيرهم في هذا الاجتماع، فإن أصل العمل لا حرج فيه بل هو عمل طيب في ذاته، لكن المنع باعتبار ما يؤول إليه.

ولهذا يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: «الاجتماع على القراءة والذكر والدعاء حسن مستحب، إذا لم يتخذ ذلك عادة راتبة كالاجتماعات المشروعة، ولا اقترن ببدعة منكرة، وأما كشف الرأس مع ذلك فمكروه لا سيما إذا اتخذ على أنه عبادة، فإنه حينئذ يكون منكراً ولا يجوز التعبد بذلك»[(٥)].

---

(١) أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال، من كبار الحنابلة، إمام في الحديث والتفسير واللغة، وجمع العلم والزهد، وصحب المروزي، وسهل التُستَري له تصانيف منها «الجامع لعلوم الإمام أحمد» في الحديث، توفي سنة (٣١١).
انظر مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٦١٨، والبداية والنهاية ١١/ ١٤٨.

(٢) أبو بكر محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، الإمام، شيخ الإسلام، إمام وقته، تابعي من أشراف الكتاب، اشتهر بالورع وتعبير الرؤيا كانت ولادته سنة (٣٣) ووفاته (١١٠) هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٠٦، وتهذيب التهذيب ٩/ ٢١٤، والأعلام ٦/ ١٥٤.

(٣) أسعد بن زرارة أبو أمامة الأنصاري الخزرجي، قديم الإسلام شهد العقبتين، كان نقيباً على قبيلته، وكان أصغر النقباء، ويقال أنه أول من بايع ليلة العقبة مات رضي الله عنه قبل بدر في السنة الأولى للهجرة والمسجد يبنى ودفن بالبقيع، وهو أول مدفون به وقيل: عثمان بن مظعون والله أعلم. انظر الاستيعاب لابن عبدالبر ١/ ٧٥ هامش الإصابة، والإصابة لابن حجر ١/ ٥٠.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك ١/ ٢٨١ كتاب الجمعة وقال: صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

(٥) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥٢١.

وفي موضع آخر بين رحمه الله أن الاجتماع، واستماع القرآن والدعاء عمل صالح، وهو من أفضل القربات، والعبادات، ثم يبين أنه: «ينبغي أن يكون هذا أحياناً، في بعض الأوقات، والأمكنة، فلا يجعل سنة راتبة، ويحافظ عليها إلا ما سن رسول الله ﷺ المداومة عليه في الجماعات من الصلوات الخمس، والجمعات، والأعياد ونحو ذلك، وأما محافظة الإنسان على أوراد له من الصلاة، أو القراءة، أو الذكر، أو الدعاء طرفي النهار، وزلفاً من الليل وغير ذلك، فهذا سنه رسول الله ﷺ، ووالصالحين من عباد الله قديماً وحديثاً»(١).

ويضع قاعدة مهمة في العمل الذي سنه له الاجتماع، والعمل الذي سن له الانفراد فيقول: «فما سن عمله على وجه الاجتماع كالمكتوبات فعل ذلك، وما سن المداومة عليه على وجه الانفراد من الأوراد عمل ذلك، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يجتمعون أحياناً يأمرون أحدهم يقرأ والباقون يستمعون.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: يا أبا موسى، ذكّرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون، وكان من الصحابة من يقول: اجلسوا بنا نؤمن ساعة، وصلى النبي ﷺ بأصحابه التطوع في جماعة مرات، وخرج على الصحابة من أهل الصفة وفيهم قارى يقرأ فجلس معهم يستمع»(٢).

وبهذا يتضح الحكم في الاجتماع للدعاء ونحوه، وأنه لا بأس به بضوابط سبق ذكرها، فأما إذا اختلت تلك الضوابط كلها، أو بعضها، فإنه ينبغي الحذر حتى لا يقع الإنسان في البدعة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: السجع في الدعاء:

السجع لغة:

قال ابن فارس: «السين والجيم والعين: أصل يدل على صوت متوازن من ذلك السجع في الكلام، وهو أن يؤتى به، وله فواصل كقوافي الشعر. كقولهم: من قل ذل، ومن أمر فل . . .

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥٢٠.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٥٢٠.

ويقال : سجعت الحمام : إذا هدرت»[١] .

وعن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «حدث الناس كل جمعة مرة ، فإن أبيت فمرتين ، فإن أكثرت فثلاث مرات ، ولا تمل الناس هذا القرآن ، ولا ألفينك تأتي القوم ، وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم ، فتقطع عليهم حديثهم فتملهم ، ولكن انصت ، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه ، فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب»[٢] .

ويستدل بهذا الأثر على النهي عن السجع في الدعاء ، والعلماء يبينون أن السجع المنهي عنه هو السجع المتكلف ، لما فيه من المنافاة للخشوع المطلوب في الدعاء ، واشتغال الخواطر بازدواج الألفاظ وإقامة الأوزان[٣] .

قال الحافظ ابن حجر : قوله : «وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه . أي : لا تقصد إليه ، ولا تشغل فكرك به لما فيه من التكلف المانع للخشوع المطلوب في الدعاء»[٤] .

ثم يبين أنه لا تعارض بين هذا النهي وبين ما ورد عن النبي ﷺ من السجع فيقول : «ولا يرد على ذلك ما وقع في الأحاديث الصحيحة ، لأن ذلك كان يصدر من غير قصد إليه ، ولأجل هذا تجيء في غاية الانسجام كقوله ﷺ في الجهاد «اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، هازم الأحزاب»[٥] .

وكقوله ﷺ : «أعوذ بك من عين لا تدمع ، ونفسٍ لا تشبع ، وقلب لا يخشع»[٦] . وكلها صحيحة»[٧] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة باب السين والجيم وما يثلثهما ٥٠٦ط دار الفكر الجديدة .

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات ، باب ما يكره من السجع في الدعاء (٦٣٣٧) .
انظر فتح الباري ١١/ ١٣٨ .

(٣) انظر الدعاء المأثور وآدابه ١٤٧ ، وكتاب أحكام القنوت للشيخ عدنان عرعور ٥٨-٦٠ .

(٤) فتح الباري ١١/ ١٣٩ .

(٥) رواه البخاري في الجهاد باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة ٦/١٠٦ح (٢٩٣٣)، ومسلم في الجهاد، باب كراهة تمني لقاء العدو، ٣/ ١٣٦٣ (١٧٤٢) وأحمد في المسند ٤/ ٣٥٤ .

(٦) رواه مسلم في الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل، ومالم يعمل ٤/ ٢٠٨٨ (٢٧٢٢)، والترمذي في الدعوات، باب جامع الدعوات رقم (٦٩)، جـ٥ ص٥١٩ ح (٣٤٨٢) .

(٧) فتح الباري ١١/ ١٣٩ .

قلت: وأدعية أخرى كثيرة، ورد فيها السجع ولكنه ليس متكلفاً فيكون في غاية الانسجام كقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك»(١).

المسألة الخامسة: الدعاء المحرم

يشكل على بعض الناس ما يجري لمن يدعو دعاء محرماً، من إجابة دعائه، وقضاء حاجته، وقد يكون هو في نفسه غير أهل لإجابة الدعاء، وهذا لا إشكال فيه إذا علم أن إجابة الدعاء قد تكون على صاحبها فتنة وبلاء.

«فكم من عبد دعا دعاء غير مباح، فقضيت حاجته في ذلك الدعاء، وكان سبب هلاكه في الدنيا والآخرة، تارة بأن يسأل ما لا يصلح له مسألته، كما فعل بلعام(٢) وثعلبة(٣) وكخلق كثير دعوا بأشياء فحصلت لهم، وكان فيها هلاكهم.

وتارة بأن يسأل على الوجه الذي لا يحبه الله كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾(٤).

ولذا فإن إجابة الداعي ليست دليلاً على صلاحه، وموافقته لشرع الله عز وجل، وإنما تكون الإجابة أحياناً لأسباب أخرى يوضحها الإمام ابن تيمية بقوله: «إجابة الدعاء قد يكون سببه:

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء ٤/ ٢٠٩٧ (٢٧٣٩) وأبو داود في الصلاة، باب في الاستعاذة ٢/ ١٩١ (١٥٤٥).

(٢) بلعام بن باعوراء، من الكنعانيين، وقيل من اليمن وكان لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، حتى دعا على موسى عليه السلام وقومه، فعاقبه الله بأن سلب إيمانه، ووقع في الشهوات وأطاع الشيطان قال تعالى فيه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] انظر تفسير ابن جرير الطبري ٩/ ٨٣ والبداية والنهاية لابن كثير ١/ ٣٢٢.

(٣) ثعلبة بن حاطب بن عمر الأنصاري الأوسي ـ طلب من الرسول ﷺ أن يدعو له بالرزق وأعاد عليه ثلاثاً والرسول يصرفه وفي الثالثة دعا له فاتخذ غنماً حتى أشغله عن الجماعة ولما فرضت الزكاة منعها وقال عنها: جزية فأنزل الله فيه: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة: ٧٥] مات في خلافة عثمان رضي الله عنه انظر أسد الغابة ١/ ٢٣٨ وتفسير الإمام ابن جرير الطبري ٦/ ١٨٩.

(٤) سورة الأعراف: ٥٥ وانظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٩٣.

اضطرار الداعي وصدقه. وقد يكون سببه مجرد رحمة الله. وقد يكون أمراً قضاه الله، لا لأجل دعائه. وقد يكون له أسباب أخرى، وإن كانت في حق الداعي، فإنا نعلم أن الكفار قد يستجاب لهم، فيسقون، وينصرون ويعانون ويرزقون، مع دعائهم عند أوثانهم، وتوسلهم بها، قال الله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾(١).

والدعاء المحرم من جهتين:

١- إما من جهة المطلوب.

٢- وإما من جهة نفس الطلب.

وقد ساق الإمام ابن تيمية أمثلة على كل واحد من هذين.

مثال الدعاء المحرم من جهة المطلوب: أن يسأل الإنسان ما يضره في دنياه أو آخرته، وإن كان لا يعلم أنه يضره، فيستجاب له.

كالرجل الذي عاد النبي ﷺ فوجده مثل الفرخ فقال: «هل كنت تدعو الله بشيء؟» قال: كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبني به في الآخرة فعجله لي في الدنيا.

قال: «سبحان الله: إنك لا تستطيعه، أو لا تطيقه، هلا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»(٢).

ومن أمثلة الدعاء المحرم: أن يدعو بإثم أو قطيعة رحم، أو يدعو على أحد بغير حق.

وأما أمثلة حرمة الدعاء من جهة الطلب فكثيرة:

ومنها: أن يكون الدعاء لله، لكنه توسل إليه بما لا يجوز أن يتوسل به، كالمشركين الذين يتوسلون إلى الله بأوثانهم، وقد يكون من نوع ما يفعله السحرة من مخاطبة الكواكب، وعبادتها، ونحو ذلك.

---

(١) سورة الإسراء: ٢٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا ٤/ ٢٠٦٨ (٢٦٨٨) والترمذي في الدعوات ٤/ ٥٢١، ٥٢٢ (٣٤٨٧) ورواه أحمد في المسند ٣/ ١٠٧، ٢٨٨.

وكل هذه الأدعية شركية محرمة، وهذه تكون فتنة في حق من لم يهده الله، وينور قلبه، ويفرق بين أمر التكوين، وأمر التشريع، ويفرق بين القدر والشرع[(١)].

ولهذا يقع الاعتداء في الدعاء الذي حذر الله منه، إما في صفة الدعاء أو في المسؤول، وكلا الأمرين محرم، وقضاؤه كوناً لا شرعاً، وهو بلاء وفتنة، والله أعلم.

المسألة السادسة : القنوت:

القنوت ثابت بالسنة في جميع الفرائض عند نزول النوازل، ويقنت لكل نازلة من الدعاء بما يناسبها.

والناس في القنوت طرفان ووسط:

١- فبعضهم يرى أنه لم يعد مشروعاً، فقد نسخ، لأن النبي ﷺ قنت ثم ترك، وتركه دليل على أنه منسوخ، وهذا القول ينسب إلى أبي حنيفة، وغيره من أهل العراق.

٢- وقال آخرون: بل هو مشروع دائماً، وخاصة في الفجر، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾[(٢)].

قالوا: الوسطى هي الفجر، والقنوت فيها، ومعنى هذا أن كلامهم بني على مقدمتين: الأولى، أن المراد بالوسطى في الآية: صلاة الفجر. والثانية: أن القنوت يكون فيها بالدعاء.

قال الإمام ابن تيمية: «وكلتا المقدمتين ضعيفة، فإن الصلاة الوسطى هي العصر، كما ثبت بالنصوص الصحيحة، وأما القنوت: فهو المداومة على الطاعة، وهذا يكون في القيام والسجود، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[(٣)]»[(٤)].

٣- القول الوسط والصحيح في المسألة كما ذكر أهل العلم: هو أن القنوت مشروع عند الأسباب، كالنوازل التي تنزل بالناس، فيكون مسنوناً عند ذلك في جميع الفرائض.

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٩٥.

(٢) سورة البقرة: ٢٣٨.

(٣) سورة الزمر: ٩.

(٤) انظر مجموع الفتاوى ٢٣/ ١٠٥-١١٤.

وذلك أن النبي ﷺ لم يكن يقنت دائماً، وإنما قنت لسبب نزل به، ثم تركه عند عدمه.

وهذا القول هو الذي عليه أئمة الحديث، ورجحه الإمامان ابن تيمية وابن القيم.

يقول ابن تيمية: «وقد تبين بما ذكر- يعني من الأدلة - أن القنوت يكون عند النوازل، وأن الدعاء في القنوت ليس شيئاً معيناً، ولا يدعو بما خطر له، بل يدعو من الدعاء المشروع بما يناسب القنوت، كما أنه إذا دعا في الاستسقاء دعا بما يناسب المقصود، فكذلك إذا دعا في الاستنصار دعا بما يناسب المقصود»(١).

وقال ابن القيم: «والإنصاف الذي يرتضيه العالم المنصف أنه ﷺ جهر، وأسر، وقنت وترك، وكان إسراره أكثر من جهره، وتركه القنوت أكثر من فعله، فإنه إنما قنت عند النوازل للدعاء لقوم وللدعاء على آخرين، ثم تركه لما قدم من دعا لهم، وتخلصوا من الأسر.

فكان قنوته لعارض، فلما زال زال القنوت، ولم يختص بالفجر، بل كان يقنت في صلاة الفجر والمغرب»(٢).

وبهذا يتبين أن القنوت سنة، ولكن لعارض، وليس منسوخاً، ولا راتباً والقول الوسط هو الصواب، يقول ابن القيم: فأهل الحديث متوسطون بين هؤلاء - يشير إلى من أنكره - وبين من استحبه عند النوازل وغيرها، وهم أسعد بالحديث من الطائفتين، فإنهم يقنتون حيث قنت رسول الله ﷺ، ويتركون حيث تركه، فيقتدون به في فعله وتركه، ويقولون: فعله سنة، وتركه سنة.

ومع هذا فلا ينكرون على من داوم عليه ولا يكرهون فعله، ولا يرونه بدعة ولا فاعله مخالفاً للسنة، كما لا ينكرون على من أنكره عند النوازل، ولا يرون تركه بدعة، ولا تاركه مخالفاً للسنة، بل من قنت فقد أحسن، ومن تركه فقد أحسن»(٣) والله أعلم.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٣/ ١١٥، وانظر المغني لابن قدامة ٢/ ٥٨٠، ٥٨٦.

(٢) زاد المعاد ١/ ٢٧٢، وكتاب الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص٢١١-٢١٧ ط المكتب الإسلامي.

(٣) زاد المعاد ١/ ٢٧٤، ٢٧٥. وانظر كتاب أحكام القنوت في ٩٦ صفحة للشيخ عدنان العرعور ط دار الراية ١٤١٣هـ وقد تناول المؤلف أحكام القنوت، وأنواعه.

الخاتمة

أحمد الله عز وجل الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشكره على توفيقه وإعانته لي على إتمام هذا البحث، وأختم بعرض سريع لأهم النقاط التي وردت في هذا البحث على النحو الآتي:

١- أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وبينهما تضمن والتزام، ودعاء العبادة يشمل جميع العبادات ، ودعاء المسألة يختص بطلب جلب النفع، أو كشف الضر ودفعه.

والآيات الواردة في الدعاء منها ما يراد به أحد النوعين تارة، والآخر تارة، ومنها ما يراد به مجموعهما، وهما متلازمان وإذا أريد النوعان فقد استعمل اللفظ في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً، وليس من قبيل استعمال اللفظ المشترك، أو الحقيقة والمجاز كما نص على ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله.

٢- بعد النظر في الآيات المتعلقة بالدعاء تبين أنه يمكن تصنيفها إلى أربعة أصناف:

الأول: صنف منها يأمر بالدعاء، وبإخلاصه لله عز وجل.

الثاني: وصنف يصف عباد الله الصادقين ويمدحهم بكثرة الدعاء والصدق والإلحاح فيه.

الثالث: وصنف فيه توبيخ وتقريع لمن صرف هذه العبادة لغير الله، وبيان لسوء عاقبته في الدنيا والآخرة.

الرابع: صنف يصف حالة الضالين المشركين مع هذه العبادة، وأنهم إذا نزل بهم البلاء، توجهوا إلى الله جل وعلا، ليكشف عنهم ما نزل بهم، أما في الرخاء فيتجهون إلى أصنامهم، وهذه حالة تدعو إلى السخرية بهم.

٣- إن حقيقة الدعاء هي إظهار الافتقار إلى الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو

سمة العبودية، وفيه معنى الثناء على الله وإضافة الجود والكرم إليه سبحانه، ومنزلته تظهر من خلال ما ذكر بشأنه في القرآن والسنة، وعناية الأئمة بالدعاء، وحالهم مع الله في هذه العبادة العظيمة.

٤- فوائد الدعاء كثيرة، أجملتها في الأمور الآتية:

١- الدعاء عنوان الذل والخضوع لله.

٢- الدعاء محرك للقلوب الغافلة، وباعث على الخوف والرجاء من الله.

٣- الدعاء من أعظم وسائل محاسبة النفس، والإقرار بالذنب.

٤- الدعاء موصل إلى المعرفة الحقيقية بالله من خلال دعائه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا.

٥- الدعاء موصل إلى محبة الله جل وعلا لعبده الذي يسأله.

٦- الدعاء سبب من الأسباب الشرعية التي أمرنا بها لجلب المنفعة ودفع المضرة.

٥- إن المنكرين لفوائد الدعاء على أربعة أقوال:

١- قول الفلاسفة

٢- قول جمهور الأشاعرة.

٣- قول القدرية الجبرية.

٤- قول بعض طوائف الصوفية، وكل قول من هذه الأقوال مرتبط بقول أصحابه في أصل من أصول الاعتقاد، وقد ناقشت كل قول منها، وذكرت الردود عليهم بالنقل والعقل، وأقوال سلف الأمة.

٦- عقدت فصلاً بينت فيه أنه لا تعارض بين الدعاء والقدر، فالدعاء سبب من الأسباب الشرعية، وإذا قدر الله للعبد خيراً يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء، وما قدره الله وعلمه من أحوال العباد، وعواقبهم، فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت، فليس في الدنيا شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات كما ذكر

الإمام ابن تيمية رحمه الله .

ثم بينت منهج المخالفين للمنهج الحق في الأسباب وناقشت أقوالهم .

٧- بينت أن للإنسان مع الدعاء واحدة من أربع حالات :

١ - أن يستجيب الله له ويعجّل له دعوته .

٢- أن يؤجل دعوته بأن يدخر له من الخير مثلها ، أو يصرف عنه من الشر مثلها ، ولهاتين الحالتين دليل صحيح من السنة .

٣- أن لا يستجاب له لوجود الموانع ، وانتفاء الشروط من باب الامتحان ، ولله في خلقه شؤون .

ثم أجملت شروط الإجابة بأربعة :

الأول : الإخلاص لله والصدق مع الله عز وجل .

الثاني : اقتفاء هدي النبي ﷺ في الدعاء .

الثالث : التخلص من موانع الإجابه وهي :

أ- أكل الحرام .

ب- الاعتداء في الدعاء وله صور كثيرة .

جـ- الدعاء بإثم أو قطيعة رحم .

د- الاستعجال في الدعاء .

هـ- عدم الجزم في الدعاء .

و- عموم المعاصي التي توجب الغفلة ، واستيلاء الشهوات على القلب .

الرابع : أن يقوم الداعي بالأسباب الجالبة لإجابة الدعاء وهي :

أ- رفع اليدين .

ب- الإلحاح في الدعاء .

جـ- التوسل إلى الله عز وجل باسم الرب.

د- إطالة السفر.

هـ- تحري أوقات الإجابة، والأماكن المباركة، والأحوال الشريفة للإنسان.

٨- بينت حكم صرف الدعاء لغير الله، وأن من دعا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك بالله عز وجل. ثم ناقشت اعتراض المخالفين على هذا الحكم من خلال النصوص، وأقوال السلف رحمهم الله بوجوه عديدة.

٩- ذكرت صوراً من الشرك في الدعاء - يقع فيها المخالفون للمنهج الحق- وهي الاستغاثة بغير الله، والاستعانة بغير الله، والاستعاذة بغير الله، والتوسل الممنوع الذي تتفاوت درجاته، ومنها ما يصل إلى الشرك بالله عز وجل.

ومن خلال ذلك بينت تعاريف الاستغاثة والاستعانة والاستعاذة والتوسل وأقسام كل منها.

١٠- ناقشت شبهات المستغيثين بغير الله التي تقوم على أمرين:

الأول: نصوص باطلة مخترعة، أو ضعيفة لا يحتج بها.

الثاني: شبهات يروجون لها في كل زمان.

وقد حصرتها في خمس وأجبت على كل شبهة منها بوجوه، ثم ذكرت نماذج من شعر المخالفين في باب الدعاء، وما فيه من الشرك بالله من خلال استغاثتهم بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

١١- عقدت مبحثاً خاصاً بالدعاء عند الصوفية، وبينت الخلط والضلال عندهم في الدعاء من جانبين:

الأول: ضلالهم فيما سموه بالغوث، وصلة ذلك بالدعاء.

الثاني: ضلالهم في الأدعية البدعية التي تحمل الغلو والحلول والشرك، وضلالهم في طريقة الذكر.

١٢- بينت منهج الرافضة في الدعاء، وصلة ذلك بالإمامة التي هي أصل من أصولهم الباطلة، وعليها مدار كثير من أقوالهم الفاسدة، ومناهجهم المنحرفة، وعرضت لنماذج من أقوالهم في الدعاء، وبينت بطلانها وفساد عقيدتهم في ذلك.

١٣- عقدت مبحثاً ختمت به البحث في مسائل متفرقة في الدعاء، وقد تنازع فيها الناس، ومنها ما تُعد المخالفة فيه بدعة، وقد وضحت الحق بالدليل، وذكرت أقوال الأئمة المعتمدة في تلك المسائل، وهي ست مسائل، والله الموفق، والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث

فهرس الآثار

فهرس الأشعار

فهرس الأعلام

فهرس المراجع والمصادر

١- إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، دار المعرفة ـ بيروت.

٢- الآداب الشرعية والمنح المرعية: محمد بن مفلح المقدسي.

٣- الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل البخاري، دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٨٠م.

٤- الأذكار: للإمام أبي زكريا النووي، مكتبة المؤيد الطائف.

٥- إرواء الغليل: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المؤيد الإسلامية.

٦- أسباب النزول: علي بن أحمد الواحدي، عالم الكتب، بيروت.

٧- الاستيعاب لابن عبدالبر على هامش الإصابة: ابن عبدالبر، دار الكتاب العربي، بيروت.

٨- الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة: عمر سليمان الأشقر، دار النفائس الطبعة الأولى.

٩- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن حجر، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٠- أصول مذهب الشيعة الاثني عشرية: د/ ناصر بن عبدالله القفاري، دار الحرمين الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

١١- أحكام القنوت: عدنان العرعور، دار الراية.

١٢- الاعتصام: أبو إسحاق بن إبراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي، دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ.

١٣- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت ط الثامنة ١٩٨٩م.

١٤- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ابن قيم الجوزية، دار المعرفة.

١٥- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: الإمام ابن تيمية، الطبعة الأولى ١٤٠٤ العبيكان.

١٦- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء: أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٧- بدائع الفوائد: لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٨- البدر الطالع: للإمام الشوكاني، مطبعة السعادة ١٣٤٨هـ.

١٩- تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٠- التاريخ الكبير: محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر.

٢١- تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين: محمد بن علي الشوكاني اليماني، دار الكتب العلمية ـ بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٢٢- التصوف بين الحق والخلق: محمد فهر شقفة، دار البيان ط٢ ثانية. ١٣٩٠.

٢٣- التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق: للدكتور/ زكي مبارك، دار الجيل ـ بيروت.

٢٤- تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد: للصنعاني، دار الكتاب الإسلامي الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

٢٥- تفسير القرآن الجليل: عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، مؤسسة الرسالة.

٢٦- تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن كثير الدمشقي، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ مصر.

٢٧- التفسير القيم: لابن ا لقيم، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٣٩٨هـ.

٢٨- تفسير المعوذتين: لابن القيم: دار الحديث ـ مصر.

٢٩- تلبيس إبليس: لابن الجوزي، ١٣٩٦هـ.

٣٠- تمييز الطيب من الخبيث فيما يدرو على ألسنة الناس من الحديث: عبدالرحمن بن علي بن محمد الشيباني، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣١- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الموضوعة: لابن أحمد الكناني دار الكتب العلمية ـ بيروت ط الثانية ١٤٠١هـ.

٣٢- تهذيب التهذيب: أحمد بن حجر العسقلاني، دار صادر بيروت ط الأولى ١٣٢٥هـ.

٣٣- تهذيب مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة ط٥، ١٤١٤هـ.

٣٤- التوصل إلى حقيقة التوسل: محمد نسيب الرفاعي، دار لبنان ١٣٩٩هـ ط الثالثة.

٣٥- تيسيرالعزيز الحميد بشرح كتاب التوحيد: سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، المكتب الإسلامي - بيروت ط الخامسة ١٤٠٢هـ.

٣٦- تيسير الكريم الرحمن: عبدالرحمن بن سعدي، المطابع الأهلية ١٤٠٤هـ.

٣٧- جامع الأصول في أحاديث الرسول: المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، دار الفكر - بيروت - ط الثانية ١٤٠٣هـ.

٣٨- جامع البيان في تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري، دار الفكر بيروت ١٤٠٨هـ.

٣٩- جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي، رئاسة إدارة البحوث العلمية والدعوة والإرشاد.

٤٠- الجامع لأحكام القرآن: عبدالله بن محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتاب - ط الثالثة ١٣٨٧هـ.

٤١- الجواب الفائق على مبدل الحقائق: عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، مطبعة سفير الرياض ط الأولى ١٤١٠هـ.

٤٢- الجامع الفريد: مجموعة رسائل لأئمة الدعوة، دارالأصفهاني للطباعة جدة ١٣٩٣هـ.

٤٣- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٣ط الأولى.

٤٤- حقيقة البدعة وأحكامها: سعيد بن ناصر الغامدي، مكتبة الرشد - الرياض ط الأولى ١٤١٢هـ.

٤٥- حلية الأولياء: لأبي نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية - بيروت.

٤٦- الداء والدواء - لابن قيم الجوزية، مكتبة التراث الإسلامي.

٤٧- دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: د/زاهر بن عواض الألمعي، مطابع الفرزدق - الرياض ط الأولى ١٤٠٥هـ.

٤٨- الدعاء المأثور وآدابه وما يجب على الداعي اتباعه واجتنابه: لأبي بكر الطرطوشي، دار الفكر المعاصر بيروت ط ١٤٠٩هـ.

٤٩- دلائل النبوة: للبيهقي تحقيق عبدالرحمن عثمان ط٢ دار الفكر.

٥٠- ديوان الإمام ابن تيمية: جمع محمد عبدالرحيم، دار الجيل-بيروت الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٥١- ديوان الإمام الشافعي: جمع محمد عفيف الزعبي، دار الجيل ومؤسسة الزعبي ط الثالثة ١٣٩٢هـ.

٥٢- الرسائل والمتون العلمية: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار الوطن الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٥٣- رياض الصالحين: للإمام النووي، دار المأمون للتراث ـ دمشق ط١٢ ١٤١١هـ.

٥٤- الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة: يحيى بن أبي بكر العامري اليمني، مكتبة المعارف ـ بيروت ط الثانية ١٩٧٩م.

٥٥- زاد المسير في علم التفسير: للإمام ابن الجوزي، المكتب الإسلامي ط الثالثة ١٤٠٤هـ.

٥٦- زاد المعاد في هدي خير العباد: للإمام ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامي ط الثانية ١٤٠١هـ.

٥٧- سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ط الثانية ١٣٩٢هـ.

٥٨- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ط الأولى ١٣٩٩هـ.

٥٩- سنن ابن ماجه: لمحمد بن يزيد القزويني بن ماجه تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي ١٣٩٥هـ.

٦٠- سنن أبي داود وبهامشه معالم السنن للخطابي: سليمان بن الأشعث السجستاني إعداد وتعليق عبيد الدعاس.

٦١- سنن الترمذي (الجامع الصحيح): محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، المكتبة الإسلامية.

٦٢- سنن الدارمي: عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٦٣- سنن النسائي: أحمد بن شعيب النسائي، دار الفكر ـ بيروت ط الأولى ١٣٤٨هـ.

٦٤- سير أعلام النبلاء: للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي مؤسسة الرسالة.

٦٥- شأن الدعاء: للإمام أبي سليمان الخطابي تحقيق أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربيةط الثالثة ١٤١٢هـ.

٦٦- شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الدمشقي، تحقيق شعيب الأرناؤوط دار البيان ومكتبة المؤيد الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

٦٧- شرح عين العلم وزين الحلم: نور الدين محمد الهروي المعروف بالقارئ دار المعرفة ـ بيروت.

٦٨- الشعر الإسلامي في العصر العباسي: عبدالله الجعيثن، المطابع الأهلية ـ الرياض ١٤٠٢هـ.

٦٩- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٧٠- صفة الصفوة: لابن الجوزي، تحقيق محمد فاخوري.

٧١- طريق الوصول إلى العلم المأمول: عبدالرحمن السعدي، مكتبة ابن تيمية القاهرة.

٧٢- عدة الحصن الحصين: محمد ابن الجزري الدمشقي، ط٢، ١٤٠٣هـ مطبعة المدني.

٧٣- العواصم والقواصم: محمد بن إبراهيم الوزير اليماني، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ.

٧٤- غذاء الألباب شرح منظومة الآداب: محمد السفاريني الحنبلي، الناشر مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض.

٧٥- غريب الحديث: للإمام أبي سليمان أحمد الخطابي، ط دار الفكر، دمشق، نشر جامعة أم القرى ١٤٠٢هـ.

٧٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لأحمد بن حجر العسقلاني المطبعة السلفية.

٧٧- فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي، ط صادر بيروت.

٧٨- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق ـ بيروت.

٧٩- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: لابن تيمية، المكتبة العلمية ـ بيروت.

٨٠- القاموس المحيط: محمد يعقوب الفيروز أبادي، ط. دار الفكر طبعة جديدة، ١٤١٥هـ.

٨١- القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه: عبدالرحمن المحمود، دار النشر الدولي ـ الرياض ـ ط الأولى ١٤١٤هـ.

٨٢- القول السديد: للشيخ عبدالرحمن بن سعدي، ط دار النصر ونشر مكتبة المعارف الرياض.

٨٣- كتاب الدعاء: حسين عوايشة المكتبة الإسلامية، ط السادسة ١٤١٣هـ.

٨٤- كشف الأسرار: روح الله الخميني، دار عمار ـ عمان ط الثانية.

٨٥- كشف الخفاء ومزيل الألباس: إسماعيل بن محمد العجلوني، مؤسسة الرسالة بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.

٨٦- لباب النقول: للسيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت ١٤٠٣هـ.

٨٧- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور ط. دار صادر بيروت ١٣٠٨هـ.

٨٨- مجابي الدعوة: لابن أبي الدنيا، تحقيق/ زياد حمدان مؤسسة الكتب الثقافية ط الأولى ١٣١٤هـ.

٨٩- مجمع الوائد ومنبع الفوائد: علي الهيثمي مؤسسة المعارف ـ بيروت.

٩٠- مجموع فتاوى ابن باز: (جمع) محمد بن سعد الشويعر، نشر مكتبة المعارف ـ الرياض ١٤١٣هـ.

٩١- مجموع فتاوى ابن تيمية: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، ط الأولى ١٣٩٨هـ.

٩٢- محموع فتاوى ابن عثيمين: (جمع) فهد بن ناصر السليمان، دار الوطن ـ الرياض ط الثانية ١٤١٣هـ.

٩٣- مجموع الرسائل الكبرى: لابن تيمية، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٩٤- مجموعة الرسائل والمسائل: لابن تيمية، دار الكتب العلمية ط الأولى ١٤٠٣هـ.

٩٥- مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان ١٩٨٦م.

٩٦- مدارج السالكين من منازل إياك نعبد وإياك نستعين: للإمام ابن القيم، دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٣٩٢هـ.

٩٧- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع لصفي الدين عبد المؤمن بن عبدالحق البغدادي، دار المعرفة ـ بيروت ١٣٧٧.

٩٨- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد المقرئ الفيومي، المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٢١م.

٩٩- المستدرك على الصحيحين بهامشه التلخيص للذهبي: محمد بن عبدالله الحاكم، مكتبة المطبوعات الإسلامية (حلب).

١٠٠- مسند الإمام أحمد: أحمد بن حنبل الشيباني، دار صادر ـ بيروت.

١٠١- معارج القبول: للشيخ حافظ الحكمي، المكتبة السلفية، المدينة النبوية.

١٠٢- معجم البلدان: ياقوت بن عبدالله الحموي، ط. دار بيروت ١٤٠٨هـ.

١٠٣- معجم الطبراني الصغير: لسليمان بن أحمد الطبراني، دار الكتب العلمية.

١٠٤- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية ط الثانية.

١٠٥- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي: جماعة من المستشرقين، طباعة مكتبة ابريل ١٩٣٦.

١٠٦- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر ط الثانية ١٤٠١هـ.

١٠٧- معجم المقاييس في اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا، دار الفكر، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو ط الأولى ١٤١٥هـ طبعة جديدة في مجلد واحد.

١٠٨- مفتاح دار السعادة: لابن قيم الجوزية، مكتبة الرياض الحديثة.

١٠٩- مفتاح كنوز السنة: محمد فؤاد عبدالباقي، مطبعة معارف لاهور ١٣٩٧.

١١٠- مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط الأولى ١٤١٢هـ طبعة جديدة.

١١١- مناقب الإمام أحمد: لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، تحقيق التركي ـ تصحيح علي محمد عمر، ط الأولى ١٣٦٦هـ.

١١٢- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق محمد عبدالرزاق حمزة، دار الكتب العلمية - بيروت.

١١٣- الموطأ: مالك بن أنس، ط. دار إحياء الكتب الدينية وعيسى البابي الحلبي وشركاه.

١١٤- ميزان الاعتدال في نقد الرجال: محمد بن أحمد الذهبي، دار المعرفة - بيروت ط الأولى ١٣٨٢هـ.

١١٥- النبذة الشريفة النفيسة في الرد على القبوريين: حمد بن ناصر آل معمر تحقيق عبدالسلام برجس، دار العاصمة - الرياض ط الأولى ١٤٠٩هـ.

١١٦- نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: للشيخ محمد حسن عقيل موسى، الناشر/ دار الأندلس (جدة) ط١ (١٤١١هـ).

١١٧- نزهة المتقين في شرح رياض الصالحين: لمجموعة مؤلفين، مؤسسة الرسالة ط١٢ ١٤١٤هـ.

١١٨- النقشبندية عرض وتحليل: عبدالرحمن دمشقية، دار طيبة.

١١٩- النهاية في غريب الحديث والأثر: المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق طاهر محمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، دار الفكر - بيروت.

١٢٠- هذه هي الصوفية: عبدالرحمن الوكيل، دار الكتب العلمية ط الثالثة ١٣٩٩هـ.

١٢١- هذه مفاهيمنا صالح بن عبدالعزيز الشيخ، دار البخاري - القصيم.

١٢٢- الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب: لابن قيم الجوزية/ تحقيق إسماعيل بن محمد الأنصاري، دار النصر الحديثة - الرياض.

١٢٣- وفيات الأعيان: لابن خلكان دار صادر - بيروت.

فهرس الموضوعات